المغني في التَّفسير

المُحَرِّرُ الجَامِعُ لِتفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحرِّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

مُقْتَبَسَةً مِنْ مُوسُوعَةِ التَّفْسِيرِ المَأْثُورِ

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْنُ عَبْدِهِ

د/ آلَاء رِضَا

غَفَرَ اللَّهُ لَهُمَا وَلِوَالِدَيْهِمَا وَلِمَشَايِخِهِمْ وَلِلْمُسْلِمِينَ

بسم الله الرحمن الرحيم

«المُغْنِي فِي التَّفْسِيرِ»

المُحَرَّرُ الجَامِعُ لِتَفَاسِيرِ السَّلَفِ

سورةُ مَرِيَمَ، سورةُ طه

(المجلدُ السادسَ عشرَ)

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة إلكترونية

تَفْسِيرُ
سُورَةِ مَرِيمَ

سورةُ مَريمَ

سورةُ مَريمَ

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسُورةِ (مَريمَ)،[1] ومما يدلُّ على ذلك:

1- عن عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه، قال: (سورةُ «بني إسرائيلَ»، و«الكَهفِ»، و«مَريمَ»، و«طه»، و«الأنبياءِ»: هُنَّ مِن العِتاقِ الأُوَلِ،[2] وهُنَّ مِن تِلادي[3]).[4]

(1) سُمِّيَت بسورةِ مريمَ؛ لاشتِمالِها على قِصَّتِها مُفصَّلةً.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (305/1)، ((تفسير ابن عاشور)) (58/16).

(2) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقوله: (العِتَاق الأُوَل): السُّوَرُ الَّتي أُنزلتْ أوَّلًا بمكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (179/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (388/8).

(3) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتلادُ قديمُ المِلك.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (388/8).

(4) أخرجه البخاري (4739).

قال الكرماني: (يريدُ [أي: ابنُ مَسعودٍ] تفضيلَ هذه السُّوَرِ؛ لِما يتضَمَّنُ مُفتَتَحُ كُلٍّ منها مِن أمرٍ غريبٍ وقع في العالَمِ، خارِقًا للعادةِ، وهو الإسراءُ، وقِصَّةُ أصحابِ الكَهفِ، وقِصَّةُ مريمَ، ونحوُها، والأوَّليَّةُ إمَّا باعتبارِ حِفظِها، أو باعتبارِ نُزولِها؛ لأنَّها مكِّيَّاتٌ).

((الكواكب الدراري)) (177/17).

2- عن أبي هُريرةَ رضِي الله عنه، قال: (قدمتُ المدينةَ مهاجرًا، فصليتُ الصبحَ وراءَ سِباعٍ[5] فقرَأ في السجدةِ الأُولَى سورةَ «مريَم»، وفي الأُخرى وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ).[6]

فضائل السورة وخصائصها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه:

كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ الله عنه المتقدِّمِ قريبًا.

سورةُ مَريم مَكِّيَّةٌ،[7] وحُكِي الإجماعُ على ذلك.[8]

---

(5) هو سِباعُ بنُ عُرْفُطةَ، صحابيٌّ، استعمَله النَّبِيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم على المدينةِ لما خرَج إلى خيبرَ، وإلى دُومةِ الجندلِ.
يُنظر: ((الاستيعاب في معرفة الأصحاب)) لابن عبد البر (2/682)، ((أسد الغابة)) لابن الأثير (2/171).

(6) أخرجه أحمد (8552)، وابن حبان (7156)، والبيهقي (4191) واللفظ له.
قال الذهبي في ((المهذب)) (2/815): إسناده صالح، وقال الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (2/122): رجالُه رجالُ الصحيح، وصحَّح إسناده ابن كثير في ((الأحكام الكبير)) (3/154)، وأحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (16/229).

(7) وقيل: مَكيَّة إلَّا آيتينِ منها، فمدنيَّتانِ، وهما قولُه تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ ... [مريم: 58]، وقولُه: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ... [مريم: 71].
وقيل: إلَّا آية السجدةِ منها فمدنيَّةٌ.
وقيل: إنَّ السورةَ كلَّها مدنيةٌ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/443)، ((الوسيط)) للواحدي (3/174)، ((تفسير الزمخشري)) (3/3)، ((تفسير البيضاوي)) (4/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 489).

(8) ممَّن نقل الإجماعَ على ذلك: القرطبي، والفيروزابادي.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/72)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (1/305).
وقال ابنُ عطية: (هذه السورةُ مكيَّةٌ بإجماعٍ إلَّا السَّجدةَ منها، فقالت فرقةٌ: هي مكيَّةٌ، وقالت فرقةٌ: هي مدنيةٌ).
((تفسير ابن عطية)) (4/3).

مقاصد السورة:

تحقيقُ العُبوديَّةِ، وتعظيمُ شَأنِ الرُّبوبيَّة، وتقريرُ مَبدأِ البَعثِ.

من أهمِّ موضوعات هذه السُّورةِ:

1- ذِكرُ قِصَّة زكريَّا عليه السلامُ.

2- ذكرُ قِصَّةِ مَريمَ ومولدِ عيسى عليهما السلامُ.

3- ذِكرُ طرفٍ من قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ مع أبيه.

4- الإشارةُ إلى عددٍ مِن النبيينَ، ومنهم: موسى، وهارونُ، وإسماعيلُ، وإدريسُ عليهم السَّلامُ.

5- بيانُ جزاءِ المتَّقينَ وعقابِ الكافِرينَ، وفَتحُ بابِ التَّوبةِ للعاصينَ.

6- حكايةُ بَعضِ شُبهاتِ المشركينَ المتعلقةِ بالقرآنِ والبعثِ والوحدانيةِ مع الردِّ عليها، وإقامةِ الأدلةِ على وحدانيةِ الله، ونفيِ الشريكِ والولدِ، وإقامةِ الأدلةِ على أنَّ البعثَ حقٌّ.

7- بيانُ بعضِ مَشاهِدِ القيامةِ.

8- خُتِمَت السورةُ بما بَدَأت به مِن بَيانِ محبَّةِ اللهِ تعالى وتكريمِه لأوليائِه، وبيانِ الحِكمةِ مِن نُزولِ القُرآنِ، وهي: البِشارةُ والنِّذارةُ.

سورةُ مَريمَ

الآيات (1–6)

كهيعص (1) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3) قَالَ رَبِّ إِنِّي
وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ
مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ
وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6)

غريب الكلمات:

وَهَنَ الْعَظْمُ: أي: رقَّ وضَعُف، وأصلُ (وهن): يدُلُّ على ضَعفٍ.

وَاشْتَعَلَ: أي: انتَشَر، والاشتعالُ في الأصلِ: انتشارُ شُعاعِ النَّارِ، وأصلُ (شعل): يدُلُّ على انتِشارٍ وتفرُّقٍ في الشَّيءِ الواحِدِ مِن جَوانِبِه.

شَقِيًّا: أي: خائبًا؛ يُقالُ لكُلِّ مَن سعى في أمرٍ فبطَلَ سَعيُه: قد شَقِيَ به، وإذا أدركَه قيل: قد سَعِدَ به، وأصْلُ (شقي): يدُلُّ على المعاناةِ، وخِلافِ السُّهولةِ والسَّعادةِ.

الْمَوَالِيَ: أي: الأقاربَ والعَصَبةَ مِن الوَرَثةِ الذين يَلونَه في النَّسَبِ، وأصلُ (ولي): يدُلُّ على قُربٍ.

عَاقِرًا: أي: لا تَلِدُ؛ يُقالُ: عَقَرْتُ النَّخلَ: إذا قطعتَه مِن أصلِه، فإذا لم تلِدْ كأنَّها تعقرُ النسلَ، أي: تقطعُه. وقيل: العاقِرُ: الرَّملةُ التي لا نَبْتَ فيها، ومنه قيل للمرأةِ التي لا تَلِدُ: عاقرٌ.

رَضِيًّا: أي: مَرضيًّا في أخلاقِهِ وأفعالِه، وأصلُ (رضي): يدُلُّ على خِلافِ السُّخْطِ.

تفسير الآيات:

كهيعص (1).

هذه الحروفُ المقطَّعة التي افتُتِحَت بها هذه السُّورةُ وغيرُها، تأتي لبيانِ إعجازِ القرآنِ؛ حيث تُظهِرُ عجْزَ الخَلْقِ عن معارضتِه بمثلِه، مع أنَّه مركَّبٌ مِن هذه الحروفِ العربيَّةِ التي يتحدَّثون بها.

ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (2).

أي: هذا الذي نَتلوه في هذه الآياتِ، قِصَّةُ رَحمةِ رَبِّك -يا مُحمَّدُ- عَبدَه زكريَّا عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.(9)

قال تعالى: وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ [الأنعام: 85].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ الله - ﷺ - قال: ((كان زكريَّاءُ نجَّارًا)).(10)

---

(9) والمرادُ برحمةِ الله لزكريَّا هنا: إجابتُه إيَّاه حينَ دعاه، وسألَه الولَدَ.

وممَّن قال بذلك: الواحدي، والرسعني، والشوكاني، وابن عاشور.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/175)، ((تفسير الرسعني)) (4/387)، ((تفسير الشوكاني)) (3/379)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/63).

(10) رواه مسلم (2379).

إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (3).

أي: إذ دعا زكريَّا ربَّه، وسألَه بنداءٍ خَفيٍّ عن النَّاسِ.[11]

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (4).

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، إنِّي رقَّ عَظمي، وضعُفَت قُوَّةُ بَدَني.

وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا.

أي: وانتشَرَ بياضُ الشَّيبِ في رأسي.

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا.

أي: ولم أكُنْ حين أدعوك مِن قَبلُ -يا ربِّ- خائبًا محرومًا مردودَ الدَّعوةِ، بل عوَّدْتَني إجابةَ دَعوتي، وقَضاءَ حاجَتي.

---

(11) واختُلِف في سببِ إخفائِه هذا النِّداءَ: فقيل: أخفاه مِن قَومِه؛ لئلَّا يُلامَ على مسألةِ الولَدِ عند كِبَرِ السِّنِّ، فيقولوا: انظُروا إلى هذا الشَّيخِ يَسألُ على كبرِه الولَدَ.

وقيل: لأنَّ الإخفاءَ أقربُ إلى الإخلاصِ، وأبعدُ مِن الرياءِ.

وقيل: إنَّه دعا في جوفِ اللَّيلِ، وهو ساجدٌ.

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (3/277)، ((تفسير القرطبي)) (11/76)، ((تفسير ابن جزي)) (1/477)، ((تفسير الشوكاني)) (3/379).

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (5).

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي.

أي: وإنِّي –يا ربِّ– خِفتُ أن يُضَيّعَ أقاربي مِن بَعدِ موتي الدِّينَ والعِلمَ، ولا يَقوموا بحَقِّهما.(12)

وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا.

أي: وكانت امرأتي عَقيمًا لا تَلِدُ أصلًا.

فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا.

أي: فارْزُقْني –يا رَبِّ– مِن عِندِك ولدًا يقومُ بالدِّينِ مِن بعدي حَقَّ القيامِ.

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ [آل عمران: 38].

وقال سُبحانَه: وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ [الأنبياء: 89].

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (6).

---

(12) قال ابن كثير: (وجهُ خوفِه أنَّه خَشِي أنْ يتصرَّفوا مِن بعدِه في النَّاسِ تصرُّفًا سيِّئًا).
((تفسير ابن كثير)) (5/212).

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آَلِ يَعْقُوبَ.

أي: يَرِثُ عِلمي ونبُوَّتي، ويَرِثُ مِن أجدادِه آلِ يَعقوبَ العِلمَ والنبُوَّةَ، فيكونُ نبيًّا، داعيًا إلى الله، قائمًا بدِينِه.(13)

---

(13) اخْتُلِفَ في المراد بهذا الميراث.

ورجَّح ابنُ كثير (٩/ ٢١٥ – ٢١٧) أنها وراثة النبوة مستندًا إلى السنة، والدلالات العقلية بما مفاده الآتي: ١ – أنّ النبي أعظم منزلة مِن أن يشفق على ماله بأن يأنف مِن وراثة عصباته له، ويسأل أن يكون له ولد، فيحوز ميراثه دونه.

٢ – أنه لم يُذكر أنه كان ذا مال، بل كان نجّارًا يأكل مِن كسب يديه، ومثل هذا لا يجمع مالًا، ولا سيما الأنبياء؟، فإنهم كانوا أزهد شيء في الدنيا.

٣ – قول النبي – ﷺ –: «نحن معشر الأنبياء لا نورث».

وهذا يوجب حمل قوله: ﴿فهب لي من لدنك وليا * يرثني﴾ على ميراث النبوة؛ ولهذا قال: ﴿ويرث من آل يعقوب﴾، كما قال تعالى: ﴿وورث سليمان داود﴾ [النمل: ١٦] أي: في النبوة؛ إذ لو كان في المال لما خصَّه مِن بين إخوته بذلك، ولما كان في الإخبار بذلك كبير فائدة، إذ مِن المعلوم المستقر في جميع الشرائع والملل أنّ الولد يرِث أباه، فلولا أنها وراثة خاصة لما أخبر بها.

وذكر ابنُ كثير أنّ ما رُوِي عن النبي – ﷺ – أنه قال: «رحم الله أخي زكريا، ما كان عليه من ورثة ماله ...».

بأن هذه مرسلات، لا تُعارِض الصحاح.

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٨) أنّ أكثر المفسرين على القول بأن زكريا أراد وراثة المال، وبيَّن أن قول النبي – ﷺ –: «إنا معشر الأنبياء لا نورث» يحتمل أن لا يريد به العموم، ثم رجَّح القول بأنها وراثة النبوة مستندًا إلى دلالة العقل، والنظائر، فقال: «والأظهر الأليق بزكريا – عليه السلام – أن يريد: وراثة العلم والدين؛ فتكون الوراثة مستعارة، ألا ترى أنه إنما طلب وليًّا، ولم يخصص ولدًا، فبلّغه الله أمله على أكمل الوجوه».

ونقل حكاية عن الزجاج أنّ فرقة قالت: إنما كان مواليه مهملين للدّين، فخاف بموته أن يضيع الدين، فطلب وليًّا يقوم بالدين بعده.

وعلَّق عليه بقوله: «وفيه أنه لا يجوز أن يسأل زكريا مَن يرث ماله؛ إذ الأنبياء لا تورث، وهذا يؤيده قول النبي – ﷺ –: «إنا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركنا فهو صدقة».

ويوهنه ذكر العاقر».

أي: في الآية.

وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا.

أي: واجعَلْ وَلَدي -يا رَبِّ- مَرْضيًّا عندك وعندَ عِبادِك، صالحًا في دينِه وخُلُقِه وأعمالِه.

ونقل (٦/ ٩) عن فرقة أنها قالت: بل طلب الولد ثم شرط أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه، تحفظًا مِن أن تقع الإجابة في الولد ثم يخترم فلا يتحصل منه الغرض المقصود.

سورةُ مَريمَ

الآيات (7–11)

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ
هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ
النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا
بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11)

غريب الكلمات:

سَمِيًّا: أي: أحدًا مُسمًّى قَبلَه بهذا الاسمِ، وأصلُه مِن السُّمُوِّ، وهو الذي به رَفعُ ذِكرِ المُسَمَّى، فيُعرَفُ به.

عِتِيًّا: أي: غايةَ الكِبَرِ في السِّنِّ، حتَّى نَحِل العظمُ ويَبِس، والعِتِيُّ: الكِبَرِ المُتَناهي، وكلُّ مُتَناهٍ إلى غايَتِه في كِبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ، فهو عاتٍ، وقيل: العِتِيُّ: يبسٌ في الأعضاءِ والمفاصلِ.

سَوِيًّا: أي: صَحيحًا، لا عِلَّةَ به مِن خَرَسٍ أو مَرَضٍ يمنَعُه مِن الكَلامِ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ.

الْمِحْرَابِ: المحرابُ: الموضِعُ العالي الشَّريفُ، ويُطلَقُ على الغُرفةِ، والمسجدِ، ومقدَّمِ كلِّ مجلسٍ ومصلًّى.

بُكْرَةً: أي: أوَّلَ النهارِ، وقيل: المرادُ صلاةُ الغداةِ، وأصلُ (بكر): أوَّلُ الشيءِ وبدؤُه.

وَعَشِيًّا: أي: آخرَ النهارِ، أو: ما بعدَ الزَّوالِ إلى المغرِب، أو: من الظُّهْرِ إلى نِصْفِ اللَّيْل، أو: مِنْ زوالِ الشَّمْسِ إلى الصَّباحِ، وقيل: المرادُ صلاةُ العصرِ، وأصلُ (عشو): يدلُّ على ظلامٍ، وقلةِ وضوحِ الشيءِ.

تفسير الآيات:

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (7).

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى.

أي: فاستجاب اللهُ له ونُودِيَ:[14] يا زكريَّا، إنا نُبَشِّرُك بإجابةِ دُعائِك، فستُوهَبُ غُلامًا اسمُه يحيى.[15]

كما قال تعالى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: 39].

وقال سُبحانَه: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ [الأنبياء: 90].

---

(14) قال الشنقيطي: (في هذه الآيةِ الكريمةِ حذفٌ دَلَّ المقامُ عليه، وتقديرُه: فأجابَ الله دعاءَه فنُودِي: يَا زَكَرِيَّا ... الآيَةَ).

((أضواء البيان)) (367/3).

(15) قال الشنقيطي: (وقد أوضَح جلَّ وعلا في موضعٍ آخرَ هذا الَّذي أجْمَله هنا، فبَيَّن أنَّ الَّذي ناداهُ بعضُ الملائكةِ، وأنَّ النِّداءَ المذكورَ وَقَع وهو قائمٌ يصلِّي في المحرابِ، وذلك قولُه تعالَى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: 39]، وقولُه تعالَى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ، قال بعضُ العلماءِ: أطلَق الملائكةَ وأراد جبريلَ).

((أضواء البيان)) (367/3).

وقال الواحدي: (وهذا قولُ ابنِ عباسٍ، والأكثرينَ: أنَّ المناديَ جبريلُ وحدَه).

((البسيط)) (220/5).

وذكَر الرازي أنَّ الأكثرينَ على أنَّ المناديَ هو الله تعالى؛ قال: (وذلك لأنَّ ما قبلَ هذه الآيةِ يدُلُّ على أنَّ زكريَّا عليه السَّلامُ إنما كان يخاطِبُ اللهَ تعالى ويسألُه).

((تفسير الرازي)) (511/21-512).

لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا.

أي: لم نُسَمِّ أحدًا قبلَ يحيى بهذا الاسمِ.(16)

---

(16) وممَّن ذهَب إلى هذا المعنى المذكورِ: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

ونسَبه إلى أكثرِ المفسرينَ: ابنُ الجوزي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/120)، ((تفسير الشوكاني)) (3/381) وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وابنُ جُريجٍ، وعبدُ الرحمنِ بنُ زيدِ بنِ أسلمَ، وعكرمةُ، والسديُّ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/462)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (7/2399)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/120).

وقيل: معنى سَمِيًّا: مَثيلًا ونَظيرًا.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: ابنُ عاشور، وجعَله السعدي احتمالًا.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (16/69– 70)، ((تفسير السعدي)) (ص: 490).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/462)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (7/2399)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/120).

واستَبعد القرطبي والشنقيطي هذا المعنى؛ لوجودِ أنبياءَ أفضَلَ مِن يحيى عليه السلامُ، كإبراهيمَ، وموسى، وغيرِهما مِن الأنبياءِ عليهم السلامُ جميعًا.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/83)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (3/368).

ولكِنْ قال ابنُ عاشور: (المعنى: أنَّه لم يجئْ قبلَ يحيى من الأنبياءِ مَن اجتمعَ له ما اجتمع ليحيى؛ فإنَّه أُعطيَ النبُوَّةَ وهو صَبيٌّ [على القولِ بأنَّ المرادَ بالحُكمِ الذي أُوتيَ في صباه هو النبوةُ]...

وجُعِل حَصورًا؛ ليكونَ غيرَ مَشوقٍ عليه في عِصمتِه عن الحرامِ، ولئلَّا تكونَ له مَشقَّةٌ في الجَمعِ بينَ حُقوقِ العبادةِ وحُقوقِ الزَّوجةِ، ووُلِد لأبيه بعد الشَّيخوخةِ ولأمِّه بعدَ العُقرِ...

وجُعِلَ اسمُه العَلَمُ مُبتكرًا غيرَ سابقٍ مِن قَبلِه.

وهذه مزايا وفضائلُ وُهِبت له ولأبيه، وهي لا تقتضي أنَّه أفضَلُ الأنبياءِ؛ لأنَّ الأفضليَّةَ تكونُ بمَجموعِ فَضائلَ لا ببَعضِها وإن جَلَّت؛ ولذلك قيل: «المزيَّةُ لا تقتضي الأفضليَّةَ» وهي كلمةُ صِدقٍ).

((تفسير ابن عاشور)) (16/69، 70).

وقال السعدي: (يحتَمِلُ أنَّ المعنى: لم نجعَلْ له مِن قَبلُ مَثيلًا ومُساميًا، فيكونُ ذلك بِشارةً بكَمالِه، واتِّصافِه بالصِّفاتِ الحميدةِ، وأنَّه فاق مَن قَبلَه، ولكِنْ على هذا الاحتمالِ، هذا العُمومُ لا بُدَّ أن يكونَ مخصوصًا بإبراهيمَ وموسى ونوحٍ عليهم السَّلامُ، ونحوِهم، ممَّن هو أفضَلُ مِن يحيى قطعًا).

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (8).

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا.

أي: قال زكريَّا مُتعجِّبًا: يا ربِّ كيف يُولَدُ لي غُلامٌ، وزوجتي عقيمٌ لا تَحمِلُ.

وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا.

وقد بلغتُ غايةً في كِبَرَ السنِّ حتى نَحَلَت عظامي ويَبِسَت؟![17]

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ [آل عمران: 40].

((تفسير السعدي)) (ص: 490).

اختُلِف في قوله: ﴿لم نجعل له من قبل سميا﴾؛ فقال قوم: معناه: لم تلد مثله عاقر قط.

وقال آخرون: لم نجعل له من قبله مِثْلًا.

وقال غيرهم: معنى ذلك: أنّه لم يسم باسمه أحد قبله.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٤٦٣) مستندًا إلى اللغة القولَ الأخير الذي قاله ابن عباس، وقتادة، وابن جريج، والسدي، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، فقال: «والسّمي: فعيل، صُرِف من» مفعول «إليه».

ووجَّهَ ابنُ عطية (٦/ ١٠) القول الثاني الذي قاله مجاهد، فقال: «وهذا كأنه من المساماة، والسمو».

ثم انتقده مستندًا للواقع، فقال: «وفي هذا بُعْد؛ لأنه لا يُفضل على إبراهيم وموسى؟، إلاّ أن يفضل في السؤود والحصر».

(17) قال السعدي: (وكأنَّه وقتَ دُعائِه لم يستحضِرْ هذا المانِعَ؛ لقوةِ الوارِدِ في قلبِه، وشِدَّةِ الحِرصِ العظيمِ على الولَدِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 490).

وقال الشنقيطي: (استفهامُ زكريَّا استِفهامُ استِخبارٍ واستعلامٍ؛ لأنَّه لا يعلَمُ هل اللهُ يأتيه بالولَدِ مِن زوجِه العجوزِ على كِبَرِ سِنِّهما على سبيلِ خرقِ العادة، أو يأمُرُه بأن يتزوَّجَ شابَّةً، أو يرُدُّهما شابَّين؟ فاستفهَمَ عن الحقيقةِ ليعلَمَها).

((أضواء البيان)) (369/3).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (464/15)، ((تفسير ابن عطية)) (6/4).

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (9).

قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ.

أي: قال لزكريَّا:[18] هكذا الأمرُ كما ذكرتَ مِن أنَّ امرأتَك عاقِرٌ، وأنَّك بلغْتَ من الكِبَرِ عِتيًّا، فمجيءُ الولَدِ منكما والحالةُ هذه أمرٌ مُستغرَبٌ في العادةِ، ولكِنْ قال ربُّك: هذا الأمرُ يسيرٌ وسَهلٌ عليَّ.[19]

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ [آل عمران: 40].

وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا.

---

(18) ممَّن قال بأنَّ القائِلَ هو مَلَكٌ مِن الملائكةِ: يحيى بنُ سلَّام، وابنُ أبي زمنين، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (215/1)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (88/3)، ((تفسير ابن عطية)) (6/4)، ((تفسير القرطبي)) (84/11)، ((تفسير ابن كثير)) (215/5)، ((تفسير الشوكاني)) (387/3).

واختار الرازي أنَّ القائِلَ هو الله تعالى.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (514/21).

(19) وممن اختار أنَّ الإشارَة في قوله: كَذَلِكَ إلى ما سَبَق مِنْ قولِ زكريَّا: ابنُ جرير، والسمرقندي، والزمخشري، وابن عطية، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (466/15)، ((تفسير السمرقندي)) (369/2)، ((تفسير الزمخشري)) (6/3)، ((تفسير ابن عطية)) (9/4)، ((تفسير الشوكاني)) (382/3).

وقيل: المعنى: قال: الأمرُ كذلك، أي: الأمرُ كما قيل لك.

أي: أهبُ لك غلامًا اسمُه يحيى.

يُنظر: ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4499/7).

أي: وقد أوجَدْتُك -يا زكريَّا- مِن قَبلِ يحيى، ولم تكنْ شيئًا موجودًا؛ فكذلك أنا قادِرٌ على إيجاد ولدٍ لك مِن زوجتِك العاقِرِ مع كِبَرِ سِنِّك، فلا تعجَبْ؛ فكما لا عجَبَ مِن خَلقِ الوَلَدِ في الأحوالِ المألوفةِ، كذلك لا عجَبَ مِن خَلقِ الولَدِ في الأحوالِ النَّادرةِ؛ فكلاهما إيجادٌ بعدَ عَدَمٍ.

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (10).

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً.

أي: قال زكريَّا: يا ربِّ، اجعَلْ لي علامةً أستَدِلُّ بها على حَملِ زوجتي؛ ليطمَئِنَّ قلبي.

قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا.

أي: قال اللهُ لزكريَّا: العَلامةُ التي جعَلْناها لك دليلًا على حَملِ زَوجتِك: ألَّا تقدِرَ على الكَلامِ مع النَّاسِ ثَلاثَ ليالٍ، وأنت صحيحٌ ليس بك مَرَضٌ يمنَعُك مِن الكلامِ![20]

كما قال تعالى: قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [آل عمران: 41].

---

(20) قال السعدي: (هذا مِن الآياتِ العَجيبةِ؛ فإنَّ مَنْعَه من الكلامِ مُدَّةَ ثلاثةِ أيَّامٍ، وعجزَه عنه -مِن غيرِ خَرسٍ ولا آفةٍ، بل كان سَويًّا لا نقصَ فيه- مِنَ الأدلَّةِ على قُدرةِ اللهِ الخارقةِ للعوائِدِ! وهو مع هذا ممنوعٌ مِن الكلامِ الذي يتعلَّقُ بالآدميِّينَ وخطابِهم، وأمَّا التَّسبيحُ والتَّهليلُ والذِّكرُ ونحوُه فغيرُ ممنوعٍ منه!).

((تفسير السعدي)) (ص: 490).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (3/371).

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (11).

فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ.

أي: فخرج زكريَّا على قَومِه بني إسرائيلَ مِن مُصَلَّاه الذي بُشِّرَ فيه بالوَلَدِ.

قال تعالى: فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى [آل عمران: 39].

فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

أي: فأشار إلى قَومِه أن سبِّحوا(21) في أوَّلِ النَّهارِ وآخِرِه.

---

(21) قال ابنُ جرير: (وقد يجوزُ في هذا الموضِعِ أن يكونَ عنى به التسبيحَ الذي هو ذِكرُ اللهِ، فيكونَ أمرَهم بالفراغِ لذِكرِ اللهِ في طَرَفَي النَّهارِ بالتَّسبيحِ، ويجوزُ أن يكونَ عنى به الصَّلاةَ، فيكونَ أمَرَهم بالصَّلاةِ في هذين الوقتَينِ).

((تفسير ابن جرير)) (473/15).

و(أَنْ) في قولِه: أَنْ سَبِّحُوا مصدريَّةٌ أو مفسِّرةٌ، والمعنَى: فأوحَى إليهم بأنْ سبِّحوا أو: أي سبِّحوا.

يُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (383/3).

اختُلِف في معنى: ﴿فأوحى إليهم﴾؛ فقال قوم: أمرهم.

وقال آخرون: معنى أوحى: كتب.

وقال غيرهم: أشار إليهم بيده.

وذكر ابنُ جرير (١٥/ ٤٧١) أن المعنى: أشـــار إليهم، وأن هذه الإشـــارة قد تكون باليد، أو بالكتابة، وبغير ذلك مما يُفهم به مراده.

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ١٢) على القول الثاني والثالث بقوله: «وكِلا القولين وحْيٌ».

سورةُ مَريمَ

الآيات (12–15)

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13)
وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا
(15)

غريب الكلمات:

وَحَنَانًا: أي: رَحمةً ومحبَّة، وأصلُ (حنن): يَدلُّ على الإشفاقِ والرِّقَّةِ.

جَبَّارًا: أي: متكبِّرًا، متعاليًا عن قَبولِ الحقِّ، ويُقالُ للقاهرِ غيرَه: جبارٌ، وقيل: هو الذي يَضربُ، ويقتُلُ على الغضبِ، وأصلُ (جبر) هنا: جنسٌ مِن العظمةِ والعلُوِّ.

عَصِيًّا: أي: عاصيًا، والعَصِيُّ: ذو العصيانِ، وعَصَى عِصيانًا: إذا خرَج عن الطاعةِ، وأصلُه أن يتمنَّعَ بعَصاه.

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ: أي: سَلامةٌ وأمانٌ، وأصلُ (سلم): يدلُّ على صِحَّةٍ وعافيةٍ.

تفسير الآيات:

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (12).

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ.

أي: فوُلِد لزكريَّا يحيى، وقال اللهُ له: يا يحيى، خُذِ التَّوراةَ بجِدٍّ واجتهادٍ وعَزمٍ؛ فَهمًا لمعانيها، وعَمَلًا بما فيها، وحَمْلًا للنَّاسِ على اتِّباعِها.[22]

وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا.

أي: وأعطَينا يحيى الفَهمَ لكِتابِ اللهِ، والعِلمَ بأحكامِه، والعَمَلَ به، والحُكمَ به في حالِ صِغَرِه وصِباه قبلَ بُلوغِه.[23]

---

(22) قال الشنقيطي: (وعامَّةُ المفسِّرينَ على أنَّ المرادَ بالكتابِ هنا: التَّوراةُ، وحكى غيرُ واحدٍ عليه الإجماعَ).

((أضواء البيان)) (378/3).

(23) قال الشوكاني: (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا المرادُ بالحكمِ الحكمةُ، وهي الفهمُ للكتابِ الَّذي أُمِر بأخذِه وفهمُ الأحكامِ الدِّينيَّةِ.

وقيلَ: هي العلمُ وحفظُه والعملُ به.

وقيلَ: النُّبوَّةُ.

وقيلَ: العقلُ.

ولا مانعَ مِن أنْ يكونَ الحكمُ صالحًا لحملِه على جميعِ ما ذُكِر).

((تفسير الشوكاني)) (384/3).

قال الشنقيطي: (وللعُلَماءِ في المرادِ بالحُكمِ أقوالٌ مُتقارِبةٌ، مَرجِعُها إلى شيءٍ واحدٍ، وهو أنَّ اللهَ أعطاه الفَهْمَ في الكتابِ، أي: إدراكَ ما فيه والعَمَلَ به في حالِ كونِه صَبيًّا).

((أضواء البيان)) (378/3).

ونسَب السمعانيُّ القولَ بأنَّ المرادَ بـ الحُكمَ: النُّبُوَّةُ إلى أكثرِ المفسِّرينَ.

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (13).

وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا.

أي: وأعْطَيْنا يحيى رَحمةً مِن عِندِنا.[24]

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (282/3).

لكن قال ابنُ عاشور: (ويَبعُدُ أن يكونَ يحيى أُعطِيَ النبُوَّةَ وهو صبيٌّ؛ لأنَّ النبُوَّةَ رُتبةٌ عظيمةٌ، فإنَّما تُعطى عند بُلوغِ الأشُدِّ.

واتَّفَق العُلماءُ على أنَّ يحيى أُعطيَ النبوَّةَ قبل بلوغِ الأربعينَ سنةً بكثيرٍ.

ولعلَّ الله لَمَّا أراد أن يكونَ شَهيدًا في مُقتَبَلِ عُمُرِه باكَرَه بالنبُوَّةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (76/16).

(24) قال الرسعني: (قال ابنُ عباسٍ وأكثرُ المفسِّرينَ واللغويينَ: الحنانُ: الرحمةُ).

((تفسير الرسعني)) (396/4).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (7/4).

وممن اختار أنَّ (حنانًا) معطوفٌ على الحُكْمَ أي: وآتيناه حنانًا: يحيى بنُ سلام، والزجاج، والنحاس، وابنُ عطية، والقرطبي، وابنُ كثير، والبقاعي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (217/1)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (322/3)، ((إعراب القرآن)) للنحاس (7/3)، ((تفسير ابن عطية)) (7/4)، ((تفسير القرطبي)) (87/11)، ((تفسير ابن كثير)) (217/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (179/12)، ((تفسير الشوكاني)) (384/3)، ((تفسير القاسمي)) (88/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 490)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (379/3).

قال النحاس: (وَحَنَانًا عطفٌ على الحُكْمَ، وفي معناه قولان عن ابن عبَّاسٍ: أحدهما: قال: تعطُّفُ اللهِ جلَّ وعزَّ عليه بالرحمةِ.

والقول الآخَرُ: ما أُعطِيَه من رحمةِ النَّاسِ حتى يُخلِّصَهم من الكُفرِ والشَّرّ).

((إعراب القرآن)) (87/11).

وقال الشنقيطي: (والحنانُ: هو ما جُبِلَ عليه من الرَّحمةِ، والعطفِ والشَّفقةِ).

((أضواء البيان)) (379/3).

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (8/3)، ((تفسير ابن كثير)) (217/5).

وقال ابن عطية: (ويجوزُ أن يكونَ قولُه: وَحَنَانًا عطفًا على قولِه: صَبِيًّا، أي: وبحالِ حنانٍ منا وتزكيةٍ له).

((تفسير ابن عطية)) (7/4).

وَزَكَاةً.

أي: وطهارةً مِن الذُّنوبِ والآفاتِ، ونقاءً مِن الخبائِثِ.

وَكَانَ تَقِيًّا.

أي: وكان مُمتَثِلًا لأوامِرِ رَبِّه، مُجتَنِبًا لنواهيه.

كما قال تعالى: وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: 39].

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (14).

وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ.

أي: وكان مُسارِعًا في طاعةِ والِدَيه، كثيرَ الإكرامِ والإحسانِ إليهما قَولًا وفِعلًا.

وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا.

أي: ولم يكُنْ مُتكَبِّرًا عن عبادةِ اللهِ، ولا مُترفِّعًا على أبويه وغيرِهما مِن النَّاسِ، ولا مُستَخِفًّا بحقوقِ العبادِ، بل كان مُتواضِعًا مُتذلِّلًا، طائعًا لا يعصي ربَّه ولا والِدَيه، ولا يَظلِمُ عِبادَ اللهِ.

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (15).

وقال ابن جرير: (وقَولُه: وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا يقولُ تعالى ذِكرُه: ورَحمةً مِنَّا ومحبَّةً له آتيناه الحُكمَ صَبيًّا).
((تفسير ابن جرير)) (15/475).

وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ.

أي: وتحيَّةٌ مِن اللهِ ليحيى يومَ وُلِد، وأمانٌ وسَلامةٌ له من الشَّيطانِ، ومِن كُلّ ما يكرَهُ.[25]

وَيَوْمَ يَمُوتُ.

أي: وتحيةٌ مِنَ اللهِ على يحيى يومَ يموتُ، وأمانٌ وسَلامةٌ له مِن كُرَبِ الموتِ، وعذابِ القَبرِ وفِتنَتِه.

وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا.

أي: وتحيَّةٌ مِنَ اللهِ ليحيى، وأمانٌ وسلامةٌ له حين نبعَثُه حيًّا يومَ القيامةِ، فيأمَنُ مِن الفَزعِ والأهوالِ وعذابِ النَّارِ.

---

(25) قيل: معنى السلامِ هنا: الأمانُ.

وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، والسمعانيُ، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (481/15)، ((تفسير السمعاني)) (283/3)، ((تفسير ابن كثير)) (217/5).

قال ابنُ عطية: (والأظهَرُ عندي أنَّها التحيَّةُ المتعارَفةُ، فهي أشرَفُ وأنبَهُ مِن الأمانِ؛ لأنَّ الأمانَ متحَصِّلٌ له بنَفيِ العِصيانِ، وهي أقَلُّ دَرَجاتِه).

((تفسير ابن عطية)) (8/4).

قال الشنقيطي: (ومَرجِعُ القَولينِ إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ معنى سلامِ التحيَّةِ: الأمانُ، والسَّلامةُ ممَّا يُكرَهُ، وقَولُ مَن قال: هو الأمانُ، يعني: أنَّ ذلك الأمانَ مِن الله.

والتحيةُ مِنَ الله معناها: الأمانُ والسَّـلامةُ ممَّا يُكرَهُ، والظاهِرُ المتبادِرُ أنَّ قولَه: وَسَـلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ تحيةٌ مِن الله ليحيى، ومعناها: الأمانُ والسَّلامةُ).

((أضواء البيان)) (381/3).

سورةُ مَريمَ

الآيات (16-21)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (17) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20) قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21)

غريب الكلمات:

انْتَبَذَتْ: أي: اعتزَلتْ، وانفرَدَتْ، وتنحَّتْ، من النبْذَة، (بضمِّ النونِ وفتحِها)، وهي الناحيةُ، وأصلُ (نبذ): يدلُّ على الطَّرحِ والإلقاءِ.

سَوِيًّا: أي: مُعتَدِلًا تامًّا، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ واعتدالٍ.

زَكِيًّا: أي: طاهِرًا مِن الذُّنوبِ، يَنْمو على النَّزاهةِ والعِفَّةِ، وأصلُ (زكي): يدُلُّ على نَماءٍ وزِيادةٍ.

بَغِيًّا: أي: زانيةً، وأصلُ (بغي) هنا: يدلُّ على جِنسٍ مِن الفَسادِ.

مَقْضِيًّا: أي: محكومًا به، مفروغًا منه، سابقًا في علمِ اللهِ أنَّه كائنٌ، فهو واقعٌ لا مَحالةَ، وأصلُ (قضي): يدُلُّ على إحكامِ أمرٍ، وإنفاذِه لجِهَته.

تفسير الآيات:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (16).

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ.

أي: واتْلُ -يا مُحمَّدُ- في القُرآنِ خبرَ مَريمَ عليها السَّلامُ.[26]

إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا.

---

(26) قال البقاعي: (وَاذْكُرْ بلفظِ الأمرِ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ ابنةَ عِمرانَ؛ خالةَ يحيى، كما في الصَّحيحِ مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ عن مالكِ بنِ صَعصعةَ الأنصاريِّ رَضِيَ اللهُ عنهما في حديثِ الإسراءِ: «فلمَّا خَلَصتُ فإذا يحيى وعيسى، وهما ابنا خالة»).

((نظم الدرر)) (12/182-183).

وقد اختلف العُلَماءُ في نبُوَّةِ مريمَ عليها السَّلامُ، والأكثرُ على أنَّها ليست نبيَّةً، وحُكِيَ الإجماعُ على ذلك، وحكَى أبو بكر الباقِلَّاني، والقاضي أبو يعلى، وأبو المعالي الجويني وغيرُهم الإجماعَ على أنَّه لا يوجدُ في النِّساءِ نَبيَّةٌ.

يُنظر: ((إكمال المعلم)) للقاضي عياض (7/440)، ((الأذكار)) للنووي (ص: 119)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (4/396)، ((الجواب الصحيح)) لابن تيمية (2/349).

وقال ابنُ كثير: (الذي عليه أئمَّةُ أهلِ السُّنَّةِ والجماعةِ، وهو الذي نقَله الشيخُ أبو الحسَنِ عليُّ بنُ إسماعيلَ الأشعريُّ عنهم: أنَّه ليس في النِّساءِ نبيَّةٌ، وإنَّما فيهنَّ صِدِّيقاتٌ).

((تفسير ابن كثير)) (4/423).

وقال ابنُ تيمية: (والقرآنُ والسُّنَّةُ دلَّا على ذلك؛ كما في قولِه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى [يوسف: 109]، وقولِه: مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ [المائدة: 75] ذكَر أنَّ غاية ما انتهَتْ إليه أُمُّه: الصديقيَّةُ).

((مجموع الفتاوى)) (4/396).

وقيل: هي نبيَّةٌ.

وممَّن ذهب إلى هذا: ابنُ حزمٍ، وابنُ عطيةَ، والقرطبي.

يُنظر: ((الفِصَل)) لابن حزم (5/12، 13)، ((تفسير ابن عطية)) (4/9)، ((تفسير القرطبي)) (11/90).

أي: حينَ تنحَّتْ عن أهلِها وانفَرَدتْ وَحدَها في موضعٍ جِهةَ المَشرِقِ.[27]

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا **(17)**.

فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا.

أي: فجعَلَت مَريمُ بينَها وبينَ أهلِها حاجِزًا يَستُرُها عنهم وعن النَّاسِ؛ حتى تتفرَّغ لعبادةِ اللهِ.

فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا.

---

(27) قيل في سببِ انفرادِها عنهم: إنَّها اتخذَتْ مكانًا تنفردُ فيه للعبادةِ.

قال ابنُ عطية: (وذلك أنَّ مريمَ كانت وقفًا على سدانةِ المتعبَّدِ وخدمتِه والعبادةِ فيه، فتنحَّتْ مِن الناسِ لذلك).

((تفسير ابن عطية)) (9/4).

وقيل: إنَّها اتخَذتْ مكانًا تعتزلُ فيه أيامَ حيضِها.

وقيل غيرُ ذلك.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (362/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (123/3).

وقال ابن كثير: (ذهبَت إلى شرقِ المسجدِ المقدس).

((تفسير ابن كثير)) (219/5).

ويُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (385/3).

وقيل: جهةَ الشرقِ مِن مساكنِ أهلِها.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (9/4).

وقيل في سببِ كونِ هذا المكانِ في الشرقِ: لأنَّهم كانوا يُعَظِّمونَ جهةَ الشَّرقِ؛ لأنَّها مطلعُ الأنوارِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (484/15)، ((تفسير ابن عطية)) (9/4)، ((تفسير الشوكاني)) (386/3).

أي: فأرسَلْنا إلى مَريمَ جِبريلَ[28] فجاءَها على هيئةِ رَجُلٍ مُعتَدِلِ الخِلْقةِ، جَميلِ الصُّورةِ.[29]

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (18).

قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ.

أي: قالت مَريمُ وهي خائِفةٌ: إني ألتَجئُ وأعتَصِمُ بالرَّحمنِ منك -أيُّها الرَّجُلُ- أن تنالَني بسُوءٍ.[30]

إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا.

---

(28) اختُلِف في الروح الذي تمثل لمريم؛ فقال قوم: هو جبريل.

وقال غيرهم: عيسى.

ورجَّح ابنُ كثير (٩/ ٢٢٦) مستندًا إلى دلالة القرآن القولَ الأولَ الذي قاله قتادة، والضحاك، ومجاهد، والسدي، وابن جريج، ووهب بن منبه، فقال: «وهذا الذي قالوه هو ظاهر القرآن؛ فإنّه تعالى قد قال في الآية الأخرى: ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾ [الشعراء: ١٩٣ – ١٩٤]».

وانتقد (٩/ ٢٢٦) القولَ الثاني الذي قاله أبي، فقال: «وهذا في غاية الغرابة والنكارة، وكأنه إسرائيلي».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ١٦ – ١٧) أنّ مَن قال بالقول الأول قَدَّر الكلام: فتمثل هو لها.

ومن قال بالثاني قدَّر الكلام: فتمثل المَلَك لها.

(29) قال أبو السعود: (فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا...؛ لتستأنِسَ بكلامِه وتتلقَّى منه ما يُلقي إليها من كلماتِه تعالى؛ إذ لو بدا لها على الصورةِ المَلَكيَّة، لنَفَرَت منه، ولم تستطِعْ مُفاوضتَه).

((تفسير أبي السعود)) (260/5).

(30) قال ابنُ عاشور: (حَسِبَت أنَّه بشَرٌ اختبأ لها؛ لِيُراوِدَها عن نفسِها، فبادرَتْه بالتعوُّذِ منه قبلَ أن يكَلِّمَها، مُبادِرةً بالإنكارِ على ما توهَّمَتْه مِن قَصدِه الذي هو المتبادِرُ مِن أمثالِه في مِثلِ تلك الحالةِ...

وهذه مَوعِظةٌ له).

((تفسير ابن عاشور)) (80/16، 81).

أي: إنْ كُنتَ ذا تقوى تجتَنِبُ ما حرَّم اللهُ، ولا تُقدِمُ على الفُجورِ، فستنتهي بتعوُّذي منك.[31]

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (19).

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ.

أي: قال جِبريلُ لِمَريمَ: إنَّما أنا مَلَكٌ مُرسَلٌ من اللهِ إليك، ولستُ كما تظُنِّينَ، فلا تخافي مني.

لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا.

أي: قال جِبريلُ لِمَريمَ: أرسَلَني اللهُ إليكِ؛ لأكونَ سَبَبًا في هبةِ غلامٍ لك طاهِرٍ من الذُّنوبِ والخِصالِ الذَّميمةِ.

كما قال تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ * وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ [آل عمران: 45، 46].

---

(31) قال ابن جرير: (قالت: إني أعوذُ –أيُّها الرَّجُلُ– بالرَّحمنِ منك، تقولُ: أستجيرُ بالرَّحمنِ منك أن تنالَ مني ما حَرَّمه عليك، إن كنتَ ذا تقوى له تتَّقي محارِمَه، وتجتَنِبُ معاصيَه؛ لأنَّ مَن كان لله تقيًّا، فإنَّه يجتنِبُ ذلك.
ولو وُجِّهَ ذلك إلى أنَّها عَنَت: إني أعوذُ بالرَّحمنِ منك إن كنتَ تتَّقي اللهَ في استجارتي واستعاذتي به منك، كان وجهًا).
((تفسير ابن جرير)) (487/15).
وقال ابن الجوزي: (المعنى: إن كنتَ تتَّقي الله، فستنتهي بتعوُّذي منك.
هذا هو القولُ عندَ المحقِّقين).
((تفسير ابن الجوزي)) (124/3).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ لِيَهَبَ بإخبارِ جِبريلَ عليه السَّلامُ عن اللهِ عزَّ وجَلَّ، أي: لِيَهَبَ لكِ اللهُ غُلامًا.[32]

2- قِراءةُ لِأَهَبَ بإسناد الفِعلِ إلى جبريلَ عليه السَّلامُ؛ وذلك لأنَّ اللهَ أمَرَ جِبريلَ أن ينفُخَ الرُّوحَ في مَريمَ، فهو سببٌ في وجودِ غُلامِها.[33]

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (20).

قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ.

أي: قالت مَريمُ: كيف يكونُ لي غُلامٌ ألِدُه، ولم يقرَبْني أحدٌ بنِكاحٍ؟![34]

---

(32) قرأ بها أبو عمرٍو ويعقوبُ البصريان، وورشٌ عن نافعٍ، واختُلِف في قراءةِ قالونَ بها.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/317، 318).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 236)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/132).
(33) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/317، 318).
ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 440، 441)، ((الكشف)) لمكي (2/86)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (3/386، 387).
(34) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/488)، ((تفسير ابن كثير)) (5/220)، ((تفسير السعدي)) (ص: 491)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (3/387).
قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ استفهامَها استخبارٌ واستعلامٌ عن الكيفيَّةِ التي يكونُ فيها حَملُ الغلامِ المذكور؛ لأنَّها مع عدمِ مَسيسِ الرِّجالِ لم تتَّضِحْ لها الكيفيَّةُ، ويحتملُ أن يكون استفهامُها تعجُّبًا من كمالِ قُدرةِ الله تعالى).
((أضواء البيان)) (3/387).
ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/220)، ((تفسير السعدي)) (ص: 491).

كما قال تعالى: قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ [آل عمران: 47].

وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا.

أي: ولم يكُنْ مِن دَأبي الفُجورُ والوقوعُ في الفاحِشةِ، فكيف يكونُ لي ولَدٌ؟!

قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (21).

قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ.

أي: قال جبريلُ لِمَريمَ: هكذا الأمرُ كما ذكرتِ مِن أنَّه لم يمسَسْكِ بشَرٌ، ولم تكوني بَغيًّا، ولكِنْ قال ربُّكِ: خلْقُ الغُلامِ منك مِن غيرِ أبٍ سَهلٌ ويَسيرٌ عليَّ![35]

وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ.

أي: ونخلُقُ ولَدَكِ الذي تَلِدينَه مِن غيرِ أبٍ؛ لنجعَلَ ذلك عَلامةً للنَّاسِ، ودَلالةً تَدُلُّهم على كمالِ قُدرةِ الخالِقِ العَجيبةِ، وعَظمةِ سُلطانِه، وتَوحيدِه سُبحانَه.

---

(35) وممن اختار المعنى المذكور: ابنُ جرير، وابنُ عطية، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (489/15)، ((تفسير ابن عطية)) (9/4)، ((تفسير ابن عاشور)) (83/16).

قال ابن عطية: (المعنى: قال لها الملكُ: كَذَلِكِ هو كما وَصَفْتِ، ولكن قَالَ رَبُّكِ، ويحتمِلُ أن يريدَ: على هذه الحالِ قَالَ رَبُّكِ، والمعنى متقاربٌ).

((تفسير ابن عطية)) (9/4).

ويُنظر: ((تفسير البغوي)) (228/3).

كما قال تعالى: وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً [المؤمنون: 50].

وَرَحْمَةً مِنَّا.

أي: ونبيًّا يدعو إلى اللهِ؛ رحمةً منَّا له ولكِ وللنَّاسِ، خُصوصًا مَن آمَنَ به واتَّبَعه.

كما قال تعالى: وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [آل عمران: 49 – 51].

وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا.

أي: وكان خَلْقُ اللهِ للولَدِ منكِ مِن غيرِ أبٍ أمرًا قد قضاه اللهُ وقَدَّرَه؛ فوقوعُه كائِنٌ لا محالةَ.[36]

كما قال تعالى: قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 47].

---

(36) ذكر ابنُ كثير (٩/ ٢٢٨) أن قوله: ﴿وكان أمرا مقضيا﴾ يحتمل أمرين: أحدهما: أن يكون مِن تمام كلام جبريل لمريم، يخبرها أن هذا أمر مقدر في علم الله تعالى وقدره ومشيئته.

والآخر: أن يكون مِن خبر الله تعالى لرســوله محمد – ﷺ –، وأنه كنّى بهذا عن النفخ في فرجها، كما قال تعالى: ﴿ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا﴾ [التحريم: ١٢].

سورةُ مَريمَ

الآيات (22–26)

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22) فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي
مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23) فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ
سَرِيًّا (24) وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25) فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي
عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا
(26)

غريب الكلمات:

قَصِيًّا: أي: نائيًا بَعيدًا، وأصلُ (قصو): يدُلُّ على بُعدٍ وإبعادٍ.

فَأَجَاءَهَا: أي: ألجأها واضْطرَّها، يُقالُ: جاء بها وأجاءَها: بمعنًى.

الْمَخَاضُ: أي: وجعُ الوِلادةِ، وهو الطَّلْقُ، وسُمِّي مخاضًا مِن المَخْضِ، وهو الحركةُ الشَّديدةُ؛ لشدَّةِ تحرُّكِ الجنينِ في بطنِها إذا أرادَ الخروجَ، وأصلُ المخضِ: تحريكُ سقاءِ اللبنِ وهزُّه؛ ليجتمِعَ زُبدُه وسَمنُه.

نَسْيًا مَنْسِيًّا: أي: شَيئًا حَقيرًا لا يُؤبَهُ له، وأصلُ (نسي): يدُلُّ على تَركِ الشَّيءِ وإغفالِه.

سَرِيًّا: أي: جَدولًا ونَهرًا صغيرًا، وسُمِّيَ النَّهرُ سَرِيًّا؛ لأنَّ الماءَ يسري فيه، أي: يمُرُّ جاريًا. وقيل: بل ذلك من السَّرْوِ، أي: الرِّفعةِ، والإشارةُ بذلك إلى عيسى عليه السَّلامُ.

جَنِيًّا: أي: مَجْنيًّا غضًّا طَرِيًّا، وجَنَى الشَّجرةِ: ما جُنِيَ منها، وأصلُ (جني): يدُلُّ على أخذِ الثَّمرةِ مِن شَجَرِها.

وَقَرِّي عَيْنًا: أي: طِيبي نَفسًا، وأصلُه من القُرِّ، أي: البَرِد، فَقَرَّتْ عينه، أي: بَرَدَت، وقيل: هو من القَرارِ؛ لأنَّ اللهَ أعطاها ما تَسكُنُ به عينُها فلا تطمَحُ إلى غيرِه.

صَوْمًا: أي: صَمتًا، والصَّوْمُ في الأصلِ: الإمساكُ عن الفِعلِ مَطعمًا كان أو كلامًا أو مَشيًا.

تفسير الآيات:

فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا (22).

فَحَمَلَتْهُ.

أي: فحَمَلَت مريمُ بعيسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.[37]

فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا.

---

(37) قال ابنُ تيميةَ: (إنَّما حَمَلت به بعدَ النَّفخِ، لم تَحمِلْ به مُدَّةً بلا نفخٍ ثم نُفِخَت فيه روحُ الحياة كسائر الآدميِّين، ففَرْقٌ بين النَّفخِ للحَملِ، وبين النفخِ لرُوحِ الحياةِ).

((مجموع الفتاوى)) (267/17).

اخْتُلِفَ في مدة حمل عيسى.

ورجَّح ابنُ كثير (٩/ ٢٣٠) أنها تسعة أشهر كما قال الحسن مستندًا إلى ظاهر القرآن، فقال: «فالمشهور الظاهر –والله على كل شيء قدير– أنها حملت به كما تحمل النساء بأولادهن؛ ولهذا لَمّا ظهرت مَخايِلُ الحملِ عليها، وكان معها في المسجد رجلٌ صالح مِن قَراباتها يخدم معها البيت المقدس، يُقال له: يوسف النجار، فلمّا رأى ثِقَل بطنها وكِبَرِه أنكر ذلك مِن أمرها، ثُمَّ صرفه ما يعلم مِن براءتها ونزاهتها ودينها وعبادتها ...».

وذكر (٩/ ٢٢٩) أنّ هذا هو رأي الجمهور.

وكذا ذكر ابنُ عطية (٦/ ٢١).

وذكر ابنُ عطية أن ظاهر قوله: ﴿فأجاءها المخاض﴾ يقتضي أنها حملت على عُرْف البشر.

أفادت الآثار الاختلاف في مكان ولادة عيسى؛ فقال قوم: كان شرقيَّ محرابها الذي تُصَلِّي فيه من بيت المقدس.

وقال آخرون: لما كانت بين الشام وبلاد مصر ضربها الطَّلق.

وقال غيرهم: كان ذلك على ثمانية أميال من بيت المقدس، في قرية هناك يقال لها: بيت لحم.

ورجَّح ابنُ كثير (٩/ ٢٣١ – ٢٣٢) مستندًا إلى الإسرائيليات، والسنة القولَ الأخير الذي قاله وهب بن منبه من طريق ابن إسحاق، فقال: «وهذا هو المشهور الذي تلقّاه الناسُ بعضُهم عن بعض، ولا يَشُكُّ فيه النصارى أنّه ببيت لحم، وقد تلقاه الناس.

وقد ورد به الحديث إن صَحَّ».

أي: فتنحَّت بحَمْلِها إلى مكانٍ بعيدٍ عن النَّاسِ.[38]

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا (23).

فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ.

أي: فألجأها ألمُ الطَّلْقِ إلى جِذعِ نَخلةٍ.[39]

قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا.

أي: قالت: يا ليتني مِتُّ قبل أن أحمِلَ هذا الغلامَ مِن غيرِ زَوجٍ، وكنتُ شَيئًا حقيرًا يُترَكُ ويُنسَى فلا يَخطُرُ على بالٍ![40]

---

(38) قال الشنقيطي: (الجمهورُ على أنَّ المكانَ المذكورَ بيتُ لحمٍ).
((أضواء البيان)) (389/3).

(39) قال الرسعني: (إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ الجذعُ: ساقُ النخلةِ، كأنَّها عليها السلامُ قصَدت الاستِرواحَ مِن ألمِ الولادةِ بالاتكاءِ إليه، والاعتمادِ عليه).
((تفسير الرسعني)) (406/4).

قال الواحدي: (قال المفسرون: وكان جذعَ نخلةٍ يابسةٍ ليس لها سعفٌ، ولهذا قال الله تعالى: إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ولم يقُلْ «إلى النخلةِ»؛ لأنَّها لم يبقَ منها إلا الجذعُ).
((البسيط)) (220/14).

(40) وقال السَّعدي: (فلمَّا آلَمَها وَجَعُ الولادةِ، ووجعُ الانفرادِ عن الطَّعامِ والشراب، ووَجعُ قَلبِها مِن قالةِ النَّاسِ، وخافت عدَمَ صَبرِها؛ تمنَّت أنَّها ماتت قبل هذا الحادث، وكانت نَسيًا مَنسيًّا فلا تُذكَرُ.
وهذا التمنِّي بناءٌ على ذلك المُزعِج، وليس في هذه الأمنيةِ خيرٌ لها ولا مَصلحةٌ، وإنما الخيرُ والمصلحةُ بتقديرِ ما حصل).
((تفسير السعدي)) (ص: 492).

وقال ابنُ عاشور: (المشارُ إليه في قولها قَبْلَ هَذَا هو الحملُ.
أرادَتْ أن لا يُتطرَّق عرضُها بطعنٍ، ولا تجُرَّ على أهلِها معرةً.

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا (24).

فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي.

أي: فناداها مولودُها عيسَى[41] مِن تَحتِها عندما وضَعَتْه[42] قائِلًا لها: لا تَحْزَني.[43]

ولم تتمَنَّ مريم أنْ تكونَ ماتت بعدَ بُدوِّ الحمْلِ؛ لأنَّ الموتَ حينئذٍ لا يَدفعُ الطَّعنَ في عرْضِها بعدَ موتِها ولا المعرَّةَ على أهلِها؛ إذ يُشاهِدُ أهْلُها بطْنَها بحمْلِها وهي ميتةٌ، فتَطرُقُها القالةُ).

((تفسير ابن عاشور)) (16/85-86).

(41) اختلف في مَن ناداها؛ فقال قوم: عيسى.

وقال آخرون: جبريل.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٥٠٥) مستندًا إلى اللغة، والسياق، والدلالات العقلية القولَ الأول الذي قاله مجاهد، والحسن، ووهب بن منبه، وسعيد بن جبير، وابن زيد، وأبي بن كعب، فقال: «وذلك أنّه من كناية ذِكْرِه أقرب منه مِن ذكر جبريل، فردُّه على الذي هو أقرب إليه أولى مِن ردّه على الذي هو أبعد منه، ألا ترى في سياق قوله: ﴿فحملته فانتبذت به مكانا قصيا﴾ يعني به: فحملت عيسى فانتبذت به، ثم قيل: ﴿فناداها﴾ نسقًا على ذلك مِن ذكر عيسى والخبر عنه.

ولِعِلَّةٍ أخرى، وهي قوله: ﴿فأشارت إليه﴾ ولم تشر إليه -إن شاء الله- إلا وقد علمت أنّه ناطِقٌ في حاله تلك، ولِلَّذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها: ﴿أن لا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا﴾، وما أخبر الله عنه أنّه قال لها: أشيري للقوم إليه.

ولو كان ذلك قولًا مِن جبريل لكان خَلِيقًا أن يكون في ظاهر الخبر مُبَيَّنًا أنّ عيسى سينطق، ويَحْتَجُّ عنها للقوم، وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله».

وكذا رجَّحه ابنُ عطية (٦/ ٢٢)، فقال: «والأوَّلُ أظهر، وعليه كان الحسن يُقسِم».

(42) قال البغوي: (لم يُرِدْ به أنَّه تحتها وهي قاعدةٌ عليه! بل أراد: بينَ يدَيْها).

((تفسير البغوي)) (2/411).

وقال الشنقيطي: (وأمَّا على القَولِ بأنَّ المناديَ هو عيسى، فالمعنى على القراءةِ الأولى [أي: قراءةِ مِنْ تَحْتِهَا]: فناداها هو -أي: المولودُ الذي وضعَتْه- مِن تحتِها؛ لأنَّه كان تحتَها عند الوَضعِ، وعلى القراءة الثانية: فَنَادَاهَا مَنْ تَحْتَهَا أي: الذي تحتَها، وهو المولودُ المذكورُ الكائنُ تحتَها عند الوضعِ).

((أضواء البيان)) (3/394).

(43) وممَّن قال بأنَّ المناديَ لها هو عيسَى: ابنُ جريرٍ، وابنُ عطيةَ، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المناديَ كان عيسى عليه السلامُ: أُبيُّ بنُ كعبٍ، ومجاهدٌ، والحسنُ، ووهبُ بنُ مُنبِّهٍ، وسعيدُ بنُ جبير في روايةٍ عنه، وابنُ زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (503/15)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2404/7).

قال الشنقيطي: (أظهَرُ القولَينِ عندي أنَّ الذي ناداها هو ابنُها عيسى، وتدُلُّ على ذلك قرينتان: الأولى: أنَّ الضميرَ يرجِعُ إلى أقرب مذكور إلَّا بدليلٍ صارفٍ عن ذلك يجِبُ الرجوعُ إليه، وأقربُ مذكورٍ في الآيةِ هو عيسى لا جبريلُ؛ لأنَّ اللهَ قال: فَحَمَلَتْهُ، يعني: عيسى فَانْتَبَذَتْ بِهِ، أي: بعيسى.

ثمَّ قال بعده: فَنَادَاهَا فالذي يظهرُ ويتبادَرُ مِن السياقِ أنَّه عيسى.

والقرينة الثانية: أنَّها لَمَّا جاءت به قومَها تحمِلُه، وقالوا لها ما قالوا، أشارت إلى عيسى ليكلِّموه، كما قال تعالى عنها: فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا، وإشارتُها إليه ليكَلِّموه قرينةٌ على أنَّها عَرَفت قبل ذلك أنَّه يتكلَّمُ على سبيلِ خَرقِ العادةِ؛ لندائِه لها عندما وضعَتْه).

((أضواء البيان)) (394/3).

وقيل: المنادي لها هو المَلَكُ.

وممن اختار ذلك: السمعاني، والقرطبي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (286/3)، ((تفسير القرطبي)) (93/11، 94)، ((تفسير السعدي)) (ص: 492).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ المناديَ كان مَلَكًا: ابنُ عباس، والبراءُ، وعمرُو بنُ ميمون الأودي، وسعيدُ بنُ جبيرٍ في روايةٍ عنه، والضحَّاكُ، وقتادةُ، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (501/15)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (2404/7).

أي: قد أجرى ربُّك تحت قَدَميك نهرًا صغيرًا؛[44] لتَشربي منه.[45]

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا (25).

وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ.

أي: وحَرِّكي جِذعَ النَّخلةِ.[46]

---

(44) اختُلِف في السّري؛ فقال قوم: النهر الصغير.

وقال آخرون: عيسى.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٥١٠) مستندًا إلى اللغة، والسياق القولَ الأول، فقال: «وذلك أنه أعلمها ما قد أعطاها الله من الماء الذي جعله عندها، وقال لها: ﴿وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا فكلي﴾ من هذا الرطب ﴿واشربي﴾ من هذا الماء ﴿وقري عينا﴾ بولدك، والسري معروف من كلام العرب: أنه النهر الصغير».

وبنحوه ابنُ كثير (٩/ ٢٣٥).

(45) وممن اختار أنَّ السَّريَّ هنا هو الجدولُ والنَّهرُ الصغير: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال الزجاج: (لا اختلاف بين أهلِ اللغة أنَّ السَّرِيَّ النَّهرُ بمنزلةِ الجَدولِ).

((معاني القرآن)) (325/3).

وقال الشوكاني: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: السريُّ: النهرُ الصغيرُ).

((تفسير الشوكاني)) (388/3).

ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (408/4).

وقيل: السَّرِيُّ: أي: السَّيِّدُ الشَّريفُ، وهو عيسى عليه السَّلامُ.

وممَّن ذهب إلى ذلك: الحسنُ البصري–وقيل: رجَع عن هذا القولِ– وابنُ زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (509/15، 510)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (325/3)، ((مدارج السالكين)) لابن القيم (463/2).

(46) قال ابن عطية: (والظاهِرُ من الآيةِ أنَّ عيسى هو المكَلِّمُ لها).

((تفسير ابن عطية)) (11/4–12).

تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا.

أي: تُسْقِطْ عليكِ النَّخلةُ رُطَبًا طَرِيًّا طيّبًا نافعًا.(47)

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (26).

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا.

اختُلِف في الجذع؛ فقال قوم: كانت نخلة مُطَعَّمة رُطَبًا.

وقال آخرون: كانت يابسة.

ورجّح ابنُ جرير (١٥/ ٥١٢) مستندًا لأقوال السلف القول الثاني الذي قاله ابن عباس من طريق العوفي، وأبو نهيك، ووهب بن منبه، والسدي، وقال: «ذُكِر أن الجذع كان جذعًا يابسًا، فأمرها أن تهزّه، وذلك في أيام الشتاء».

ورجَّح مثلَه ابنُ عطية (٦/ ٢٣) مستندًا إلى ظاهر الآية، فقال: «والظاهر من الآية: أنّ عيسى هو المُكَلِّم لها، وأنّ الجذع كان يابسًا؛ وعلى هذا تكون آيةً تُسَلِّيها، وتسكن إليها».

وبمثله قال ابنُ كثير (٩/ ٢٣٥ - ٢٣٦)، وذكر أنها كانت شجرة في غير إبّان ثمرها؛ ولذا امْتَنَّ الله عليها بذلك بأن جعل لها طعامًا وشرابًا.

ونسبه لوهب.

(47) وقال الشنقيطي: (الذي يُفهَمُ مِن سياقِ القُرآنِ: أنَّ اللهَ أنبتَ لها ذلك الرُّطَبَ على سبيلِ خَرقِ العادةِ، وأجرى لها ذلك النَّهرَ على سبيلِ خَرقِ العادة، ولم يكُنِ الرُّطَبُ والنَّهرُ موجودينِ قبل ذلك، سواءً قلنا: إنَّ الجِذعَ كان يابِسًا أو نخلةً غيرَ مُثمِرةٍ، إلَّا أنَّ اللهَ أنبت فيه الثَّمرَ، وجعلَه رُطَبًا جنيًّا، ووجهُ دَلالةِ السِّياقِ على ذلك أنَّ قولَه تعالى: فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا يدُلُّ على أنَّ عينَها إنما تقَرُّ في ذلك الوقتِ بالأمورِ الخارقةِ للعادةِ؛ لأنَّها هي التي تُبَيِّنُ براءتَها مما اتَّهموها به...

وبذلك يكونُ قُرَّةَ عينٍ لها؛ لأنَّ مجرَّدَ الأكلِ والشُّربِ معَ بقاءِ التُّهمةِ التي تمنَّتْ بسبَبِها أن تكونَ قد ماتت مِن قَبلُ، وكانت نَسيًا مَنسيًّا، لم يكُنْ قُرَّةً لعينِها في ذلك الوقتِ، كما هو ظاهِرٌ).

((أضواء البيان)) (397/3).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (225/5).

أي: فكُلي من الرُّطَبِ، واشرَبي مِن ماءِ النَّهرِ، وطيبي نفسًا، وافرَحي ولا تحزَني.

فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا.

أي: فإنْ رأيتِ أحدًا من النَّاسِ يُريدُ أن يُكلِّمَكِ فقُولي:[48] إنِّي أوجبتُ على نفسي للرَّحمنِ أن أُمسِكَ عن الكلامِ.[49]

(48) قيل: المرادُ بالقولِ هنا: التلفُّظُ بالكلامِ حقيقةً.

وممَّن استظهر هذا: ابنُ عطية -ونسَبه للجمهورِ-، وأبو حيان، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ القيِّمِ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (13/4)، ((تفسير أبي حيان)) (256/7)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (218/4).

قال ابنُ عطية: (ظاهِرُ الآيةِ أنَّها أُبيحَ لها أن تقولَ هذه الألفاظَ التي في الآيةِ، وهو قَولُ الجُمهورِ).

((تفسير ابن عطية)) (13/4).

وقال ابنُ القيم: (لم يكُنْ ما أخبَرَت به داخلًا تحت الخبرِ، وإلَّا كان قولُها هذا مخالفًا لِنَذرِها).

((بدائع الفوائد)) (218/4).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالقولِ هنا: الإشارةُ: ابنُ كثير، والسعدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (225/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 492)، ((تفسير ابن عاشور)) (93/16).

ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (401/3).

(49) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بالصومِ هنا: الصَّمتُ: ابنُ جرير، والرسعني، والقرطبي، والخازن، والبقاعي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (516/15)، ((تفسير الرسعني)) (411/4)، ((تفسير القرطبي)) (97/11)، ((تفسير الخازن)) (186/3)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (191/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 492).

ونسَب الشنقيطي هذا القولَ للجمهورِ.

يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (410/3).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: أنسُ بنُ مالكٍ في روايةٍ عنه، وابنُ عباسٍ، والضحَّاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (516/15)، ((تفسير ابن الجوزي)) (128/3)، ((تفسير ابن كثير)) (225/5).

وقيل: المرادُ: الصومُ عن الطعامِ والكلامِ معًا.

وممَّن ذهَب إلى ذلك: ابنُ عاشورٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (93/16).

فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا.

أي: فلن أكلِّمَ اليومَ أحدًا من النَّاسِ.(50)

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: أنسُ بنُ مالكٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وابنُ زيدٍ، والسدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (517/15)، ((تفسير ابن الجوزي)) (128/3)، ((تفسير ابن كثير)) (225/5).

(50) قال ابنُ عطيةَ: (ومعنى هذه الآيةِ أنَّ الله تعالى أمَرها على لسانِ جبريلَ أو ابنِها على الخلافِ المتقَدِّمِ بأن تُمسِكَ عن مخاطبةِ البشَرِ، وتُحيلَ على ابنِها في ذلك؛ ليرتَفِعَ عنها خجَلُها، وتَبِينَ الآيةُ فيقومَ عُذرُها...

قال المفسِّرون: أُمِرَت مريمُ بهذا؛ ليكفيَها عيسى الاحتجاجَ).

((تفسير ابن عطية)) (13/4).

وقال السعدي: (إنما لم تؤمَرْ بخطابِهم في نفيِ ذلك عن نفسِها؛ لأنَّ النَّاسَ لا يصَدِّقونَها، ولا فيه فائدةٌ، ولتكونَ تبرئتُها بكلامِ عيسى في المهدِ أعظَمَ شاهدٍ على براءتِها؛ فإنَّ إتيانَ المرأةِ بولدٍ مِن دونِ زَوجٍ، ودعواها أنَّه مِن غيرِ أحدٍ: من أكبرِ الدَّعاوى التي لو أُقيم عِدَّةٌ مِن الشُّهودِ لم تُصَدَّقْ بذلك؛ فجُعِلَت بينةُ هذا الخارقِ للعادةِ أمرًا مِن جِنسِه، وهو كلامُ عيسى في حالِ صِغَرِه جِدًّا).

((تفسير السعدي)) (ص: 492).

سورةُ مَريَمَ

الآيات (27–36)

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28) فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ
صَبِيًّا (29) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ
وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32)
وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33) ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ
الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35) وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36)

غريب الكلمات:

فَرِيًّا: أي: عظيمًا عجيبًا مُنكَرًا، وأصلُ (فري): يدلُّ على قطعِ الشَّيءِ، كأنَّه مِمَّا يخرِقُ العادةَ، أو يُقطَعُ بكونِه عجيبًا نادرًا.

الْمَهْدِ: المَهدُ: ما يُهيَّأُ للصَّبيِّ، والمَهدُ: الحِجْرُ، وأصلُ (مهد): يدلُّ على التَّوطئةِ للشَّيءِ وتَسهيلِه.

يَمْتَرُونَ: أي: يَشُكُّونَ ويختَلِفونَ، والمِريَةُ: التَّردُّدُ في الأمرِ، وهي أخصُّ مِن الشَّكِّ، والامتراءُ والمُماراةُ: المحاجَّةُ فيما فيه مِريةٌ.

تفسير الآيات:

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27).

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ.

أي: فجاءت مَريمُ إلى قَومِها وهي تَحمِلُ عيسى دونَ أن تُخفِيَه، مُطمَئِنَّةً إلى أمرِ اللهِ، غيرَ مُكترِثةٍ بما سيقولُه النَّاسُ عنها.

قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا.

أي: فلمَّا رآها قَومُها وهي تَحمِلُ مولودًا، قالوا: يا مريمُ، لقد فَعلتِ مُنكَرًا عَظيمًا![51]

يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (28).

يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ.

---

(51) قال الشنقيطي في المرادِ بقولِهم: فَرِيًّا: (يَعنونَ به الزِّنا؛ لأنَّ ولَدَ الزِّنا كالشَّيءِ المُفترى المُختلَقِ؛ لأنَّ الزانيةَ تدَّعي إلحاقَه بمن ليس أباه، ويدُلُّ على أنَّ مُرادَهم بقولِهم: فَرِيًّا الزِّنا، قولُه تعالى: وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا [النساء: 156]؛ لأنَّ ذلك البُهتانَ العظيمَ هو ادِّعاؤُهم أنَّها زنَتْ).

((أضواء البيان)) (3/413).

أي: يا أُختَ الرجُلِ الصَّالِحِ[52] هارونَ،[53] لم يكُنْ أبوك رجلًا يقارِفُ الفاحِشةَ!

---

(52) اختُلِف في السـبب الذي من أجله قيل لها: ﴿يا أخت هارون﴾، ومَن كان هارون هذا الذي ذكره الله؟ فقال قوم: كان رجلًا صالحًا من بني إسرائيل ينسب إليه مَن يُعرَف بالصلاح.

وقال آخرون: هو هارون أخو موسى فنسبت إليه؛ لأنها من ولده كما يقال: يا أخا بني فلان.

وقال غيرهم: كان أخاها لأبيها وأمها.

وذهب قوم: إلى أنه كان رجلًا فاسقًا مُعْلِنًا بالفسق، ونُسِبَت إليه.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٥٢٥ بتصرف) القول الأول الذي قاله قتادة، وكعب، والمغيرة بن شعبة مستندًا إلى السنة، فقال: «والصواب من القول في ذلك ما جاء به الخبرُ عن رسول الله – ﷺ –[الوارد في أول تفسير الآية]، وأنها نسبت إلى رجل من قومها».

وبنحوه ابنُ كثير (٩/ ٢٤٠).

(53) قال الواحدي: (يَا أُخْتَ هَارُونَ قال ابنُ عباس، وقتادة: هارونُ رجلٌ صالحٌ مِن بني إسرائيل، يُنسَبُ إليه مَن عُرِفَ بالصَّلاحِ، والمعنى: يا شبيهته في العِفَّةِ، وعلى هذا يدُلُّ حديثُ المغيرةِ بنِ شُعبة).

((الوسيط)) للواحدي (3/182).

ويُنظر: ((تفسير الرسعني)) (4/413).

وقال الشنقيطي: (وإطلاقُ اسمِ الأخ على النَّظيرِ المُشابهِ مَعروفٌ في القرآنِ، وفي كلامِ العَربِ؛ فمِنه في القرآنِ قَولُه تعالى: وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا [الزخرف: 48] ، وقولُه تعالى: إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ [الإسراء: 27] ، وقولُه تعالى: وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ [الأعراف: 202]).

((أضواء البيان)) (3/415).

وقال ابن جرير: (والصوابُ مِن القَولِ في ذلك ما جاء به الخَبَرُ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم الذي ذكرناه، وأنَّها نُسِبَت إلى رجلٍ مِن قَومِها).

((تفسير ابن جرير)) (15/525).

قال الشنقيطي: (وبهذا الحديثِ الصَّحيحِ... تعلَمُ أنَّ قَولَ من قال: إنَّ المرادَ هارونُ أخو موسى– باطِلٌ، سواءٌ قيل: إنَّها أختُه، أو: إنَّ المرادَ بأنَّها أختُه أنَّها من ذريَّتِه، كما يقال للرَّجُلِ: يا أخا تميمٍ، والمرادُ: يا أخا بني تميم؛ لأنَّه من ذريَّةِ تَميمٍ).

((أضواء البيان)) (3/414).

وذهب ابنُ عاشـور إلى أنَّ القَولَ باحتمالِ أنَّها مِن ذريَّةِ هارون أخي موسـى ليس فيه ما يُنافي حديثَ المغيرةِ بنِ شُـعبة، وذكَرَ احتمالًا آخَرَ أن يكونَ لمريمَ أخٌ اسمُه هارون، كان صالحًا في قَومِه.

واستظهر هذا الاحتِمالَ السعدي، ونَفَى أن يكونَ المرادُ هارونَ بنَ عمرانَ أخا موسَى؛ لأنَّ بينَهما قُرونًا كثيرةً.

عن المُغيرةِ بنِ شُعبةَ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((لَمَّا قَدِمتُ نَجرانَ سَألوني فقالوا: إنَّكم تقرؤونَ يَا أُخْتَ هَارُونَ، وموسى قبلَ عيسى بكذا وكذا، فلمَّا قَدِمتُ على رَسولِ اللهِ – ﷺ – سألتُه عن ذلك، فقال: إنَّهم كانوا يُسَمُّونَ بأنبيائِهم والصَّالحينَ قَبلَهم)).[54]

وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا.

أي: ولم تكُنْ أمُّك –يا مَريمُ– زانيةً فتَتأسَّيْ بها، فكيف قارفتِ ذلك وأنتِ مِن أولئك القَومِ الصَّالحينَ؟![55]

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 492)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/95، 96).

(54) رواه مسلم (2135).

قال الشوكاني: (وهذا التَّفسيرُ النَّبويُّ يُغني عن سائرِ ما رُوي عن السَّلفِ في ذلك).

((تفسير الشوكاني)) (3/393).

(55) قال الرسعني: (ولم أرَ أحدًا مِن أربابِ المعاني تعرَّض لمقصودِهم بذِكرِ الأبوَينِ ونَفيِ الزِّنا عنهما.

ويلوحُ لي فيه معنيان: أحدهما: أن يكونَ مقصودُهم من ذلك التعجُّبَ مِن تلبُّسِها بالفُجورِ –على ظنِّهم– مع طهارةِ أعراقِها، وطِيبِ مَنبتِها...

الثاني: زيادةُ توبيخِها، والمبالغةُ في لَومِها باجتراحِها السيئةَ التي لم تُلْفِ عليها أمًّا ولا أبًا؛ فإنَّ مَن فَعَل فِعلَ أصلِه لم يُلَمْ، ومن أشبَه أباه فما ظَلَم).

((تفسير الرسعني)) (4/414).

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (29).

فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ.

أي: فلم تُكَلِّمْ مَريمُ قَومَها، وأشارت إلى ابنِها عيسى أنْ كَلِّموه؛ لِيُجيبَهم بدلًا منها.

قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا.

أي: قال قَومُ مَريمَ مُنكِرينَ عليها: كيف نكَلِّمُ رَضيعًا لا يزالُ في فِراشِه، وليس في استطاعتِه الكَلامُ؟![56]

---

(56) قال ابنُ القيم: (وتأمَّلْ...

قوله تعالى: قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا كيف تجِدُ معنى الشَّرطية فيه، حتى وقعَ الفِعلُ بعد مَنْ بلَفظِ الماضي والمرادُ به المُستقبَلُ، وأنَّ المعنى: من كان في المهدِ صبيًّا، فكيف نكلِّمُه؟).

((بدائع الفوائد)) (136/1).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (328/3)، ((تفسير الرسعني)) (415/4).

وقيل: (كان) زائدةٌ أي: كيف نُكَلِّمُ مَنْ في المهدِ صبيًّا.

وقيل: إنها تامةٌ بمعنى حَدَث ووُجد.

والتقديرُ: كيف نكلِّم مَنْ وُجِد صبيًّا؟! وقيل: إنَّها بمعنى (صار)، أي: كيف نُكَلِّم مَنْ صار في المهد صَبِيًّا؟! يُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (594/7).

وممَّن اختار أنَّ المرادَ بـ الْمَهْدِ: فراشُه ونحو ذلك: الكرماني، وابنُ جزي، والشوكاني، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((غرائب التفسير وعجائب التأويل)) للكرماني (695/2)، ((تفسير ابن جزي)) (480/1)، ((تفسير الشوكاني)) (392/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (97/16).

قال ابنُ جريرٍ: (المهدُ: ...

يعني به مضجعَ الصبيِّ في رضاعِه).

((تفسير ابن جرير)) (412/5).

وقيل: المرادُ به: حجرُ أمِّه.

وممَّن اختار ذلك: السمرقندي، وابنُ أبي زمنين، والثعلبي، والواحدي، والعليمي.

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (30).

قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ.

أي: فنطَقَ عيسَى وهو صبيٌّ في المَهدِ، فقال: إِنِّي عبدُ اللهِ؛ فهو الذي يستَحِقُّ العبادةَ وَحْدَه، لا شَريكَ له.

آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا.

أي: قضى اللهُ وقَدَّرَ مِن قبلُ أنَّه سيُؤتيني الإنجيلَ، وسيَجعَلُني نبيًّا.(57)

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (2/373)، ((تفسير ابن أبي زمنين)) (2/54)، ((تفسير الثعلبي)) (6/213)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 679)، ((الوسيط)) للواحدي (3/182)، ((تفسير العليمي)) (4/249).

وقيل: المعنَى: كيفَ نكلِّمُ مَن سبيلُه أن ينوَّمَ في المهدِ لصغرِه؟! يُنظر ((تفسير القرطبي)) (11/102)، ((تفسير الشوكاني)) (3/392).

(57) قال الشنقيطي: (وقولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا، التَّحقيقُ فيه إنْ شاءَ اللَّهُ: أنَّه عَبَّرَ بالماضي عمَّا سيَقَعُ في المستقبلِ؛ تنزيلًا لتحقُّقِ الوقوعِ منزلةَ الوقوعِ، ونظائرُه في القرآنِ كثيرةٌ، كقولِه تعالَى: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ [النحل: 1]، وقولِه تعالَى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ...
إلى قولِه: وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا [الزمر: 68 – 71]، وقولِه تعالَى: وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ [الزمر: 73].
وهذا الَّذي ذَكَرْنا مِن أنَّ الأفعالَ الماضيةَ في قولِه تعالَى: آتَانِيَ الْكِتَابَ ...
إلخ، بمعنَى المستقبلِ هو الصَّوابُ إن شاءَ اللَّهُ، خلافًا لمَن زَعَمَ أنَّه نُبِّئَ وأُوتِيَ الكتابَ في حالِ صِباهُ لظاهِرِ اللَّفظِ).
((أضواء البيان)) (3/416).

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (31).

وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ.

أي: وجعَلَني ذا برَكاتٍ، كثيرَ الخَيراتِ، ومِن ذلك أن أكونَ نفَّاعًا للخَلقِ، مُعَلِّمًا للخيرِ في أيِّ مكانٍ وزمانٍ أكونُ فيه.[58]

وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا.

---

(58) قال مجاهدٌ، وعمرُو بنُ قيسٍ، والثوريُّ في معنى وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا: أي: جعَلَني مُعلِّمًا للخيرِ.

وفي روايةٍ عن مجاهدٍ: نفَّاعًا.

وقال عطاءٌ: أدعو إلى اللهِ وإلى توحيدِه وعبادتِه.

وقيل: مُباركًا على مَن تبِعَني.

وقيل: وجعلني آمُرُ بالمعروفِ، وأنهى عن المنكرِ، وأرشُدُ الضالَّ، وأنصرُ المظلومَ، وأُغيثُ الملهوفَ.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/233)، ((تفسير القرطبي)) (11/103)، ((تفسير ابن كثير)) (5/229).

قال ابنُ جزي: (واللفظُ أعمُّ مِن ذلك).

((تفسير ابن جزي)) (1/480).

وقال ابن القيم: (قال المسيحُ: وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ قال غيرُ واحدٍ مِن السَّلَفِ: مُعلِّمًا للخيرِ أينما كنتُ، وهذا جزءُ المسمَّى؛ فالمبارَكُ كثيرُ الخيرِ في نفسِه، الذي يحصِّلُه لغيرِه: تعليمًا وإقدارًا، ونُصحًا وإرادةً واجتهادًا؛ ولهذا يكونُ العبدُ مُباركًا لأنَّ اللهَ بارَك فيه وجعَله كذلك).

((جلاء الأفهام)) (ص: 168).

وقال ابنُ عاشور: (ذلك أنَّ اللهَ أرسَلَه برحمةٍ لبني إسرائيل؛ ليُحِلَّ لهم بعضَ الذي حُرِّمَ عليهم، ولِيَدعوَهم إلى مكارمِ الأخلاقِ بعدَ أن قَسَت قلوبُهم وغيَّروا مِن دينِهم، فهذه أعظَمُ بَرَكةٍ تُقارِنُه، ومِن بركتِه أن جعَل اللهُ حُلولَه في المكانِ سَببًا لخيرِ أهلِ تلك البُقعةِ؛ مِن خِصبِها، واهتداءِ أهلِها، وتوفيقِهم إلى الخيرِ).

((تفسير ابن عاشور)) (16/99).

أي: وأوصاني اللهُ أن أحافِظَ على الصَّلاةِ والزَّكاةِ في مُدَّةِ حياتي.(59)

كما قال تعالى لنبيِّه مُحمَّدٍ - ﷺ -: وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ [الحجر: 99].

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (32).

وَبَرًّا بِوَالِدَتِي.

أي: وجعَلَني اللهُ بارًّا بوالِدتي مريمَ، مُطيعًا لها، محسنًا إليها غايةَ الإحسانِ.

---

(59) قال ابنُ جرير: (وفي الزَّكاة معنيان: أحدُهما: زكاةُ الأموال أن يُؤدِّيَها.
والآخَرُ: تطهيرُ الجسَدِ مِن دَنَسِ الذُّنوبِ).
((تفسير ابن جرير)) (531/15).
وممَّن ذهَب إلى أنَّ المرادَ بالزكاةِ هنا: زكاةُ المالِ: السمرقنديُ، والقرطبي، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (374/2)، ((تفسير القرطبي)) (103/11)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (193/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 492)، ((تفسير ابن عاشور)) (99/16).
وممَّن قال بأنَّ المرادَ بها: التطهيرُ مِن الذُّنوبِ: الزجَّاج، والنحاس، والواحدي.
يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (328/3)، ((معاني القرآن)) للنحاس (329/4)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 680).
قال ابن جرير: (قولُه: مَا دُمْتُ حَيًّا يقولُ: ما كنتُ حيًّا في الدنيا موجودًا، وهذا يُبِينُ عن أنَّ معنى الزكاةِ في هذا الموضِعِ: تطهيرُ البدَنِ مِن الذنوبِ؛ لأنَّ الذي يُوصَفُ به عيسى صلواتُ الله وسلامُه عليه أنَّه كان لا يدَّخِرُ شيئًا لغدٍ؛ فتَجِبَ عليه زكاةُ المالِ، إلَّا أن تكونَ الزكاةُ التي كانت فُرِضَت عليه الصَّدَقةَ بكُلِّ ما فَضَل عن قُوتِه، فيكونَ ذلك وجهًا صحيحًا).
((تفسير ابن جرير)) (531/15).
وقال القرطبي: (رُوِيَ أنَّ عيسى عليه السَّلامُ إنَّما تكلَّمَ في طفولتِه بهذه الآية، ثم عاد إلى حالةِ الأطفالِ، حتى مشى على عادةِ البَشَرِ إلى أن بلغ مبلغَ الصِّبيانِ، فكان نطقُه لإظهارِ براءةِ أمِّه لا أنَّه كان ممَّن يَعقِلُ في تلك الحالة، وهو كما يُنطِقُ اللهُ تعالى الجوارحَ يوم القيامة.
ولم يُنقَلْ أنَّه دام نُطقُه، ولا أنَّه كان يصلِّي وهو ابنُ يومٍ أو شهرٍ، ولو كان يدوم نُطقُه وتسبيحُه ووَعظُه وصلاتُه في صِغَرِه مِن وَقتِ الوِلادِ، لكان مثلُه ممَّا لا ينكَتِمُ).
((تفسير القرطبي)) (103/11).

وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا.

أي: ولم يجعَلْني اللهُ مُستَكبرًا عن عبادتِه وبِرِّ أمِّي، ولا غليظًا في مُعاملةِ النَّاسِ مُترَفِّعًا عليهم، بل جعَلَني خاضِعًا خاشِعًا مُتذَلِّلًا له، متواضِعًا لعبادِه، سَعيدًا في الدُّنيا والآخرةِ.

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (33).

وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ.

أي: والتحيَّةُ مِنَ اللهِ عليَّ، والسَّلامةُ والأمانُ لي يومَ وُلِدتُ، ومِن ذلك السلامةُ مِن طَعنِ الشَّيطانِ عندَ الولادةِ.[60]

(60) نسب ابن الجوزي إلى المفسرين أن المعنى: السلامة عليَّ من الله يوم وُلدتُ حتى لم يضرَّني شيطان.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (130/3).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير الشوكاني)) (392/3).
وقال السمعاني: (قوله تعالَى: وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ معناهُ: التَّحيَّة وَالحفظُ مِن الله لي يَوْمَ ولدتُ).
((تفسير السمعاني)) (291/3).
وذكر الشنقيطي القولين (أي أنَّ معنَى السلامِ: التحيةُ، والثاني أنَّ معناه الأمانُ) في قوله تعالى: وَسَلَامٌ عَلَيْهِ وأنَّ مرجِعَهما إلى شيءٍ واحدٍ؛ لأنَّ معنَى سلامِ التَّحيَّة: الأمانُ، والسَّلامةُ ممَّا يكرهُ.
يُنظر: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (381/3).

عن أبي هُريرةَ رضِي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ الله - ﷺ - يقولُ: ((ما مِن بَني آدمَ مَولودٌ إلَّا يَمَسُّه الشَّيطانُ حين يُولَدُ، فيَستَهِلُّ[61] صارِخًا مِن مَسِّ الشَّيطانِ، غيرَ مَريمَ وابنِها))، ثمَّ يقولُ أبو هريرةَ: وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [آل عمران: 36]))[62].

وفي روايةٍ: ((كُلُّ بني آدمَ يَطْعُنُ الشَّيطانُ فِي جنبَيْه بإصبعِه حينَ يُولَدُ غيرَ عيسى بنِ مريمَ؛ ذَهَب يَطْعُنُ فطَعَن في الحجابِ))[63].[64]

وَيَوْمَ أَمُوتُ.

أي: وتحيةٌ مِن اللهِ يومَ أموتُ وسَلامةٌ وأمانٌ لي مِن كُلِّ سُوءٍ؛ ككُرَبِ الموتِ، وسُوءِ الخاتمةِ، وعذابِ القَبرِ وفِتنَتِه.

---

(61) استهَلَّ الصَّبيُّ: صاح عند الولادةِ.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 327).

(62) رواه البخاري (3431) واللفظ له، ومسلم (2366).

(63) الحجابِ: أي: المشيمةِ التي فيها الولدُ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (6/470).

قال الحافظ ابن حجر: (قال القرطبي: هذا الطعنُ مِن الشيطانِ هو ابتداءُ التسليطِ، فحفظ الله مريمَ وابنَها منه ببركةِ دعوةِ أمِّها؛ حيثُ قالت: وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ [آل عمران: 36] ولم يكُنْ لمريمَ ذريةٌ غير عيسى). ((المصدر السابق)).

(64) رواه البخاري (3286).

وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا.

أي: وتحيةٌ مِنَ اللهِ وسَلامةٌ وأمانٌ لي يومَ القيامةِ حينَ يَبعَثُني حيًّا فيُؤَمِّنُني مِن الفزَعِ والأهوالِ، وعذابِ النَّارِ.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (34).

أي: ذلك العَظيمُ القَدرِ، العالي المَنزِلة الذي أخبَرتُكم بشأنِه هو عيسى بنُ مَريمَ، فهذه صِفتُه، وتلك حقيقةُ نَشأتِه، قَولَ الحَقِّ، الذي فيه يختلفُ النَّاسُ ويشُكُّون، فكذلك فاعتَقِدوا، لا كما يظنُّ اليهودُ أنَّه ابنُ زِنا، ولا كما يظُنُّ النَّصارى أنَّه اللهُ أو ابنُ اللهِ أو ثالثُ ثلاثةٍ!![65]

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (35).

مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ.

---

(65) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/534-536)، ((تفسير القرطبي)) (11/105-106)، ((تفسير ابن كثير)) (5/230)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/195-196)، ((تفسير السعدي)) (ص: 493)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/101، 102).

قال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ لَفظةَ الحَقِّ في قَولِه هنا: قَوْلَ الحَقِّ فيها للعلماء وجهان: الأول: أنَّ المرادَ بالحَقِّ ضِدُّ الباطِلِ، بمعنى الصِّدقِ والثُّبوتِ، كقولِه: وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ [الأنعام: 66] .

الوجه الثاني: أنَّ المرادَ بالحَقِّ في الآيةِ: اللهُ جلَّ وعلا؛ لأنَّ مِن أسمائِه «الحَقَّ»، كقَولِه: وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ [النور: 25] ، وقولِه: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ [الحج: 6]).

((أضواء البيان)) (3/417-418).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/105).

أي: ما ينبغي لله أن يَجعلَ له ولَدًا، تنزَّه اللهُ عن الوَلَدِ والنَّقصِ، وعن كلِّ ما لا يليقُ بكَمالِه.

كما قال تعالى: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ [النساء: 171].

وقال سُبحانه: وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ [الأنعام: 100].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا [مريم: 92].

إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

أي: إذا أراد اللهُ إحداثَ شَيءٍ فإنَّما يقولُ له: كُنْ، فيَصيرُ مَوجودًا كما يشاءُ بلا كُلفةٍ ولا مَشقَّةٍ، كما خلقَ عيسى بنَ مَريمَ بكَلِمةِ (كُنْ)، فصار مخلوقًا بدونِ أبٍ.

كما قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [آل عمران: 59].

وقال سُبحانه: إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [النحل: 40].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ [يس: 82].

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (36).

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ.

أي: قال عيسى لِقَومِه وهو في مَهدِه: ولأنَّ اللهَ رَبِّي ورَبُّكم فاعبُدوه وَحدَه لا شريكَ له.

هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ.

أي: هذا الذي جئتُكم به مِن عندِ اللهِ هو طريقٌ قويمٌ، لا اعوِجاجَ فيه، فمَن سلَكَه اهتَدَى، ومَن خالفَه ضلَّ وغوَى.

سورةُ مَريمَ

الآيات (37–40)

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40)

غريب الكلمات:

الْأَحْزَابُ: أي: اليهودُ والنَّصارى، والحزبُ: الجماعةُ مِن الناسِ، أو: جماعةٌ فيها غِلَظٌ، والطَّائفةُ مِن كلِّ شيءٍ حزبٌ، وأصلُ (حزب): يدُلُّ على تجَمُّعِ الشَّيءِ.

مَشْهَدِ: أَيْ: شُهودِ، والشَّهادةُ: الحضورُ مع المشاهدةِ، إمَّا بالبصرِ، أو بالبصيرةِ، وأصلُ (شهد): يدلُّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعلامٍ.

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ: أي: ما أشَدَّ سَمْعَهم، وما أنفَذَ بصَرَهم! وأصلُ (سمع): يدُلُّ على إيناسِ الشَّيءِ بالأُذُنِ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على إبصارِ الشَّيءِ، والعِلمِ به.

تفسير الآيات:

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (37).

فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ.

أي: فاختلف اليهودُ والنَّصارى في أمرِ عيسى، فزعم اليَهودُ أنَّه ابنُ زِنا، وزعم بعضُ النَّصارى أنَّه ابنُ اللهِ، وزعم بعضُهم أنَّه ثالِثُ ثلاثةٍ، وزعَمَ بَعضُهم أنَّه اللهُ -تعالى اللهُ عمَّا يَقولونَ عُلُوًّا كبيرًا- وقال آخَرونَ في شأنِه القَولَ الحَقَّ: أنَّه عبدُ اللهِ ورَسولُه.[66]

---

(66) وممَّن قال بأنَّ المُختَلِفينَ هنا هم اليهودُ والنصارى في الجملةِ: ابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقيل: المرادُ: اختلافُ فِرَق النصارى خاصَّةً.

وممن ذهب إلى ذلك: الواحدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (248/14)، ((تفسير ابن عاشور)) (106/16).

ويُنظر أيضًا: ((الفِصَل)) لابن حزم (47/1، 48)، ((المِلل والنِّحَل)) للشهرستاني (27/2).

قال ابنُ عطية: (قولُه: مِنْ بَيْنِهِمْ معناه أنَّ الاختلافَ لم يخرجْ عنهم، بل كانوا المختلفين).

((تفسير ابن عطية)) (16/4).

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ.

أي: فويلٌ[67] للكافرينَ الذين اعتقَدوا في عيسى مُعتقَدًا باطِلًا، ولِغَيرِهم من الكُفَّارِ، مِن حُضورِهم وشُهودِهم يومَ القيامةِ المُمتَلئَ بالشدائدِ والأهوالِ، المُشتَمِلَ على الجَزاءِ بالأعمالِ، وما سيُلاقونَه فيه مِن العَذابِ والنَّكالِ.[68]

كما قال تعالى: وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ [الزخرف: 63 – 65].

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (38).

أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا.

---

(67) قيل: الويلُ: كلمةٌ تعني الهلاكَ والعذابَ والشِّدَّة.
وقيل: وادٍ في جهنَّم.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (163/2)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (169/1).

(68) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (542/15)، ((البسيط)) للواحدي (248/14، 249)، ((تفسير ابن كثير)) (232/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 493)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (420/3).
قال الواحدي: (مِنْ مَشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ أي: مِن حُضورِ ذلك اليوم...
ويجوزُ أن يكونَ الحُضــورُ لهم، وأُضــيفَ إلى الظَّرفِ؛ لِوقوعِه فيه، كما تقولُ: وَيلٌ لِفُلانٍ مِن قتالِ يوم كذا، والمعنى: ويلٌ لهم حُضورُهم ذلك وشُهودُهم إيَّاه للجزاءِ والحِساب).
((البسيط)) (248/14–249).

أي: ما أسمَعَ الكافرينَ، وما أبصَرَهم للحقِّ الذي كانوا يُنكِرونَه، يومَ قُدومِهم علينا يومَ القيامةِ!

كما قال تعالى: وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ [السجدة: 12].

لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ.

أي: لكِنِ الكافِرونَ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكَذِبِ والافتراءِ على اللهِ: هم اليومَ في الدُّنيا في ضَلالٍ واضحٍ عن الحقِّ، لا يَسمَعونَه ولا يُبصِرونَه ولا يَعقِلونَه!

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (39).

وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ.

أي: وخوِّفِ النَّاسَ يومَ القيامةِ -يا مُحمَّدُ- يومَ يَندَمُ الظَّالِمونَ على تَفريطِهم في الإيمانِ والعَمَلِ الصَّالِحِ، وعلى ما فاتَهم مِن الثَّوابِ، وعلى ما يُصيبُهم مِن العذابِ.

كما قال تعالى: إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ [البقرة: 166- 167].

وقال سُبحانَه: وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ [الأنبياء: 46].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ [سبأ: 33].

وقال سُبحانه: أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ [الزمر: 56].

إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ.

أي: حينَ فُرِغَ مِن الحسابِ والحُكمِ بينَ العبادِ، فيَدخُلُ المُؤمنونَ الجنَّةَ، ويَدخُلُ الكافِرونَ النَّارَ، ويُذبَحُ الموتُ بين الفَريقَينِ.

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ - ﷺ -: ((يُؤتَى بالموتِ كهَيئةِ كَبشٍ أملَحَ، فيُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيَشرَئِبُّونَ ويَنظُرونَ، فيقولُ: هل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، ثمَّ ينادي: يا أهلَ النَّارِ، فيَشرَئِبُّونَ[69] ويَنظُرونَ، فيقولُ: وهل تَعرِفونَ هذا؟ فيقولونَ: نعم، هذا الموتُ، وكُلُّهم قد رآه، فيُذبَحُ، ثُمَّ يقولُ: يا أهلَ الجنَّةِ خُلودٌ فلا موتَ، ويا أهلَ النَّارِ خُلودٌ

(69) فَيَشْرَئِبُّونَ: أي: يَرفَعونَ رُؤوسَهم إلى المنادي.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (185/17).

فلا موتَ، ثمَّ قرأ: وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ، وهؤلاء في غفلةِ أهلِ الدُّنيا وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)).[70]

وعن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ رَضِي الله عنهما، أنَّ رَسولَ الله – ﷺ – قال: ((إذا صار أهلُ الجنَّةِ إلى الجنَّةِ، وصار أهلُ النَّارِ إلى النَّارِ، أُتِيَ بالموتِ حتى يُجعَلَ بين الجنَّةِ والنَّارِ، ثمَّ يُذبَحُ، ثم يُنادي مُنادٍ: يا أهلَ الجنَّةِ لا موتَ، ويا أهلَ النَّارِ لا موتَ، فيزدادُ أهلُ الجنَّةِ فَرَحًا إلى فَرَحِهم، ويزدادُ أهلُ النَّارِ حُزنًا إلى حُزنِهم)).[71]

---

(70) رواه البخاري (4730) واللفظ له، ومسلم (2849).

(71) رواه البخاري (6548) ومسلم (2850) واللفظ له.

قال ابنُ القيِّم: (هذا الكَبشُ والإضـــجاعُ والذَّبحُ ومُعاينةُ الفَريقَينِ: ذلك حقيقةٌ لا خيالٌ ولا تمثيلٌ، كما أخطأ فيه بعضُ النَّاسِ خطأً قبيحًا! وقال: الموتُ عَرَضٌ، والعَرَضُ لا يتجسَّمُ، فَضلًا عن أن يُذبَح، وهذا لا يصِحُّ؛ فإنَّ اللهَ سبحانه ينشئُ مِن الموتِ صُـورةَ كَبشٍ يُذبَحُ، كما يُنشِـئُ مِن الأعمالِ صُـورًا مُعايَنةً يُثابُ بها ويُعاقَبُ، واللهُ تعالى ينشـئُ مِن الأعراضِ أجسـامًا تكونُ الأعراضُ مادَّةً لها، ويُنشِئُ مِن الأجسامِ أعراضًا، كما ينشئُ سُبحانه وتعالى من الأعراضِ أعراضًا، ومن الأجسامِ أجسامًا، فالأقسامُ الأربعةُ مُمكِنةٌ مَقدورةٌ للرَّبِّ تعالى، ولا يستلزمُ جَمعًا بين النَّقيضَينِ، ولا شيئًا مِن المحالِ...

اللهُ سُـبحانَه يُنشِـئُ مِن الأعراضِ أجسـامًا ويجعَلُها مادَّةً لها، كما في الصَّـحيحِ عنه: «تجيءُ البَقَرةُ وآلُ عِمرانَ يومَ القيامةِ كأنَّهما غَمامتانِ...» الحديث).

((حادي الأرواح)) (ص: 401، 402).

وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ.

أي: والحالُ أنَّ الكافرينَ في الدُّنيا في غَفلةٍ وذُهولٍ عَمَّا أُنذِروا به، وعمَّا ينتظِرُهم مِن العذابِ يومَ القيامةِ، فهم مُنشَغِلونَ بدُنياهم، مُعرِضونَ عَمَّا يُرادُ منهم.(72)

كما قال تعالى: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ * مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ * لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ [الأنبياء: 1 – 3].

وقال سُبحانَه: وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ [الأنبياء: 97].

وقال عزَّ وجلَّ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ [ق: 22].

وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

أي: وهم في الدُّنيا لا يُؤمِنونَ باللهِ، ولا بالبَعثِ والجَزاءِ في الآخرةِ.

---

(72) قال الشنقيطي: (قَولُه في هذه الآيةِ الكريمةِ: وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ، أي: في غفلةِ الدُّنيا مُعرِضونَ عن الآخرةِ، وجملةُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ حاليةٌ، والعامِلُ فيها (أَنْذِرْهُمْ) أي: أنذِرْهم في حالِ غَفلتِهم غيرَ مُؤمِنينَ، خلافًا لِمن قال: إنَّ العامِلَ في الجملة الحالية قولُه قبلَ هذا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ [مريم: 38]).
((أضواء البيان)) (3/422).

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (40).

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

أي: قال اللهُ تعالى: إنِّي أرِثُ وَحدي الأرضَ وكُلَّ ما عليها بعدَ مَوتِ الخلائِقِ، ولا يَملِكُها أحدٌ سواي.

كما قال تعالى: وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ [الحجر: 23].

وقال سُبحانَه: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ [غافر: 16].

وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ.

أي: وإلينا لا إلى غَيرِنا يُرَدُّ العِبادُ يومَ القيامةِ فيُبعَثونَ، وبأعمالِهم يُجازَونَ.

سورةُ مَريمَ

الآيات (41–50)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا
يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ
فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا
(44) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ
أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ
عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو
رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ
إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا
(50)

غريب الكلمات:

صِدِّيقًا: الصِّدِّيقُ: هو المُصدِّقُ قولَه بفِعلِه، أو صدَق بقولِه واعتقادِه، وحقَّق صِدْقَه بفِعلِه، وقيل: هو مَن كثُر منه الصِّدقُ، وقيل: هو مَنْ لا يَكذِبُ قطُّ، أو مَن لا يَتأتَّى منه الكذبُ؛ لتعوُّدِه الصِّدقَ، وأصلُ (صدق): يدلُّ على قوَّةٍ في الشيءِ قولًا وغيرَه.

سَوِيًّا: مستقيمًا مستويًا، والسَّوِيُّ يُقالُ فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ مِن حيثُ القدرُ والكيفيَّةُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بينَ شَيئينِ.

عَصِيًّا: أي: عاصيًا أو عاقًّا، وأصلُه هنا يدلُّ على الفُرقةِ.

لَأَرْجُمَنَّكَ: الرَّجْمُ: الرَّمْيُ بالرِّجامِ، أي: الحجارةِ، والرجمُ: القتلُ؛ لأنَّهم كانوا يقتلونَ بالرَّجمِ، والرَّجمُ: الشَّتمُ والسَّبُّ؛ لأنَّه رمْيٌ بالقولِ القبيحِ، وأصلُ الرَّجمِ: يدلُّ على الرَّمي بقولٍ كان أو بفعلٍ.

مَلِيًّا: أي: حينًا طَويلًا، والإملاءُ: الإمدادُ، ومنه قيل للمُدَّة الطويلةِ: مُلاوةٌ مِن الدَّهرِ، وأصلُ (ملو): يدُلُّ على امتدادٍ في شَيءٍ؛ زَمانٍ أو غيرِه.

حَفِيًّا: أي: لطيفًا بارًّا كثيرَ الإحسانِ، والتحَفِّي: التلَطُّفُ في القَولِ والفِعلِ، وأصلُ (حفي): يدُلُّ على المُبالغةِ.

تفسير الآيات:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41).

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ.

أي: واتلُ –يا محمَّدُ– في القرآنِ خبرَ إبراهيمَ عليه الصَّلاة والسَّلامُ، على قَومِك الذين هم مِن ذريَّتِه، ويدَّعون كَذِبًا أنَّهم على مِلَّتِه، ويتمَسَّكونَ بتَقليدِ آبائِهم، فهم يَعبُدونَ الأصنامَ والحالُ أنَّ أعظَمَ آبائِهم –إبراهيمَ– كان حنيفًا مُسلِمًا ينهَى أباه عن الشِّركِ، وعبادةِ الأصنامِ.

كما قال تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ [الشعراء: 69].

إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا.

أي: إنَّ إبراهيمَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أقوالِه وأعمالِه ومواعيدِه، بليغَ التَّصديقِ بكُلِّ ما هو أهلٌ لأن يُصَدَّقَ به، وكان نبيًّا رفيعَ القَدرِ.

كما قال تعالى: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [البقرة: 124].

وقال سُبحانَه: وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى [النجم: 37].

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42).

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ.

أي: اذكُرْ –يا مُحمَّدُ– إبراهيمَ حين قال لأبيه: يا أبتِ، لِماذا تعبُدُ أصنامًا لا تَسمَعُ ولا تُبصِرُ شيئًا؟!

وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا.

أي: ولا تدفَعُ الأصنامُ عنك –يا أبتِ– أيَّ ضَررٍ، ولا تنفَعُك بأيِّ شَيءٍ، فلِمَ تَعبُدُها؟!

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43).

يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ.

أي: يا أبتِ، إنِّي قد أُعطيتُ مِن العِلمِ بالحَقِّ ما لم تُعْطَه.

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ [الأنبياء: 51].

فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا.

أي: فاقبَلْ نَصيحتي، واعبُدِ اللهَ وَحدَه، ولا تُشرِكْ به شيئًا؛ أُرشِدْك طريقًا مُستقيمًا لا اعوِجاجَ فيه، مُوصِلًا إلى نيلِ المطلوبِ، والنَّجاةِ مِن المرهوبِ.

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44).

يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ.

أي: يا أبتِ، لا تُطعِ الشَّيطانَ فيما يُزَيِّنُ لك مِن الكُفرِ والشِّركِ، فتكونَ عابدًا له.(73)

كما قال تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ [يس: 60، 61].

إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا.

أي: لأنَّ الشَّيطانَ عاصٍ للرَّحمنِ، مُستكبِرٌ عن طاعتِه، فلا تتَّبِعْه فتكونَ عاصيًا لله مِثلَه.

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45).

يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ.

أي: يا أبتِ إنِّي أخافُ –إن أقمْتَ على الشِّركِ، وأصرَرْتَ عليه– أن يُصيبَك عذابٌ واقِعٌ مِن الرَّحمنِ.

فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا.

أي: فتكونَ من أولياءِ الشَّيطانِ، ومُقارِنًا له في النِّيرانِ، ويتبرَّأُ منك الرَّحمنُ، فلا تكونَ لك نصرةٌ أبدًا.

---

(73) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٣٦) أنّ قوله: ﴿لا تعبد الشيطان﴾ يحتمل أن يكون أبو إبراهيم ممن عبد الجن، ويحتمل أن يجعل طاعة الشيطان المُغْوي في عبادة الأوثان والكفر بالله؛ عبادة له.

كما قال تعالى: فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [الأعراف: 30].

وقال سُبحانه: تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النحل: 63].

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46).

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ.

أي: قال أبوه: أتُعرِضُ –يا إبراهيمُ– عن عبادةِ آلهَتي، وتَترُكُها إلى غيرِها؟!

لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ.

أي: لئِنْ لم تَترُكْ –يا إبراهيمُ– نُصحي، وذِكرَ آلهتي بسُوءٍ لأرجُمَنَّك.[74]

---

(74) قيل معنى: لَأَرْجُمَنَّكَ: لأشتُمَنَّك.

وممن ذهَب إلى ذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جرير، والزجَّاج، والواحدي، وابنُ كثيرٍ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (630/2)، ((تفسير ابن جرير)) (551/15)، ((معاني القرآن)) للزجاج (332/3)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 682)، ((تفسير ابن كثير)) (235/5).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والسدي، وابنُ جُريجٍ، والضحَّاك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (552/15).

وقيل: معنى: لَأَرْجُمَنَّكَ أي: بالحجارة.

وممَّن ذهَب إلى هذا القولِ في الجملةِ: يحيى ابنُ سلام، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشور، واستظهَره الشنقيطي.

ونصَّ يحيى بنُ سلام، والسعدي، وابنُ عاشور على أنَّ المرادَ: القتلُ بها.

وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا.

أي: وابتَعِدْ عني زَمنًا طويلًا.[75]

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (227/1)، ((تفسير القاسمي)) (101/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 495)، ((تفسير ابن عاشور)) (120/16)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (427/3).

قال ابن عطية: (وقال الحسنُ بنُ أبي الحسنِ: معناه: لأرجُمَنَّك بالحجارةِ، وقالتْ فرقةٌ: معناه لأقتلنَّك، وهذان القولانِ بمعنًى واحدٍ).

((تفسير ابن عطية)) (18/4).

ونقل ابن الجوزي عن الحسن أنَّ معنى قوله: لَأَرْجُمَنَّكَ: أي: بالحجارةِ حتى تتباعدَ عنِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (134/3).

(75) يُنظر: ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 274)، ((الوسيط)) للواحدي (185/3)، ((تفسير ابن جزي)) (481/1)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (207/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 495)، ((تفسير ابن عاشور)) (120/16)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (427/3).

وممَّن اختار أن المراد بقوله مَلِيًّا: زمنًا طويلًا: ابنُ قتيبة، والواحدي، وابنُ جُزي، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ عطيةَ: (مَلِيًّا معناه: دهرًا طويلًا، مأخوذٌ مِن المَلَوين، وهما الليلُ والنهارُ، وهذا قولُ الجمهورِ، والحسنِ، ومجاهدٍ، وغيرِهما).

((تفسير ابن عطية)) (18/4).

وقال النحَّاس: (القولُ عندَ أهلِ اللغةِ أنَّه بمعنى: زمانًا ودهرًا).

((معاني القرآن)) (335/4).

ومن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، ومجاهدٌ، وعكرمةُ، والحسنُ البصري، ومحمدُ بنُ إسحاقَ، وسعيدُ بنُ جُبير، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (552/15)، ((تفسير ابن الجوزي)) (134/3)، ((تفسير ابن كثير)) (235/5).

وقيل: معنى وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا: سالِمًا مِن عقوبتي.

وممَّن اختار هذا المعنى: ابنُ جريرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (554/15، 555).

ومن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عبَّاسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، وعطيةُ العوفي، والضحَّاك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (554/15)، ((تفسير ابن كثير)) (235/5).

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47).

قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ.

أي: قال إبراهيمُ لأبيه: أنتَ في أمانٍ وسَلامةٍ مني، فلا ينالُك مني سوءٌ.

كما قال تعالى في صفةِ المؤمنينَ: وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا [الفرقان: 63].

وقال سُبحانَه: وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ [القصص: 55].

سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي.

ذكر ابنُ عطية (٦/ ٣٧) أن قوله: ﴿واهجرني﴾ -على من تأول ﴿لأرجمنك﴾: القتل والرجم بالحجارة- إنّما يَتَرتَّب على أنه أمرٌ على حياته؛ كأنه قال: إن لم تنته قتلتك بالرجم، ثم قال له: واهْجُرْنِي، أي: مع انتهائك، كأنه جزم له الأمر بالهجرة، وإلا فمع الرجم لا تترتب الهجرة.

اختُلِف في معنى قوله: ﴿مليا﴾؛ فقال قوم: حينًا طويلًا ودهرًا.

وقال آخرون: سويًّا سالِمًا مِن عقوبتي إيّاك.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٥٥٥) مستندًا إلى السياق القولَ الثاني الذي قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وعطية الجدلي.

وانتقد الأول، فقال: «لأنه عقيب قوله: ﴿لئن لم تنته لأرجمنك﴾، وذلك وعيد منه له إن لم ينته عن ذكر آلهته بالسوء أن يرجمه بالقول السيِّئ، والذي هو أولى بأن يتبع ذلك التقدم إليه بالانتهاء عنه قبل أن تناله العقوبة، فأمّا الأمر بطول هجره فلا وجْه له».

ذكر ابنُ عطية (٦/ ٣٩) قولًا للسُّدِّيّ بأنه أخَّره بالاستغفار إلى السحر.

وانتقده مستندًا إلى دلالة العقل، فقال: «وهذا تعسُّف، وإنما ذكر ذلك في أمر يعقوب وبنيه، وأما هذا فوعدٌ باستغفار كثير مُؤْتَنَف، فالسين مُتَمَكِّنة».

أي: سأطلُبُ لك مِن ربِّي أن يستُرَ ذُنوبَك، ويتجاوَزَ عن مُؤاخَذتِك بها.(76)

كما حكى تعالى قَولَ إبراهيمَ: وَاغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ [الشعراء: 86].

إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا.

أي: إنِّي عَهِدتُ رَبِّي لطيفًا، مُعتَنيًا بي، شديدَ البِرِّ والإكرامِ لي، كثيرَ الإحسانِ إليَّ، وقد هداني وعوَّدَني إجابةَ دُعائي.

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48).

---

(76) وقيل: المرادُ: دُعاءُ إبراهيم بأن يهديَ اللهُ أباه للتوحيدِ، فتحصُلَ له بذلك مغفرةُ ذنوبِه.

وممن قال بهذا المعنى: ابنُ عطيةَ، والبقاعي، والسعدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (19/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (208/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 495)، ((تفسير ابن عاشور)) (121/16).

قال ابنُ كثير: (وقد استغفر إبراهيمُ لأبيه مدةً طويلةً، وبعد أن هاجرَ إلى الشامِ وبنى المسجدَ الحرامَ، وبعد أن وُلِدَ له إسماعيلُ وإسحاقُ –عليهما السلامُ– في قولِه: رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ [إبراهيم: 41].

وقد استغفر المسلِمونَ لقراباتِهم وأهليهم من المُشركين في ابتداءِ الإسلامِ؛ وذلك اقتداءً بإبراهيمَ الخليلِ في ذلك، حتى أنزل اللهُ تعالى: قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ [الممتحنة: 4] ، يعني: إلَّا في هذا القَولِ، فلا تتأسَّوا به.

ثمَّ بيَّن تعالى أنَّ إبراهيمَ أقلعَ عن ذلك، ورجع عنه، فقال تعالى: مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ [التوبة: 113، 114]).

((تفسير ابن كثير)) (236/5).

وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

أي: وأجتَنِبُكم وآلهَتَكم التي تَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ.

وَأَدْعُو رَبِّي.

أي: وأعبُدُ رَبِّي وَحدَه، وأدعوه مُخلِصًا له لا أُشرِكُ به شيئًا.

عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا.

أي: أرجو ألَّا أشقَى بدُعائي لربِّي، وإفرادي له بالعبادةِ، بل أرجو أن يجيبَني، ويتقَبَّلَ أعمالي ويُسعِدَني.

كما قال تعالى: وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ [الصافات: 99].

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (49).

فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ.

أي: فلمَّا اجتنَبَ إبراهيمُ قَومَه، واجتنَب عبادةَ أصنامِهم وهاجَر؛ رزَقْناه ابنَه إسحاقَ وحفيدَه يعقوبَ.[77]

---

(77) قال ابن الجوزي: (قال المفسِّرون: هاجَر عنهم إلى أرضِ الشَّامِ، فوهَب اللهُ له إسحاقَ ويعقوبَ، فآنسَ اللهُ وحَشتَه عن فراقِ قَومِه بأولادٍ كرام).

((تفسير ابن الجوزي)) (134/3).

كما قال تعالى: وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ * رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ [الصافات: 99، 100].

وقال سُبحانه: وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ [الأنبياء: 71- 72].

وقال عزَّ وجلَّ: وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ [هود: 71].

وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا.

أي: وكلًّا مِن إسحاقَ ويعقوبَ جعَلْناه نبيًّا.

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (50).

وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا.

أي: وأعطَينا إبراهيمَ وإسحاقَ ويَعقوبَ عِلمًا نافِعًا، وأعمالًا صالحةً، ورزقًا واسعًا، وذريَّةً كثيرةً، وشرفًا عظيمًا، وغيرَ ذلك من الخيراتِ.

كما قال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ [العنكبوت: 27].

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا.

أي: وجعَلْنا لهم ثناءً حَسَنًا، وذِكرًا جميلًا عاليًا صادقًا، مُستَمِرًّا مَنشورًا بين النَّاسِ إلى يومِ القيامةِ.

كما قال تعالى حاكيًا دُعاءَ إبراهيمَ عليه السلامُ: وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ [الشعراء: 84].

وقال سُبحانَه: وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ [ص: 45، 46].

سورةُ مَريَمَ

الآيات (51–58)

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ
الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ
إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54) وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ
وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55) وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56) وَرَفَعْنَاهُ
مَكَانًا عَلِيًّا (57) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ
نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا
سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58)

غريب الكلمات:

نَجِيًّا: أي: مُناجِيًا، وأصلُه هنا: يدلُّ على سَتْرٍ وإخْفاءٍ.

تفسير الآيات:

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (51).

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى

أي: واتْلُ –يا محمَّدُ– في القُرآنِ على قَومِك خبَرَ موسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا.

أي: إنَّ موسَى كان اللهُ تعالى قد اختاره لرسالتِه وتَكليمِه وعبادتِه، وجعَله خالصًا مِن الدَّنَسِ؛ وذلك لإخلاصِه لله في عبادتِه.(78)

كما قال تعالى: قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي [الأعراف: 144].

---

(78) قال ابنُ جرير: (الصَّوابُ من القول في ذلك عندي: أنَّه كان صلَّى الله عليه وسلم مُخلِصًا عبادةَ الله، مُخلَصًا للرِّسالةِ والنبوَّة).

((تفسير ابن جرير)) (558/15).

وقال السعدي: (المعنيان متلازِمان؛ فإنَّ اللهَ أخلصه لإخلاصِه، وإخلاصُه موجِبٌ لاستخلاصِه، وأجَلُّ حالةٍ يُوصَفُ بها العبد: الإخلاصُ منه، والاستخلاصُ مِن ربِّه).

((تفسير السعدي)) (ص: 495).

وقال الرسعني: (مَن فتح فعلى معنًى: أنَّه كان ممن أخلَصه اللهُ مِن الدَّنَس.

ويجوزُ عندي أن يكونَ المعنى: أنَّه كان ممن أخلَصه الله واصطفاه للقيامِ بأثقالِ النبوةِ، والنهوضِ بأعبائِها.

وكأنَّ الأوَّلَ أظهرُ؛ لأنَّ المعنى حاصلٌ بقولِه: وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا).

((تفسير الرسعني)) (427/4).

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ **مُخْلَصًا** بفتحِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى أخلصَه اللهُ، واختاره لرسالتِه، وجعَلَه نبيًّا مُرسَلًا، خالِصًا مِن الدَّنَسِ.(79)

2- قراءةُ **مُخْلِصًا** بكسرِ اللَّامِ، أي: إنَّ موسى كان يُخلِصُ لله في عبادتِه، ولا يُرائي بأعمالِه أحدًا.(80)

وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا.

أي: وكان موسى رسولًا إلى بني إسرائيلَ والقِبطِ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه.(81)

---

(79) قرأ بها عاصمٌ، وحمزةُ، والكسائي، وخلَف.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (295/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (558/15)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 444).

(80) قرأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (295/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((تفسير ابن جرير)) (558/15)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 445)، ((تفسير القرطبي)) (114/11).

(81) قال ابن تيمية: (النبيُّ هو الذي ينبِّئُه الله، وهو ينبِّئُ بما أنبأ اللهُ به؛ فإنْ أُرسِلَ مع ذلك إلى مَن خالف أمرَ اللهِ؛ لِيُبلِّغَه رسالةً مِن الله إليه؛ فهو رَسولٌ، وأمَّا إذا كان إنما يعمَلُ بالشريعةِ قَبلَه، ولم يُرسَلْ هو إلى أحدٍ يُبلِّغُه عن اللهِ رسالةً؛ فهو نبيٌّ، وليس برسولٍ).
((النبوات)) (714/2-715).
وقال السعدي: (فالرسالةُ تقتضي تبليغَ كلامِ المرسِلِ، وتبليغَ جميعِ ما جاء به مِن الشرعِ، دِقِّه وجِلِّه.
والنبوةُ تقتضي إيحاءَ اللهِ إليه، وتخصيصَه بإنزالِ الوحيِ إليه، فالنبوَّةُ بينه وبينَ ربِّه، والرِّسالةُ بينه وبين الخَلقِ).
((تفسير السعدي)) (ص: 495).

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (52).

وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ.

أي: وكلَّمْنا موسَى بصَوتٍ يَسمَعُه مِن ناحيةِ جَبَلِ طُورِ سَيناءَ الواقِعِ على يمِينِ موسى،[82] حينَ أقبَلَ مِن مَدينَ مُتوجِّهًا إلى مِصرَ.

كما قال تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى * إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى * وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى * إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي * إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى [طه: 11– 16].

وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا.

أي: وأدنَيْنا موسى، فسَمِع كلامَ اللهِ، وخاطَبه عن قُربٍ، بلا واسِطةٍ.

كما قال تعالى: وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا [النساء: 164].

---

(82) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٤١) أن قوله: ﴿الأَيْمَنِ﴾ صفة للجانب؛ لأن الجبل لا يمين ولا شمال.
ثم ذكر احتمالًا آخر، فقال: «ويحتمل أن يكون قوله: ﴿الأَيْمَنِ﴾ مأخوذًا من اليُمن، كأنه قال: الأبرك والأسعد، فيصِحُّ على هذا أن يكون صفة للجانب، وللجبل بجملته».

وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (53).

أي: وآتينا موسى مِن رَحمتِنا له إجابةَ سُؤالِه، فجعَلْنا أخاه هارونَ نبيًّا مِثلَه؛ لِيُعينَه.

كما قال تعالى حكايةً عنه: وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي * هَارُونَ أَخِي * اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي * وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي * كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا * قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى [طه: 29 – 36].

وقال سُبحانه حكايةً عنه: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ [القصص: 34– 35].

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (54).

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ.

أي: واتْلُ –يا مُحَمَّدُ– في القرآنِ على قَومِك خبرَ إسماعيلَ بنِ إبراهيمَ عليهما الصَّلاةُ والسَّلام.

إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ.

أي: إنَّ إسماعيلَ كان صادِقًا في وعودِه لرَبِّه وللنَّاسِ، يَفي بوَعدِه، ولا يُخلِفُه.[83]

وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا.

أي: وكان رَسولًا[84] ونبيًّا، رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه.

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (55).

وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ.

أي: وكان يأمُرُ أهلَه بإقامةِ الصَّلاةِ، وإيتاءِ الزَّكاةِ.

وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا.

أي: وكان محمودًا عندَ اللهِ في أعمالِه، ارتضاه اللهُ، وجعَلَه من الخواصِّ المقَرَّبينَ؛ لاجتهادِه فيما يُرضيه، فرضِيَ ربُّه عنه، ورضِيَ هو عن رَبِّه.

---

(83) قال الشنقيطي: (ممَّا يُبَيِّنُ من القرآنِ شِدَّةَ صِدقِه في وعدِه: أنَّه وعَدَ أباه بصبرِه له على ذبحِه، ثمَّ وفى بهذا الوعدِ، ومن وفى بوَعدِه في تسليمِ نفسِه للذبحِ، فإنَّ ذلك من أعظمِ الأدلَّةِ على عظيمِ صِدقِه في وعدِه، قال تعالى: فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ [الصافات: 102] ، فهذا وعدُه، وقد بيَّن تعالى وفاءَه به في قولِه: فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ [الصافات: 103]).

((أضواء البيان)) (3/437).

(84) قال القرطبي: (وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا قيل: أُرسِلَ إسماعيلُ إلى جُرْهُم).

((تفسير القرطبي)) (11/116).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (16/129).

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (56).

وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ.

أي: واتلُ -يا محمَّدُ- في القُرآنِ على قَومِك خبرَ إدريسَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ.

إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا.

أي: إنَّ إدريسَ كان كثيرَ الصِّدقِ في أفعالِه وأقوالِه، صادِقًا فيما يخبِرُ به عن اللهِ، ومُصَدِّقًا تصديقًا تامًّا بما أتاه من الحَقّ، ونبيًّا رفيعَ القَدرِ يُوحي اللهُ إليه.

وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (57).

أي: ورفَعْنا إدريسَ إلى مكانٍ ذي علوٍّ وارتفاعٍ؛ إلى السَّماءِ الرَّابعةِ.(85)

---

(85) وممَّن قال بأنَّ المرادَ: رفعُه إلى السماءِ الرابعةِ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والرازي، والقرطبي، وابنُ جُزي، وهو ظاهرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقال الرازي: (فيه قولان: أحدهما: أنَّه مِن رِفعةِ المنزلةِ، كقَولِه تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلم: وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ [الشرح: 4] ...

الثاني: أنَّ المرادَ به الرِّفعةُ في المكانِ إلى موضعٍ عالٍ، وهذا أَولى؛ لأنَّ الرِّفعةَ المقرونةَ بالمكانِ تكونُ رِفعةً في المكانِ لا في الدَّرجةِ). ((تفسير الرازي)) (21/550).

وممن قال بأنَّ المعنى: رفَعَ الله منزلتَه، وشرَّفَه بالنبوَّةِ والزلفَى عندَ الله: الزمخشري، والألوسي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/24)، ((تفسير الألوسي)) (8/423)، ((تفسير السعدي)) (ص: 496).

قال السعدي: (وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا أي: رفَعَ اللهُ ذِكْرَه في العالَمينَ، ومَنزلتَه بين المقَرَّبينَ، فكان عاليَ الذِّكرِ، عاليَ المنزلةِ). ((تفسير السعدي)) (ص: 496).

عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه، أنَّ رسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((... ثمَّ عُرِج بنا إلى السَّماءِ الرَّابعةِ، فاستفْتَح جبريلُ عليه السَّلامُ، قِيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومَن معك؟ قال: محمَّدٌ، قال: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، ففُتِح لنا فإذا أنا بإدريسَ، فرَحَّب ودعا لي بخيرٍ، قال اللهُ عزَّ وجلَّ:وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا [مريم: 57])).[86]

وعن قتادةَ في قَولِه تعالى: وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا قال: حدَّثَنا أنسُ بنُ مالكٍ أنَّ نبيَّ اللهَ صلَّى اللهُ عليه وسلم قال: ((لَمَّا عُرِجَ بي رأيتُ إدريسَ في السَّماءِ الرَّابعةِ)).[87]

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58).

(86) أخرجه مسلم (162).
وأخرجه البخاري (3207)، ومسلم (164) مِن حديثِ أنسِ بنِ مالكٍ، عن مالكِ بنِ صَعْصَعة بنحوه دونَ ذكرِ الآيةِ.
(87) أخرجه الترمذي (3157) واللفظ له، وأحمد (13739).
حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3157).

أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ.

أي: أولئك الأنبياءُ المذكورونَ في هذه السورةِ هم الذين أنعَمَ اللهُ عليهم بالهدايةِ والنُّبوَّةِ، والعِلمِ النَّافعِ، والعَمَلِ الصَّالحِ؛ مِنَ النبيّينَ مِن ذُرِّيةِ آدَمَ، وهو إدريسُ عليه السلامُ.(88)

---

(88) قال البيضاوي: (الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بأنواعِ النِّعمِ الدينيةِ والدنيويةِ).

((تفسير البيضاوي)) (14/4).

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ بقولِه تعالى: أُولَئِكَ الأنبياءُ المذكورون في السورةِ، فالمرادُ بقولِه: مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ: إدريسُ عليه السلامُ وحدَه.

وممن اختار ذلك: ابنُ جرير، ومكي، والسمعاني، وابنُ الجوزي، والرازي، والقرطبي، وابنُ تيمية.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (565/15)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4558/7)، ((تفسير السمعاني)) (301/3)، ((تفسير ابن الجوزي)) (137/3)، ((تفسير الرازي)) (550/21)، ((تفسير القرطبي)) (120/11)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (231/15).

قال الرازي: (والَّذي يختصُّ بأنَّه مِن ذُرِّيَّةِ آدمَ دونَ مَن حُمِل معَ نوحٍ هو إدريسُ عليه السَّلامُ؛ فقد كان سابقًا على نُوحٍ على ما ثَبَت في الأخبارِ).

((تفسير الرازي)) (550/21).

وقال ابن كثير: (هذا هو الأظهرُ أنَّ إدريسَ في عمودِ نَسبِ نوحٍ، عليهما السَّلامُ.

وقد قيلَ: إنَّه مِن أنبياءِ بني إسرائيلَ، أخذًا مِنْ حديثِ الإسراءِ، حيثُ قال في سلامِه على النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «مرحبًا بالنَّبيِّ الصَّالحِ، والأخِ الصَّالحِ»، ولم يَقلْ: «والولدِ الصَّالحِ»، كما قال آدمُ وإبراهيمُ، عليهما السَّلامُ).

((تفسير ابن كثير)) (242/5).

وقيل: المرادُ: إدريسُ ونوحٌ عليهما السلامُ.

وممن اختار ذلك: ابنُ عطية، والرسعني، والخازن، والعُليمي.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (21/4)، ((تفسير الرسعني)) (433/4)، ((تفسير الخازن)) (191/3)، ((تفسير العُليمي)) (261/4).

قال الرسعني: (مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ...

يريدُ به: إدريسَ ونوحًا؛ لقربِهما مِن آدمَ عليه السلامُ).

((تفسير الرسعني)) (433/4).

وذهَب ابنُ كثيرٍ إلى أنَّ الإشارةَ في هذه الآيةِ ليست للأنبياءِ المذكورينَ في هذه السورةِ فقط، بل الإشارةُ إلى جنسِ الأنبياءِ عليهم الصَّلاةُ والسلام.

وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ.

أي: ومِن ذُرِّيَّةِ مَن حَمَلْنا معَ نوحٍ في السَّفينةِ، وهو إبراهيمُ عليه السلامُ.(89)

وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ.

أي: ومِن ذُرِيَةِ إبراهيمَ، وهم: إسماعيلُ، وإسحاقُ، ويعقوبُ عليهم السلامُ، ومِن ذُرِيَةِ إسرائيلَ –أي: يعقوبَ عليه السلامُ–، وهم موسَى، وهارونُ، وزكريَّا، ويحيى، وعيسَى بنُ مريمَ– عليهم السلامُ.(90)

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (241/5).

(89) قال ابن الجوزي: (وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ يعني: إبراهيمَ؛ لأنَّه مِن ولدِ سامِ بنِ نوحٍ).

((تفسير ابن الجوزي)) (137/3).

ويُنظر: ((تفسير العُليمي)) (261/4).

(90) ومِن المفسِّرينَ مَن زاد مريمَ عليها السلامُ.

ومنهم: ابنُ جرير، ومكي، وابنُ عطية.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (565/15)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4558/7)، ((تفسير ابن عطية)) (21/4).

قال السمعاني: (وقولُه تعالَى: وَإِسْرَائِيلَ، أي: مِن ذُرِّيَّةِ إسرائيلَ، والمرادُ منه: موسَى، وداوُدُ، وسليمانُ، ويوسفُ، وعيسَى، وكلُّ أنبياءِ بني إسرائيلَ).

((تفسير السمعاني)) (301/3).

وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا.

أي: وممَّن هدينا للإيمانِ، والعمَلِ الصَّالحِ، وممَّن اختَرْناهم للنُّبوَّةِ.(91)

إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا.

أي: إذا تُتلى على أولئك القومِ -الذين هَدَينا مِن النبيِّينَ- آياتُ الرَّحمنِ التي أنزلها عليهم في كُتُبِه؛ بادروا إلى السُّجودِ لله باكينَ مِن خَشيتِه تعالى.(92)

(91) قال الرازي: (فرَتَّب اللهُ سبحانَه وتعالَى أحوالَ الأنبياءِ عليهم السَّلامُ الَّذينَ ذكرَهم على هذا التَّرتيبِ؛ مُنَبِّهًا بذلك على أنَّهم كما فُضِّلوا بأعمالِهم فلهم مزيدٌ في الفضلِ بوِلادَتِهم مِن هؤلاءِ الأنبياءِ).

((تفسير الرازي)) (550/21).

(92) قال البيضاوي: (إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا خبرٌ لـ أُولَئِكَ إنْ جَعَلْتَ الموصولَ صِفَتَه، واستئنافٌ إن جعَلْتَه خبرَه؛ لبيانِ خَشيتِهم مِن اللهِ وإخباتِهم له، مع ما لهم مِن علوِّ الطبقةِ في شرَفِ النَّسَبِ، وكمالِ النَّفسِ، والزُّلفَى مِن الله تعالى).

((تفسير البيضاوي)) (14/4).

وقال ابنُ كثير: (أجمع العُلَماءُ على شرعيَّةِ السجودِ هاهنا؛ اقتداءً بهم، واتِّباعًا لِمنوالِهم).

((تفسير ابن كثير)) (242/5).

ويُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (133/16-134).

سورةُ مَريمَ

الآيات (59–63)

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60) جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61) لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63)

غريب الكلمات:

خَلْفٌ: الخَلْفُ: الرَّدِيءُ مِن الناسِ ومِن الكلامِ، والرَّديءُ مِن كلّ شيءٍ، وأكثرُ ما يُستعمَلُ باللامِ الساكنةِ (خَلْفٌ) في الذمّ، وبالفتحِ (خَلَف) في المدحِ، وأصلُه: مجيءُ شيءٍ بعدَ شيءٍ يقومُ مقامَه.

غَيًّا: أي: شرًّا، وخُسرانًا، وهَلاكًا. أو: هو وادٍ في جهنَّمَ، وأصلُه: يدُلُّ على خِلافِ الرُّشدِ، وإظلامِ الأمرِ.

عَدْنٍ: أي: إقامَةٍ، واستقرارٍ، وثباتٍ، يُقال: عَدَن بالمكانِ، يَعْدِنُ عَدْنًا، إذا أقامَ به، واستقرَّ، وأصلُ (عدن): يدلُّ على الإقامةِ.

مَأْتِيًّا: أي: يَأْتيه أولياءُ الله، أو مفعولٌ بمعنَى فاعلٍ، أي: آتيًا، وأصلُ الإتيانِ: مجيءٌ بسهولةٍ.

لَغْوًا: أي: باطلًا مِن الكلامِ، وفُحشًا، واللغوُ: هو فضولُ الكلامِ، ويدخلُ فيه فحشُ الكلامِ وباطِلُه، وأصلُه يدلُّ على الشَّيءِ لا يُعْتَدُّ به.

تفسير الآيات:

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (59).

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ.

أي: فجاء مِن بعدِ الذين أنعَم اللهُ عليهم مِن النبيّينَ عَقِبُ سَوءٍ[93] أضاعُوا الصَّلاةَ؛[94] إمَّا بترْكِها بالكُلّيَّةِ، أو تَرْكِ بَعضِ أركانِها وشُروطِها، أو التَّفريطِ في واجباتِها، أو تأخيرِها عن مواقيتِها، وغير ذلك.[95]

---

(93) قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّهم اليهودُ والنَّصارى وغيرُهم مِن الكُفَّارِ الذين خَلَفوا أنبياءَهم وصالحيهم قبلَ نزولِ الآيةِ، فأضاعوا الصَّلاةَ، واتَّبَعوا الشهواتِ، وعلى كُلِّ حالٍ فالعبرةُ بعُمومِ اللَّفظِ لا بخصوصِ السَّبَبِ؛ فكُلُّ خَلْفٍ أضاعوا الصلاةَ واتَّبَعوا الشهواتِ يَدخُلونَ في الذمِّ والوعيدِ المذكورِ في هذه الآيةِ).

((أضواء البيان)) (3/445).

(94) اختُلِف في المراد بإضاعتهم الصلاة؛ فقال قوم: تركوها.

وقال آخرون: ضيعوا أوقاتها.

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٥٦٩ - ٥٧٠) القول الأول الذي قاله القرظي، وانتقد الثاني مستندًا إلى السياق، فقال: «لدلالة قول الله -تعالى ذِكْرُه- بعده على أنّ ذلك كذلك، وذلك قوله -جلَّ ثناؤه-: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحا﴾، فلو كان الذين وصفهم بأنهم ضيَّعوها مؤمنين لم يستثن منهم مَن آمن، وهم مؤمنون ولكنهم كانوا كفارًا لا يعملون لله، ولا يؤدون له فريضة، فسقة قد آثروا شهوات أنفسهم على طاعة الله».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٤٧) أن قوله: ﴿إلا من تاب وآمن﴾ يقتضي أن الإضاعة إضاعة كفر.

وساق ابنُ كثير (٩/ ٢٦٤) قول القرظي، ثم علَّق بقوله: «ولهذا ذهب مَن ذهب من السلف والخلف والأئمة كما هو المشهور عن الإمام أحمد، وقول عن الشافعي إلى تكفير تارك الصلاة، للحديث: «بين العبد وبين الشرك تَرْكُ الصلاة»».

وذكر ابنُ القيم (٢/ ١٧٥) أنّ إضاعة الصلاة تتناول تركَها، وترك وقتها، وتركَ واجباتها وأركانها، وأنّ مُؤَخِّرها عن وقتها عمدًا مُتَعَدٍّ لحدود الله، كمُقَدِّمِها عن وقتها.

(95) وممَّن قال بأنَّ المرادَ بإضاعةِ الصَّلاةِ: تركُها: ابنُ جرير، والزجاج، والثعلبي، والواحدي، والرازي، والخازن، والعُليمي.

وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ.

أي: وأقبلوا على شَهَواتِ أنفُسِهم، وانهَمَكوا في تحقيقِ رَغَباتِها الدُّنيويَّةِ، وآثَروها على طاعةِ اللهِ.(96)

ومِن قال بذلك من السلف: محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظي، وابنُ زيدِ بنِ أسلَمَ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (569/15)، ((تفسير ابن كثير)) (243/5).

وقيل: المرادُ بإضاعةِ الصَّلاةِ: إضاعةُ أوقاتِها، والإخلالُ بواجباتِها.

ومِمن اختار ذلك في الجملةِ: السمرقندي، والقرطبي، وابن تيمية.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (380/2)، ((تفسير القرطبي)) (123/11)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (234/15) و(6/22).

ومِمن قال بنحو هذا القولِ مِن السلفِ: عبد الله بنُ مسعود، والنَّخَعيُّ، وسعيدُ بنُ المسيب، وعمرُ بنُ عبد العزيز، والقاسم بنُ مخيمرة.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (567/15)، ((البسيط)) للواحدي (270/14)، ((تفسير ابن الجوزي)) (137/3).

ومِمن اختار العمومَ، وأنَّ ما سبَق وغيرَه يدخلُ في الإضاعةِ: الثعالبي، والبقاعي، والشوكاني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الثعالبي)) (25/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (224/12)، ((تفسير الشوكاني)) (400/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (444/3).

قال الشنقيطي: (اختلف أهلُ العِلمِ في المرادِ بإضاعتِهم الصَّلاةَ، فقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: تأخيرُها عن وَقتِها...

وقال بعضُهم: إضاعتُها: الإخلالُ بشُروطِها...

وقال بعضُهم: المرادُ بإضاعتِها: جَحدُ وجوبِها...

وقيل: إضاعتُها: إقامتُها في غيرِ الجَماعاتِ.

وقيل: إضاعتُها: تعطيلُ المساجِدِ، والاشتِغالُ بالصَّنائِعِ والأسبابِ...

وكلُّ هذه الأقوالِ تدخُلُ في الآيةِ؛ لأنَّ تأخيرَها عن وَقتِها، وعدمَ إقامتِها في الجماعةِ، والإخلالَ بشُروطِها، وجَحْدَ وجوبِها، وتعطيلَ المساجِدِ منها: كُلُّ ذلك إضاعةٌ لها، وإن كانت أنواعُ الإضاعةِ تتفاوتُ).

((أضواء البيان)) (444/3).

وقال الشوكاني: (والظَّاهِرُ أنَّ مَن أخَّر الصَّلاةَ عن وَقْتِها، أو ترَك فرضًا مِن فروضِها، أو شرطًا مِن شروطِها، أو ركنًا مِن أركانِها فقد أضاعَها، ويدخلُ تحتَ الإضاعةِ مَن ترَكَها بالمرَّةِ أو جَحدها دُخولًا أوَّليًّا).

((تفسير الشوكاني)) (400/3).

(96) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (569/15)، ((تفسير ابن كثير)) (243/5)، ((تفسير الألوسي)) (427/8).

فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا.

أي: فسوف يلقَونَ عذابًا شَديدًا يومَ القيامةِ.(97)

قال ابنُ تيمية: (قولُه: وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ يتناولُ كُلَّ مَن استعمَلَ ما يشتهيه عن المحافظةِ عليها في وَقتِها، سواءٌ كان المُشتَهى من جنسِ المحرَّماتِ؛ كالمأكولِ المحَرَّم، والمشروبِ المحَرَّم، والمنكوحِ المحَرَّم، والمسموعِ المحَرَّمِ؛ أو كان مِن جنسِ المباحاتِ لكِنَّ الإسرافَ فيه يُنهَى عنه؛ أو غيرَ ذلك.

فمن اشتغل عن فِعلِها في الوَقتِ بلعبٍ، أو لهوٍ، أو حديثٍ مع أصحابِه، أو تنَزُّهٍ في بُستانِه، أو عِمارةِ عَقارِه، أو سعيٍ في تجارتِه، أو غيرِ ذلك- فقد أضاع تلك الصَّلاةَ، واتَّبَع ما يشتهيه).

((مجموع الفتاوى)) (55/22).

ويُنظر: ((تفسير الشوكاني)) (400/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (445/3).

(97) قال ابنُ الجوزي: (ليس معنى هذا اللقاءِ مُجرَّدَ الرؤيةِ، وإنَّما المرادُ به: الاجتماعُ والملابسةُ مع الرؤيةِ).

((تفسير ابن الجوزي)) (138/3).

وقال الشنقيطي: (في المرادِ بقولِه: غَيًّا في الآيةِ أقوالٌ مُتقاربةٌ؛ منها أنَّ الكلامَ على حَذفِ مُضافٍ، أي: فسوف يلقَونَ جزاءَ غَيٍّ، ولا شَكَّ أنَّهم سيلقَونَ جزاءَ ضلالِهم.

وممن قال بهذا القول: الزجَّاج.

ونظيرُ هذا التفسيرِ قَولُه تعالى: يَلْقَ أَثَامًا [الفرقان: 68] عند من يقولُ: إنَّ معناه: يلقَ مُجازاةَ آثامِه في الدنيا...

ومنها: أنَّ الغَيَّ في الآيةِ: الخُسرانُ والحُصولُ في الوَرَطاتِ.

وممَّن رُوِيَ عنه هذا القولُ: ابنُ عباس، وابنُ زيد.

ورُوِيَ عن ابنِ زيدٍ أيضًا: غَيًّا أي: شَرًّا، أو ضلالًا، أو خَيبةً.

وقال بعضُهم: إنَّ المرادَ بقولِه: غَيًّا في الآيةِ: وادٍ في جهنَّمَ مِن قَيحٍ؛ لأنَّه يَسيلُ فيه قَيحُ أهلِ النَّارِ وصَديدُهم، وهو بعيدُ القعرِ، خَبيثُ الطَّعمِ.

وممن قال بهذا: ابنُ مسعود، والبراء بن عازب، ورُوِيَ عن عائشة...

وقيل: إنَّ المعنى: فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا أي: ضلالًا في الآخرةِ عن طريقِ الجنَّة.

ذكره الزمخشري.

وفيه أقوالٌ أُخَرُ، ومدارُ جميعِ الأقوالِ في ذلك على شَيءٍ واحدٍ، وهو: أنَّ أولئك الخَلْفَ الذين أضاعوا الصَّلاةَ واتَّبَعوا الشَّهَواتِ سوف يَلقَونَ يومَ القيامةِ عذابًا عَظيمًا).

((أضواء البيان)) (445/3، 446).

اختُلِف في تفسير الغي؛ فقال قوم: وادٍ في جهنّم.

كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ * أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ [يونس: 7، 8].

وقال سُبحانَه: وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ [محمد: 12].

وقال عزَّ وجلَّ: فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ [الماعون: 4- 5].

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (60).

إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

أي: إلَّا الذين تابوا عن إضاعةِ الصَّلواتِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ، وآمنوا باللهِ وما جاءت به رسُلُه، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ المشروعةَ بإخلاصٍ لله، فأدَّوا فرائِضَه، واجتَنَبوا محارِمَه؛ فأولئك يدخُلونَ الجنَّةَ، ويَنجُونَ مِن النَّارِ.

رواه ابن عباس عن رسول الله - ﷺ -، وبه قال كعب.

وقال آخرون: نهر في جهنم.

قاله ابن مسعود.

وقال غيرهم: الخسران.

وذهب قوم إلى أنه: الشرُّ.

ورأى ابنُ جرير (١٥/ ٥٧٤) تقارب الأقوال؛ لصحّة جميعها، فقال: «وكل هذه الأقوال متقاربات المعاني، وذلك أنّ مَن ورَدَ البئرين اللتين ذكرهما النبي - ﷺ -، والوادي الذي ذكره ابن مسعود في جهنم، فدخل ذلك، فقد لاقى خسرانًا وشرًّا، حسْبه به شرًّا».

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان: 68 – 70].

وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا.

أي: ولا يَنقُصُهم اللهُ شَيئًا مِن حَسَناتِهم.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا (61).

جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ.

أي: يدخُلُ أولئك التائبونَ بساتينَ إقامةٍ دائمةٍ قد وعد الرَّحمنُ عِبادَه المؤمنينَ أن يَدخُلوها في الآخرةِ، فآمنوا بذلك، والحالُ أنَّهم لم يَرَوها في الدُّنيا.

إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا.

أي: سيأتي المُؤمنونَ المطيعونَ، ويَصيرونَ إلى اللهِ، وينالونَ ما وُعِدوا به، فيُدخِلُهم جنَّتَه؛ تحقيقًا لوَعدِه.[98]

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (62).

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا.

---

(98) قال ابنُ جرير: (وعدُه في هذا الموضعِ موعودُه، وهو الجنةُ).
((تفسير ابن جرير)) (575/15).
وقال ابنُ جزي: (مَأْتِيًّا وزنُه مفعولٌ، فقيل: إنَّه بمعنى «فاعلٍ»؛ لأنَّ الوعدَ هو الذي يأتي، وقيل: إنَّه على بابِه؛ لأنَّ الوعدَ هو الجنةُ، وهم يأتونَها).
((تفسير ابن جزي)) (483/1).
وقال ابن كثير: (ومنهم مَن قالَ: مَأْتِيًّا بمعنَى: آتِيًا؛ لأنَّ كلَّ ما أتاكَ فقدْ أتيتَه، كما تقولُ العربُ: أتَتْ عليَّ خمسونَ سنةً، وأتيتُ على خمسينَ سنةً، كلاهما بمعنى واحدٍ).
((تفسير ابن كثير)) (246/5).

أي: لا يَسمَعُ أهلُ الجنَّةِ فيها باطِلًا وفُحشًا وكَلامًا لا ينفعُهم، ولكِنْ[99] يَسمَعونَ فيها ما يَسُرُّهم مِن الأقوالِ والأصواتِ السَّالمةِ مِن كُلِّ عَيبٍ، مثل تحيَّةِ اللهِ وملائكتِه لهم، وتسليمِ بعضِهم على بعضٍ.[100]

كما قال تعالى: دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ [يونس: 10].

وقال سُبحانَه: وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ * سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ [الرعد: 23، 24].

وقال عزَّ وجلَّ: سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ [يس: 58].

وقال تبارك وتعالى: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا * إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا [الواقعة: 25، 26].

وقال جلَّ جلالُه: لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّابًا [النبأ: 35].

---

(99) ممن قال بأنَّ الاستثناءَ هنا منقطعٌ: ابنُ جرير، والبغوي، والقرطبي، وابنُ كثير، واستظهره الشنقيطي.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (576/15)، ((تفسير البغوي)) (240/3)، ((تفسير القرطبي)) (126/11)، ((تفسير ابن كثير)) (247/5)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (466/3).
وقال البقاعي: (ويَحسُنُ أن يُرادَ باللَّغوِ مُطلَقُ الكَلامِ؛ قال في «القاموس»: لغا لَغْوًا: تكلَّمَ.
أي: لا يَسمَعونَ فيها كَلامًا إلَّا كلامًا يدُلُّ على السَّلامةِ، ولا يَسمَعونَ شيئًا يدُلُّ على عَطَبِ أحدٍ منهم، ولا عَطَبِ شَيءٍ فيها). ((نظم الدرر)) (227/12).

(100) قال السعدي: (إِلَّا سَلَامًا أي: إلَّا الأقوالَ السَّالِمةَ مِن كُلِّ عَيبٍ؛ مِن ذِكرِ للهِ، وتحيةٍ، وكلامِ سُرورٍ، وبِشارةٍ، ومُطارحةِ الأحاديثِ الحَسَنةِ بين الإخوانِ، وسَماعِ خِطابِ الرَّحمنِ، والأصواتِ الشَّجيَّةِ مِن الحُورِ والملائكةِ والوِلدانِ، والنَّغَماتِ المُطرِبةِ، والألفاظِ الرَّخيمةِ؛ لأنَّ الدَّارَ دارُ السَّلامِ، فليس فيها إلَّا السَّلامُ التامُّ في جميعِ الوُجوهِ).
((تفسير السعدي)) (ص: 497).

وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا.

أي: ولأهلِ الجنَّةِ رِزقُهم في الجنَّةِ مِن الطَّعامِ والشَّرابِ وما يَشتَهونَ في كُلِّ يَومٍ في قَدرِ وَقتِ البُكرةِ ووَقتِ العَشيِّ مِن أيَّامِ الدُّنيا.(101)

تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (63).

---

(101) قال ابنُ جرير: (وإنما يعني أنَّ الذي بين غدائِهم وعشائِهم في الجنَّةِ قَدرُ ما بين غداءِ أحدِنا في الدنيا وعشائه، وكذلك ما بين العَشاءِ والغَداءِ؛ وذلك لأنَّه لا ليلَ في الجنةِ ولا نهار).

((تفسير ابن جرير)) (576/15).

قال الزجاج: (قيل: ليس ثَمَّ بكرةٌ ولا عَشِيٌّ، ولكنَّهم خُوطِبوا بما يَعقِلونَ في الدنيا.

فالمعنَى لهم: رزقُهم في مقدارِ ما بينَ الغداةِ والعشيِّ).

((معاني القرآن وإعرابه)) (337/3).

وقال الواحدي معلقًا على كلامِ الزجاجِ: (وهذا قَولُ جميعِ أهلِ التأويلِ).

((البسيط)) (277/14).

وقال الزجَّاج أيضًا: (وإذا قيلَ: في مِقدارِ الغَداةِ والعَشِيِّ، فالذي يُقسَمُ في ذلك الوَقتِ يكونُ مِقدارَ ما يريدونَ في كُلِّ ساعةٍ إلى أن يأتيَ الوَقتُ الذي يتلوه).

((معاني القرآن وإعرابه)) (337/3).

وقال ابنُ تيمية: (ليس في الجنَّةِ شَمسٌ ولا قمر، ولا هناك حركةُ فَلَك، بل ذلك الزمانُ مُقدَّرٌ بحركات، كما جاء في الآثار: أنهم يعرفون ذلك بأنوارٍ تظهَرُ مِن جهةِ العرشِ).

((شرح حديث النزول)) (ص: 178).

وقال القرطبي: (وقال العلماءُ: ليس في الجنَّةِ ليلٌ ولا نهارٌ، وإنَّما هم في نورٍ أبدًا، إنَّما يعرفونَ مقدارَ اللَّيلِ مِن النَّهارِ بإرخاءِ الحجبِ، وإغلاقِ الأبوابِ، ويعرِفونَ مقدارَ النَّهارِ برفعِ الحجبِ، وفتحِ الأبواب.

ذَكَره أبو الفرجِ الجوزيُّ والمهدَويُّ وغيرُهما).

((تفسير القرطبي)) (127/11).

وقيل: المعنى: لهم رزقُهم فيها كلَّ ساعةٍ، فالمرادُ بقولِه: بُكْرَةً وَعَشِيًّا: دوامُ الرِّزقِ، مِن بابِ ذِكرِ الطَّرَفينِ الذي يَشمَلُ الجميعَ، كما تقولُ: أنا عندَ فُلانٍ صباحًا ومَساءً، وبُكرةً وعَشيًّا.

أي: هذه الجنَّةُ العاليةُ القَدرِ التي وصَفْنا بهذه الصِّفاتِ العظيمةِ نُنْزِلُها ونُعْطيها مَن كان مِن عبادِنا مُتَّقِيًا لعذابِ اللهِ، بامتثالِ أوامِرِه، واجتنابِ نواهيه.

كما قال سُبحانه: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون: 10، 11].

سورةُ مَريمَ

الآيتان (64–65)

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64)

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65)

غريب الكلمات:

نَسِيًّا: أي: ذا نِسيانٍ، أو: تاركًا لك، وأصلُ (نسي): يدلُّ على إغْفالِ الشيءِ، أو تركِه.

وَاصْطَبِرْ: أي: اصبِرْ، أو: اصبِرْ صبرًا عظيمًا، أو: تحمَّلِ الصَّبرَ بجهدِك، ويُقالُ: اصْطَبر: إذا اكتسَب الصبرَ وتعلَّمَه، والاصْطِبارُ: شِدَّةُ الصَّبرِ على الأمرِ الشَّاقِّ، وأصلُ (صبر) هنا: الحبسُ والمنعُ.

سَمِيًّا: أي: مَثيلًا وشَبيهًا ونَظيرًا، فالسميُّ: المُسامي؛ فعيلٌ بمعنَى مُفاعِل، أي: المماثِلِ في السموِّ والرفعةِ والشَّرَفِ، وأصلُ (سمو): يدُلُّ على العُلوِّ.

تفسير الآيتين:

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (64).

سببُ النُّزولِ:

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضِيَ اللهُ عنهما، أنَّ النبيَّ - ﷺ - قال: ((يا جِبريلُ، ما يمنَعُك أن تزورَنا أكثَرَ ممَّا تَزورُنا؟ فنزلت: وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا إلى آخِرِ الآية، قال: كان هذا الجوابُ لمحمَّدٍ - ﷺ -)).[102]

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ.

أي: قُلْ -يا جبريلُ- لمحمَّدٍ: وما ننزِلُ نحن -الملائكةَ- من السَّماءِ إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالنُّزولِ متى شاء؛ فنحن عبيدٌ مأمورونَ، ليس لنا مِن الأمرِ شَيءٌ، فلا تَستبطئْ نُزولَنا يا محمَّدُ.[103]

---

(102) رواه البخاري (7455).
قال الواحدي: (المفسِّرون كلُّهم في سببِ نزولِ هذه الآيةِ على هذا).
((البسيط)) (279/14).
(103) قال الشوكاني: (قَولُه: وَمَا نَتَنَزَّلُ أي: قال الله سُبحانَه: قُلْ -يا جبريلُ-: وما نتنزَّلُ...
وقيل: إنَّ هذا حكايةٌ عن أهلِ الجنَّةِ، وإنَّهم يقولونَ عند دخولِها: وما نتنزَّلُ هذه الجِنانَ إلَّا بأمرِ رَبِّك.
والأوَّلُ أولى؛ بدَلالةِ ما قبلَه، ومعناه يحتمِلُ وَجهَينِ: الأولُ: وما نتنزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك لنا بالتنزُّلِ
والثاني: وما نتنزَّلُ عليك إلَّا بأمرِ رَبِّك الذي يأمُرُك به بما شَرَعه لك ولأمَّتِك).
((تفسير الشوكاني)) (404/3).

كما قال تعالى: لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ [الأنبياء: 27].

لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ.

أي: لله وحدَه جميعُ الجهاتِ والأماكنِ، وجميعُ الأزمانِ: الحاضرةِ والماضيةِ والمستقبلةِ، فلا نقدرُ أن ننتقلَ مِن جهةٍ إلى جهةٍ، أو في زمانٍ دونَ زمانٍ إلَّا بأمرِ ربِّك ومشيئتِه.(104)

قال ابنُ حجرٍ: (تنبيهٌ: الأمرُ في هذه الآيةِ معناه الإذنُ؛ بدليلِ سببِ النزولِ المذكورِ، ويحتمِلُ الحكمَ، أي: نتنزلُ مصاحبينَ لأمرِ الله عبادَه بما أوجَب عليهم، أو حرَّم، ويحتمِلُ أن يكونَ المرادُ ما هو أعمُّ مِن ذلك، عندَ مَن يجيزُ حملَ اللفظِ على جميعِ معانيه).

((فتح الباري)) (8/429).

(104) اختُلِف في تفسيرِ هذه الآيةِ على أقوالٍ؛ منها: أنَّ معنى مَا بَيْنَ أَيْدِينَا أي: ما يأتي مِن أمورِ الآخرةِ.

ومعنى وَمَا خَلْفَنَا أي: ما مضَى مِن الدنيا.

ومعنى وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ أي: ما بينَ وقتِنا هذا إلى يومِ القيامةِ.

وممن اختار هذا القولَ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، ومكي، والواحدي، وجلال الدين المحلي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/583، 584)، ((معاني القرآن)) للزجاج (3/337)، ((الهداية)) لمكي (7/4568)، ((البسيط)) للواحدي (14/279)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 403).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: مَا بَيْنَ أَيْدِينَا: الآخرةُ، وَمَا خَلْفَنَا: الدنيا: ابنُ عبَّاسٍ، وعكرمةُ، وقتادةُ، والضحَّاكُ، وسعيدُ بنُ جبيرٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/582)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (7/2414)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/140).

وممن قال مِن السلفِ أنَّ قولَه تعالى: وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ أي: ما بينَ الدنيا والآخرةِ: سعيدُ بنُ جبيرٍ، وقتادةُ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/582)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/140).

وممن اختار هذا القولَ أيضًا مِن المفسرينَ: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والفرَّاءُ، والسمرقندي، والعُليمي، لكن قالوا: معنى وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ أي: ما بينَ النفختينِ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (2/633)، ((معاني القرآن)) للفراء (2/170)، ((تفسير السمرقندي)) (2/381)، ((تفسير العُليمي)) (4/265).

ومن قال مِن السـلفِ أنَّ قولَه تعالى: وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ما بينَ النفختينِ: مجاهدٌ، وعكرمةُ، وقتادةُ -في روايةٍ عنه-، وأبو العاليةِ، والربيعُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (582/15)، ((تفسير ابن الجوزي)) (140/3).

واعترض الواحديُّ على هذا القولِ بأنَّه لم يَجْرِ للنفختينِ ذِكرٌ حتَّى يُشارَ إليه.

((البسيط)) (281/14).

وقال ابنُ عطية: (وقال ابنُ عباسٍ وقتادةُ فيما رُوي -وما أراه صـحيحًا عنهما-: «ما بينَ الأيدي»: هي الآخرةُ، و«ما خلف»: هو الدنيا، وهذا مُختلُّ المعنى إلَّا على التشبيهِ بالمكانِ؛ لأن ما بينَ اليدِ إنَّما هو ما تقدَّم وجودُه في الزمنِ بمثابةِ التوراةِ والإنجيلِ مِن القرآنِ).

((تفسير ابن عطية)) (24/4).

وقيل: معنى الآيةِ: له ما قدَّامنا وما خلفَنا، وما نحن فيه مِن الجهاتِ والأماكنِ، فليس لنا الانتقالُ مِن مكانٍ إلى مكانٍ إلَّا بأمرِ الله، وممن اختار هذا القولَ: الزمخشريُّ، والنسفي، وابنُ جزي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (29/3)، ((تفسير النسفي)) (344/2)، ((تفسير ابن جزي)) (483/1).

قال ابن عطية: (الآيةُ إنَّما المقصـدُ بها الإشـعارُ بملكِ الله تعالى للملائكةِ، وأنَّ قليلَ تصـرفِهم وكثيرَه إنَّما هو بأمرِه، وانتقالَهم مِن مكانٍ إلى مكانٍ، إنَّما هو بحكمتِه؛ إذ الأمكنةُ له، وهم له، فلو ذهب بالآيةِ إلى أنَّ المرادَ بـــ «ما بينَ الأيدي وما خلف» الأمكنةُ التي فيها تصرفُّهم، والمرادُ بـــ «ما بينَ ذلك» هم أنفسُهم ومقاماتُهم لكان وجهًا، كأنَّه قال: نحن مقيدون بالقدرةِ، لا ننتقلُ ولا نتنزلُ إلا بأمرِ ربِّك).

((تفسير ابن عطية)) (24/4).

واختار بعضُ المفسرين تفسيرَ الآيةِ بما يعمُّ الزمانَ والمكانَ، ومنهم: البيضاوي، والبقاعي، وأبو السعود، وابنُ عجيبة، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير البيضـاوي)) (15/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (230/12)، ((تفسير أبي السعود)) (273/5)، ((تفسير ابن عجيبة)) (349/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 498).

قال البقاعي: (لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا أي: مِن المكانِ والزمانِ، وما فيهما، وَمَا خَلْفَنَا مِن ذلك وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وهو نحن والمكانُ والزمانُ اللذان نحن بهما، وما فوقَه وتحتَه، ونحن نعلمُ ذلك، ونعملُ على حسبِ ما نعلمُ، فلا نتصرَّفُ في ملكِه إلَّا بأمرِه).

((نظم الدرر)) (230/12).

وذهب ابنُ عاشور إلى ما هو أعمُّ مِن ذلك، فقال: (المرادُ بـ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ما هو أمامَنا، وبـ وَمَا خَلْفَنَا: ما هو وراءَنا، وبـ وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ: ما كان عن أيمانِهم وعن شمائلِهم؛ لأنَّ ما كان عن اليمينِ وعن الشمالِ هو بينَ الأمامِ والخلفِ.

والمقصودُ استيعابُ الجهاتِ.

ولما كان ذلك مُخبرًا عنه بأنَّه ملكٌ لله؛ تعيَّن أن يُرادَ به الكائناتُ التي في تلك الجهاتِ، ...

فيعمُّ جميعَ الكائناتِ، ويستتبعُ عمومَ أحوالِها وتصرفاتِها، مثل التنزلِ بالوحي.

ويستتبعُ عمومَ الأزمانِ: المستقبلَ والماضي والحالَ).

وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا.

أي: ولم يكُنْ ربُّك -يا محمَّدُ- ذا نسيانٍ لشَيءٍ مِن الأشياءِ،(105) فإنْ تأخَّرَ نزولُنا إليك، فليس عن نِسيانٍ منه، وإنَّما اقتضت حكمتُه ذلك، ولم يكن ربُّك لينساك ويُهمِلَك، بل لم يَزَلْ مُعتَنيًا بك؛ فلا تحزَنْ إن تأخَّرَ نزولُنا، واعلَمْ أنَّ اللهَ أراد ذلك.

كما قال تعالى: لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى [طه: 52].

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (65).

رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا.

أي: خالِقُ السَّمواتِ والأرضِ ومالِكُهما وما بينَهما مِن الخَلقِ، ومُدَبِّرُ ذلك كلِّه، فلو كان نَسِيًّا لم يستَقِم الوُجودُ، ولاضطربَ نظامُ الحياةِ، وهلكَت المخلوقاتُ.

((تفسير ابن عاشور)) (140/16).

قال الشوكاني: (وعلى هذه الأقوالِ كلِّها يكونُ المعنى: أنَّ اللهَ سبحانَه هو المحيطُ بكلِّ شيءٍ، لا يخفَى عليه خافيةٌ، ولا يَعزُبُ عن علمِه مثقالُ ذرَّةٍ، فلا نُقدِمُ على أمرٍ إلا بإذنِه).

((تفسير الشوكاني)) (404/3).

ويُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (29/3).

(105) ذكر ابنُ عطية (٦/ ٥١) قولًا بأنّ ﴿نَسِيًّا﴾ هنا معناه: تاركًا، وانتقده مستندًا لظاهر الآية، فقال: «وفي هذا ضَعف؛ لأنّه إنما نفي النسيان مطلقًا، فيتمَكَّنُ ذلك في النسيان الذي هو نَقْص، وأمّا الترك فلا ينتفي مطلقًا، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وتَرَكَهُمْ فِي ظُلُماتٍ﴾ [البقرة: ١٧]، وقوله: ﴿وتَرَكْنا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ [الكهف: ٩٩]، فلو قال: نسيك أو نحوه من التقييد لصَحَّ حملُه على الترك، ولا حاجة بنا أن نقول: إنّ التقييد في النية؛ لأنّ المعنى الآخر أظهر».

فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ.

أي: فاعبُدْ ربَّك وَحدَه مُخلِصًا له، واصبِرْ صَبرًا عظيمًا بغايةِ جُهدِك على العَمَلِ بطاعتِه.

هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا.

أي: أمَرْناك بعبادةِ اللهِ والاصطبارِ عليها؛ لأنَّه لا مثيلَ ولا شبيهَ له في صِفاتِه وأسمائِه؛ فيستحقَّ أن يُعبَدَ مِثلَ اللهِ، وأن يُسمَّى بما يختصُّ به اللهُ مِن الأسماءِ الحُسنى.(106)

كما قال تعالى: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ [الشورى: 11].

وقال سُبحانَه: وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص: 4].

سورةُ مَريمَ

(106) قال ابن تيمية: (فلا أحدَ يُساميه، ولا يستحِقُّ أن يُسمَّى بما يختَصُّ به من الأسماءِ، ولا يساويه في معنى شيءٍ مِن الأسماء، لا في معنى الحيِّ ولا العليمِ ولا القديرِ، ولا غيرِ ذلك من الأسماء، ولا في معنى الذات والموجودِ ونحو ذلك من الأسماء العامَّة، ولا يكونُ إلهًا ولا ربًّا ولا خالقًا).
((مجموع الفتاوى)) (366/27).

الآيات (66–72)

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66) أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ
قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67) فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا
(68) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ
أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71) ثُمَّ نُنَجِّي
الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72)

غريب الكلمات:

جِثِيًّا: أي: بُروكًا على رُكَبِهم، لا يستطيعونَ القيامَ ممَّا هم فيه، جمعُ جاثٍ. وقيل: ج أي: جميعًا، وقيلَ: أي: جماعاتٌ، جمعُ جَثْوَةٍ، وهي المجموعُ مِن التُّرابِ أو الحجارةِ.

شِيعَةٍ: الشيعةُ: الفرقةُ التي شايَع بعضُها بعضًا، أي: تابَعه، والشِّيعَةُ: مَن يتقوَّى بهم الإنسانُ، ويَنْتشِرون عنه، وكلُّ قومٍ اجتَمعوا على أمرٍ فهم شيعةٌ، وأصلُه يدلُّ على معاضدةٍ ومساعفةٍ.

عِتِيًّا: أي:تمرُّدًا، والعُتُوُّ: النُّبُوُّ –أي: الارتفاعُ– عن الطاعةِ، وكلُّ مُتناهٍ إلى غايتِه في كِبرٍ، أو فسادٍ، أو كفرٍ فهو عاتٍ، وأصلُ (عتو) هنا: يدُلُّ على استكبارٍ.

صِلِيًّا: أي: دُخولًا، ومُقاساةً لحرِّها، وأصلُ الصلي هنا: الإيقادُ بالنَّارِ. وقيل: أصلُه: القربُ مِن النارِ.

وَارِدُهَا: أي: مارٌّ عليها، أو: داخلُها، وأصلُ (ورد): يدلُّ على الموافاةِ إلى الشَّيءِ.

حَتْمًا: أي: أمرًا محتومًا، لازمًا، جازمًا، واجِبًا لا محيدَ عنه، والحتمُ: إيجابُ القضاءِ، والقطعُ بالأمرِ.

تفسير الآيات:

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (66).

أي: ويقولُ الإنسانُ الكافِرُ مُنكِرًا للبَعثِ بعدَ الموتِ: هل سأُخرَجُ بعدَ موتي وفَنائي حيًّا مِن قبري؟!

كما قال تعالى: وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ [الرعد: 5].

وقال سُبحانه: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ [يس: 78].

أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (67).

أي: أوَلا يتنبَّهُ الكافِرُ المُنكِرُ قُدرةَ اللهِ على بَعثِه أنَّ اللهَ قد خلقَه مِن قَبلُ(107) ولم يكُنْ شَيئًا مذكورًا؟! فالقادِرُ على إيجادِه مِن العَدَمِ قادِرٌ على إحيائِه بعدَ مَوته.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الروم: 27].

---

(107) قيل: معنى مِنْ قَبْلُ: أي: من قبلِ كلِّ حالةٍ هو عليها؛ فقيل: هي حالةُ بقائِه، وقيل: هي حالةُ جدالِه، وإنكارِه للبعثِ، وقولِه ما قال.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (285/14)، ((تفسير القرطبي)) (131/11)، ((تفسير النسفي)) (346/2)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (234/12)، ((تفسير الشوكاني)) (405/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (146/16).

وقال سُبحانه: وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ [يس: 78، 79].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ - ﷺ - قال: ((قال اللهُ: كذَّبني ابنُ آدَمَ، ولم يكُنْ له ذلك، وشتَمَني، ولم يكنْ له ذلك؛ فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولَدٌ، فسُبحاني أن أتَّخِذَ صاحِبةً أو ولدًا!)).(108)

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: يَذْكُرُ قراءتانِ:

1- قِراءةُ يَذْكُرُ مِنَ (الذِّكر) الذي يكونُ عَقيبَ النِّسيانِ والغَفلةِ، أي: أوَلا يتنبَّهُ الإنسانُ ويعلَمُ؟(109)

2- قِراءةُ يَذَّكَّرُ مِن (التذكُّرِ) الذي هو بمعنى التدبُّر، أي: أوَلا يتدبَّرُ الإنسانُ ويتفكَّرُ؟(110)

---

(108) رواه البخاري (4482).

(109) قرأ بها نافعٌ، وعاصمٌ، وابنُ عامرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (318/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 445)، ((الكشف)) لمكي (90/2).

(110) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (318/2).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 445)، ((الحجة)) لأبي علي الفارسي (204/5)، ((الكشف)) لمكي (90/2).

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68).

فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ.

أي: فأُقسِمُ بربِّك –يا محمَّدُ– لنجمَعَنَّ المُنكِرينَ للبَعثِ يومَ القيامةِ معَ شياطينِهم الذين أضَلُّوهم.

كما قال تعالى: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ [الصافات: 22– 23].

ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا.

أي: ثمَّ لنُحضِرَنَّهم حولَ جهنَّمَ أذِلَّاءَ، باركينَ على رُكَبِهم؛ مِن شِدَّةِ الأهوالِ، وفظاعةِ الأحوالِ.

ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (69).

أي: ثمَّ لنأخُذَنَّ بشِدَّةٍ وعُنفٍ مِن كُلِّ جماعةٍ وفِرقةٍ مِن طوائِفِ الكُفرِ والضَّلالِ أشَدَّهم تمَرُّدًا على الرَّحمنِ، وأعظَمَهم فسادًا وكُفرًا وظُلمًا، فنبدأُ بتعذيبِهم، وإدخالِهم النَّارَ.(111)

كما قال تعالى عن فرعونَ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ [هود: 98].

---

(111) قال الشنقيطي: (أي: لَنستخرجَنَّ ولنُميِّزنَّ مِن كلِّ طائفةٍ مِن طوائفِ الغَيِّ والفسادِ أعصاهم فأعصاهم، وأعتاهم فأعتاهم، فيبدأُ بتعذيبه وإدخالِه النَّارَ على حسَبِ مراتبهم في الكفرِ، والإضلالِ والضلالِ).
((أضواء البيان)) (3/476).

ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (70).

أي: ثمَّ[112] لنحنُ أعلَمُ بمَن هم أحقُّ بشدَّةِ العذابِ في النَّارِ مِن غيرِهم.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (71).

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا.

أي: وما منكم أحدٌ -أيُّها النَّاسُ- إلَّا سيَرِدُ النَّارَ.[113]

---

(112) قال ابن كثير: (قَولُه: ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا، ثُمَّ هاهنا لِعَطفِ الخبَرِ على الخبَرِ، والمرادُ: أنَّه تعالى أعلَمُ بمَن يستحِقُّ مِن العبادِ أن يَصلَى بنارِ جهنَّمَ ويَخلُدَ فيها، وبمَن يَستحِقُّ تَضعيفَ العذابِ).

((تفسير ابن كثير)) (5/251-252).

(113) الخطابُ في قولِه: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا لجميعِ الناسِ، عندَ الجمهورِ.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/27)، ((تفسير ابن جزي)) (1/484).

قال الواحدي: (وأكثرُ الناسِ على الحكمِ بظاهرِ هذه الآيةِ، وهو: أنَّ الخلقَ كلَّهم يرِدُ النارَ، ثم يُنجِّي الله المؤمنينَ).

((البسيط)) (14/293).

واختلف المفسرون في معنى الورودِ، فقيل: هو المرورُ على الصراطِ.

وقيل: الورودُ: الدخولُ.

وقيل غير ذلك.

قال ابنُ تيمية: (ولفظُ «الورود» يحتمِلُ العبورَ، والدخولَ).

((درء تعارض العقل والنقل)) (5/230).

وممَّن ذهب إلى أنَّ معناه: المرورُ على الصراط المقامِ على متنِ جهنَّم: ابنُ جرير، وابنُ تيمية، وابنُ كثير، وابنُ أبي العز.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (15/590، 601)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (4/279)، ((تفسير ابن كثير)) (5/256)، ((شرح الطحاوية)) لابن أبي العز (2/606).

قال ابن عبد البر: (وقال آخرونَ: الوُرودُ: المَمَرُّ على الصِّراطِ.

روَى الكعبيُّ، عن أبي صالحٍ، عن ابنِ عبَّاسٍ في قولِه: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا قال: المَمَرُّ على الصِّراطِ.

ورُوِي ذلك عن عبدِ اللَّهِ بنِ مسعودٍ، وكعبِ الأحبارِ، وخالدِ بنِ معدانَ، وأبي نَضْرَةَ، وهو قولُ السُّدِّيِّ).

((الاستذكار)) (75/3).

وقال الزجَّاج: (والحُجَّةُ القاطعةُ في هذا القولِ ما قال اللهُ عزَّ وجلَّ: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا [الأنبياء: 101-102].

فهذا -والله أعلمُ- دليلٌ أن أهلَ الحسنى لا يدخلونَ النَّارَ.

وفي اللغةِ: وردتُ بلدَ كذا وكذا، إذا أشرفتَ عليه؛ دخَلْتَه أو لم تدخُلْه...

فالورودُ هاهنا بالإجماعِ ليس بدُخولٍ).

((معاني القرآن)) (341/3- 342).

ويُنظر: ((التخويف من النار)) لابن رجب (ص: 250).

وقيل: معنى الورودِ على جهنمَ: دخولُها، فيرِدُها جميعُ النَّاسِ، وتكون بردًا وسلامًا على المؤمنينَ.

وممَّن ذهب إلى هذا القولِ: السمعاني، والرسعني -ونسَب القول بأنَّ المعنى: ما منكم أيُّها المؤمنونَ والكافرونَ مِن أحدٍ إلَّا داخلٌ النارَ إلى الأكثرينَ-، والقرطبي، والعُليمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (306/3)، ((تفسير الرسعني)) (449/4)، ((تفسير القرطبي)) (139/11)، ((تفسير العُليمي)) (268/4)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (479/3، 480).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباس، وعبدُ الله بنُ رواحةَ، وجابرُ بنُ عبد الله.

يُنظر: ((التمهيد)) لابن عبد البر (353/6)، ((طرح التثريب)) للعراقي (251/3).

قال ابنُ رجب: (وقالت طائفةٌ: الوُرودُ هو الدُّخولُ، وهذا هو المعروفُ عنِ ابنِ عبَّاسٍ، ورُوِيَ عنه من غيرِ وَجهٍ، وكان يَستَدِلُّ لذلك بقولِه تعالى في فِرعونَ: يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ [هود: 98]، وبقولِه: وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا [مريم: 86]، وكذلك قولُه تعالى: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا [الأنبياء: 99]).

((التخويف من النار)) (ص: 250).

ويُنظر: ((شرح العقيدة الواسطية)) لابن عثيمين (161/2).

وقال الشنقيطي: (مِن أنواعِ البَيانِ التي تضَمَّنَها [أي: تفسيرُه الأضواء]: الاستِدلالُ على أحَدِ المعاني الدَّاخِلةِ في معنى الآيةِ بكَونِه هو الغالِبَ في القُرآنِ، فغَلَبتُه فيه دَليلٌ استِقرائيٌّ على عدَمِ خُروجِه مِن مَعنى الآيةِ.

فإذا علِمْتَ ذلك فاعلَمْ أنَّ ابنَ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما استدَلَّ على المرادِ بورودِ النَّارِ في الآيةِ بمِثلِ ذلك الدَّليلِ الذي ذكَرْنا أنَّه مِن أنواعِ البَيانِ في هذا الكِتابِ المبارَكِ، وإيضاحُه أنَّ ورودَ النَّارِ جاء في القرآنِ في آياتٍ مُتعَدِّدةٍ، والمرادُ في كُلٍّ واحدةٍ منها الدُّخولُ، فاستدَلَّ بذلك ابنُ عبَّاسٍ على أنَّ الورودَ في الآيةِ التي فيها النِّزاعُ: هو الدُّخولُ؛ لدَلالةِ الآياتِ الأُخرى على ذلك).

((أضواء البيان)) (478/3).

وقال أيضًا: (أجاب مَن قال بأنَّ الوُرودَ في الآيةِ الدُّخولُ عن قَولِه تعالى: أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ [الأنبياء: 101] بأنَّهم مُبعَدون عن عَذابِها وألَمِها؛ فلا ينافي ذلك ورودَهم إيَّاها مِن غيرِ شُعورِهم بألَمٍ ولا حَرٍّ منها).

((أضواء البيان)) (480/3).

وقال الرسعني: (فإنْ قِيلَ: فما تصنَعُ بقولِه تعالى: إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا [الأنبياء:101-102]، وبقولِه: إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ [آل عمران: 192] ، والمؤمنون آمِنونَ مِن الخِزْيِ؟

قلتُ: لا يلزَمُ مِن وُرودِ النَّارِ على الوَجهِ الذي ذكَرْناه سَماعُ حَسيسِها ولا الدُّخولُ على وَجهِ الخِزيِ؛ فإنَّ ذلك إنَّما يكونُ إذا دخلَها دُخولَ تَعذيبٍ وخُلودٍ، لا دُخولَ وُرودٍ).

((تفسير الرسعني)) (452/4).

وقال ابنُ حَجر: (وهذانِ القَولانِ أصَحُّ ما ورد في ذلك، ولا تنافيَ بينَهما؛ لأنَّ مَن عَبَّرَ بالدُّخولِ تجَوَّزَ به عن المرورِ، ووَجهُه أنَّ المارَّ عليها فوقَ الصِّراطِ في معنى مَن دَخَلَها، لكِنْ تختَلِفُ أحوالُ المارَّةِ باختِلافِ أعمالِهم...

ويؤيِّدُ صِحَّةَ هذا التأويلِ: ما رواه مُسلِمٌ مِن حديثِ أمِّ مُبَشِّرٍ «أنَّ حَفصةَ قالت للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لَمَّا قال: لا يدخُلُ أحَدٌ شَهِدَ الحُدَيبيَةَ النَّارَ: أليس اللهُ يقولُ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا [مريم: 71] ؟! فقال لها: أليس اللهُ تعالى يقولُ: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا الآيةَ؟».

وفي هذا بيانُ ضَعفِ قَولِ مَن قال: الورودُ مختَصٌّ بالكُفَّارِ، ومن قال: معنى الورودِ: الدُّنُوُّ منها، ومن قال: معناه: الإشرافُ عليها، ومن قال: معنى وُرُودِها: ما يُصيبُ المؤمنَ في الدُّنيا مِنَ الحُمَّى، على أنَّ هذا الأخيرَ ليس ببَعيدٍ، ولا ينافيه بقيَّةُ الأحاديثِ.

واللهُ أعلَمُ).

((فتح الباري)) (124/3).

وقال ابن كثير: (وقال عبدُ الرحمن بنُ زيدِ بنِ أسلَمَ في قولِه: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا قال: ورودُ المسلمينَ: المرورُ على الجسرِ بينَ ظهريها، وورودُ المشركينَ أن يدخلوها).

((تفسير ابن كثير)) (256/5).

تنبيهٌ: قال ابنُ رجبٍ: (اعلَمْ أنَّ النَّاسَ مُنقَسِمونَ إلى مؤمنٍ يَعبُدُ اللهَ وَحدَه، ولا يُشرِكُ به شيئًا، ومُشرِكٍ يَعبُدُ مع اللهِ غَيرَه؛ فأمَّا المُشركونَ فإنَّهم لا يمُرُّونَ على الصِّراطِ، إنَّما يَقعونَ في النَّارِ قبلَ وَضعِ الصِّراطِ).

((التخويف من النار)) (ص: 235).

اختُلِف في المعنيّ بالخطاب في قوله: ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ على قولين: الأول: عامٌّ للمؤمنين والكافرين.

الثاني: خاصٌّ بالكافرين.

واختُلِف في الورود على أقوال: الأول: الدخول.

الثاني: الحضور.

الثالث: ورود المسلمين: المرور على الجسر، وورود المشركين: دخولها.

الرابع: ورود المؤمن إليها: ما يصيبه من الحمّى في الدنيا.

الخامس: الممر عليها، ثم يصدر الناس بأعمالهم.

عن أبي سعيدٍ الخُدريّ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيّ - ﷺ - قال: ((يؤتى بالجِسرِ فيُجعَلُ بين ظَهرَي جهنَّم. قُلنا: يا رسولَ اللهِ، وما الجِسرُ؟ قال: مَدحَضةٌ مَزِلَّةٌ،(114) عليه خطاطيفُ وكلاليبُ،(115) وحَسَكةٌ مُفلطحةٌ لها شوكةٌ عُقَيفاءُ(116) -تكونُ بنَجْدٍ، يقالُ لها: السَّعدان- المؤمِنُ عليها كالطَّرْفِ(117)

ورجَّح ابنُ جرير (١٥/ ٦٠١) مستندًا إلى السنة القولَ الأخير الذي قاله ابن مسعود من طريق مُرَّة، وابن عباس من طريق مجاهد، وجابر بن عبدالله، والحسن من طريق المبارك، فقال: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ مَن قال: يَرِدُها الجميعُ ثم يصدر عنها المؤمنون، فينجيهم الله، ويهوي فيها الكفار.

وورودُهموها: هو ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله - ﷺ - من مرورهم على الصراط المنصوب على متن جهنم، فناجٍ مُسَلَّم، ومُكَدَّس فيها».

(114) مَدحَضةٌ مَزِلَّةٌ: أي: تَزلَقُ عليه الأقدامُ ولا تَثبُتُ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (310/2).

(115) كلاليبُ: جَمعُ كَلُّوبٍ، وهو: حَديدةٌ مَعطوفةُ الرَّأسِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (21/3).

(116) حَسَكةٌ مُفَلطَحةٌ: شَوْكَة صُلبةٌ قَوِيَّة لَهَا عرضٌ واتِّساعٌ.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (105/1).

عُقَيفاء: أي: مُعْوجَّة.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (405/10).

(117) كالطَّرْفِ: أي: كلَمحِ البَصَرِ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (405/10).

وكالبَرقِ وكالرِّيحِ، وكأجاويدِ[118] الخَيلِ والرِّكابِ؛[119] فناجٍ مُسَلَّمٌ، وناجٍ مَخدوشٌ، ومَكدوسٌ[120] في نارِ جهنَّمَ، حتى يمُرَّ آخِرُهم يُسحَبُ سَحبًا)).[121]

وعن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي الله عنهما، قال: أخبَرَتني أمُّ مُبشِّر أنَّها سَمِعت النبيَّ - ﷺ - يقولُ عند حفصةَ: ((لا يدخُلُ النَّارَ -إن شاء اللهُ- من أصحابِ الشَّجرةِ أحَدُ الذين بايعوا تحتَها، قالت: بلى يا رسولَ اللهِ! فانتهَرَها، فقالت حفصةُ: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا، فقال النبيُّ - ﷺ -: قد قال اللهُ عزَّ وجَلَّ: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا)).[122]

وعن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِي اللهُ عنه، قال: قال رسولُ الله - ﷺ -: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يحيَونَ، ولكِنْ ناسٌ أصابَتهم النَّارُ بذُنوبِهم -أو قال: بخطاياهم- فأماتهم

---

(118) أجاويد الخيل: جَمعُ جَوادٍ، وهو الفَرَسُ السَّابِقُ الجيِّدُ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (405/10).
(119) الرِّكابُ: الإبِلُ، واحِدتُها الرَّاحِلةُ مِن غَيرِ لَفظِها.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (405/10).
(120) مكدوسٌ: أي: مَصروعٌ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (405/10).
(121) رواه البخاري (7439) واللفظ له، ومسلم (183).
(122) رواه مسلم (2496).

إماتةً، حتى إذا كانوا فَحمًا أُذِن بالشَّفاعةِ، فجيء بهم ضبائِرَ ضبائِرَ،[123] فبُثُّوا[124] على أنهارِ الجنَّةِ، ثمَّ قيل: يا أهلَ الجنَّةِ أفيضُوا عليهم، فيَنبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ[125] تكونُ في حَميلِ السَّيلِ))[126].[127]

وعن أبي هُريرةَ رَضِي الله عنه، عن النبيِّ – ﷺ – قال: ((لا يموتُ لمُسلمٍ ثلاثةٌ مِن الوَلَدِ فيَلِجَ النَّارَ، إلَّا تَحِلَّةَ القَسَمِ)،[128] قال أبو عبدِ اللهِ أي: البخاري: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا.[129]

كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا.

أي: كان ورودُكم النَّارَ أمرًا واجبًا لازمًا، قضَى الله تعالى أنَّه لا بُدَّ مِن وُقوعِه لا مَحالةَ، وحتَّمه على نفسِه.

---

(123) ضبائِرَ: أي: جَماعاتٍ متفرِّقةً.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (38/3).
(124) فبُثُّوا: أي: فُرِّقوا.
يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (38/3).
(125) الحِبَّة: اسمٌ جامِعٌ لحُبوبِ البُقولِ.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (406/10).
(126) حميلُ السيلِ: هو ما يجيءُ به السيلُ مِن طينٍ وغيرِه، فعيلٌ بمعنى مفعولٍ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (108/1).
(127) رواه مسلم (185).
(128) تَحِلَّةَ القَسَمِ: أي: تحليلَ اليمينِ.
يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (107/1).
(129) رواه البخاري (1251) واللفظ له، ومسلم (2632).

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (72).

ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا.

أي: ثمَّ نُخَلِّصُ الذين اتَّقوا اللهَ بامتِثالِ ما أمَرَ، واجتنابِ ما نهى، مِن النَّارِ بعدَ وُرودِ النَّاسِ إيَّاها.[130]

وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا.

أي: ونترُكُ الذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ والشِّركِ والمعاصي في النَّارِ بُروكًا على رُكَبِهم.

---

(130) قال ابنُ تيميَّةَ: (لَفظُ «النجاةِ مِنَ الشَّرِّ» يقتضي انعِقادَ سَبَبِ الشَّرِّ، لا نَفسَ حُصولِه في المُنجَّى؛ فقَولُه تعالى: ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا [مريم: 72] لا يقتضي أنَّهم كانوا مُعذَّبينَ ثمَّ نجَوا، لكِنْ يقتضي أنَّهم كانوا مُعَرَّضينَ للعذابِ الذي انعقَدَ سَببُه، وهذا هو الورودُ؛ فقَولُه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «لن يدخُلَ النَّارَ أحَدٌ بايعَ تحت الشَّجرةِ» لا يُنافي هذا الورودَ؛ فإنَّ مجرَّدَ الوُرودِ ليس بعذابٍ، بل هو تعريضٌ للعذابِ، وهو إنما نفى الدُّخولَ الذي هو العذابُ، لم يَنفِ التَّقريبَ مِن العذابِ، ولا انعِقادَ سَبَبِه، ولا الدُّخولَ على سَطحِ مكانِ العذابِ).
((درء تعارض العقل والنقل)) (51/7).
وقال ابن عاشور: (اتَّفق جميعُ المفَسِّرينَ على أنَّ المتَّقينَ لا تنالُهم نارُ جهنمَ).
((تفسير ابن عاشور)) (151/16).

سورةُ مَريمَ

الآيات (73–76)

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76)

غريب الكلمات:

مَقَامًا: أي: مَنزِلًا، وأصلُ (قوم): يدلُّ على الثَّباتِ.

نَدِيًّا: أي مجلِسًا، والنَّديُّ والنَّادي: مجتمَعُ القومِ ومجلسُهم، فإذا تفرَّقوا فليس بِنَدِيٍّ، يقال: نَدَوْتُ القوم، أَنْدُوهم، نَدْوًا: إذا جمعتَهم، وأصلُ (ندي) هنا: يدُلُّ على تَجَمُّعٍ.

قَرْنٍ: أي: قومٍ وأُمَّة مِن الناسِ مُقترِنِينَ في زمَنٍ واحدٍ، ويُطلَقُ القرنُ كذلك على الزَّمانِ، وأهلِ الزمانِ، وأهلِ مُدَّةٍ كان فيها نبيٌّ، أو كان فيها طَبقةٌ مِن أهلِ العِلمِ، قلَّت السِّنون أو كثُرتْ؛ وقيل: مُدَّتُه ثمانونَ سَنةً، وقيل غيرُ ذلك، وأصلُ (قرن) هنا: يدلُّ على جمْعِ شيءٍ إلى شيءٍ.

أَثَاثًا: الأثاثُ: مَتاعُ البيتِ، ويُقالُ للمالِ كلِّه إذا كثُر: أثاثٌ، وأصلُ (أثَّ): يدلُّ على كَثرةٍ وتكاثُفٍ.

وَرِئْيًا: أي: مَنظرًا وشكلًا، وهو مِن رؤيةِ العينِ، وأصلُ (رأى): يدلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرةٍ.

فَلْيَمْدُدْ: أي: يُمهِلْ، ويُملِ، ويَمُدَّ، وأصلُ (مدد): يدلُّ على جَرِّ شيءٍ فِي طُولٍ، واتِّصالِ شَيءٍ بشَيءٍ في استِطالةٍ.

مَرَدًّا: أي: مَرجِعًا وعاقِبةً، وأصلُ (ردد): يدلُّ على رَجعِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (73).

أي: وإذا تُتلى على النَّاسِ آياتُ القُرآنِ، والحالُ أنَّها دلالاتٌ واضِحاتٌ لا مِريةَ فيها، قال الكافِرونَ للمُؤمِنينَ[131] محتَجِّينَ على بُطلانِها، وكونِهم على الحَقِّ، مُفتَخِرينَ عليهم ومتعَزِّزينَ بالدُّنيا: أيُّ الفريقينِ خَيرٌ مَنزِلًا، وأفضَلُ مَسكنًا وعَيشًا ومتاعًا، وأحسَنُ مجلسًا ومجْمَعًا، وأعمَرُ وأكثَرُ غِشيانًا ووُرُودًا؟ نحن بما لنا من الاتِّساعِ، أم أنتم بما لكم من خُشونةِ العَيشِ ورَثاثةِ الحالِ؟! فكيف نكونُ على الباطِلِ وأنتم على الحَقِّ، ونحن أفضَلُ منكم في ذلك؟![132]

(131) قال الشـنقيطي: (لا خلافَ أنَّ مَقصـودَهم بالاسـتفهامِ المذكورِ أنهم -أي: كفَّار قريش- خيرٌ مَقامًا وأحسَـنُ نَدِيًّا من أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وأنَّ ذلك هو دليلُهم على أنَّهم على الحَقِّ، وأنَّهم أكرَمُ على الله من المُسلِمينَ).
((أضواء البيان)) (3/483، 484).

(132) قال الشنقيطي أيضًا: (الظَّاهِرُ فيه أنَّ وَجهَ ذِكْرِهم للمَقامِ والنَّديِّ: أنَّ المَقامَ: هو محلُّ السُّكنى الخاصُّ لكُلِّ واحدٍ منهم، والنَّدِيُّ: محَلُّ اجتماعِ بَعضِهم ببعضٍ، فإذا كان كلٌّ منهما للكُفَّارِ أحسَنَ مِن نظيرِه عند المُسلِمينَ، دَلَّ ذلك على أنَّ نَصيبَهم في الدُّنيا أوفَرُ مِن نَصيبِ أصحابِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في ذلك الوقتِ).
((أضواء البيان)) (3/486).

وقال البقاعي: (يجعلون ذلك الامتحانَ بالإنعامِ والإحسـانِ دليلًا على رضـا الرحمنِ، معَ التكذيبِ والكفرانِ، ويغفلون عن أنَّ في ذلك -مع التكذيبِ بالبعثِ- تكذيبًا مما يشـاهدونه منا مِن القدرةِ على العذابِ؛ بإحلالِ النقمِ، وسـلبِ النعمِ، ولو شِـئْنا لأهلكناهم، وسلَبْنا جميعَ ما يفتخرون به).
((نظم الدرر)) (12/238).

كما قال تعالى: وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا [الأنعام: 53].

وقال سُبحانَه: أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ [المؤمنون: 55– 56].

وقال عزَّ وجلَّ: وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ [سبأ: 35].

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (74).

أي: وأهلَكْنا قبل كفَّارِ قُرَيشٍ كثيرًا من كفَّارِ الأُمَمِ الماضيةِ، وكانوا أحسَنَ منهم في أمتعةِ مساكِنِهم، وأجمَلَ في مَنظَرِهم وصُوَرِهم، ومع ذلك أهلَكَهم اللهُ بسَبَبِ كُفرِهم؛ فلْيَخَفْ هؤلاء المُشرِكونَ نِقمةَ اللهِ بالإهلاكِ، كسُنَّةِ مَن قَبلَهم مِن الكُفَّارِ.(133)

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75).

---

(133) قال ابنُ كثير: (منهم من قال في الأثاثِ: هو المالُ.
ومنهم من قال: المتاعُ.
ومنهم من قال: الثِّيابُ.
والرِّئْيُ: المنظَرُ، كما قال ابنُ عباس، ومجاهد، وغيرُ واحد.
وقال الحسَنُ البصري: يعني: الصُّوَرَ.
وكذا قال مالك: أَثَاثًا وَرِئْيًا: أكثَرُ أموالًا وأحسَنُ صُوَرًا.
والكُلُّ مُتقارِبٌ صَحيحٌ).
((تفسير ابن كثير)) (5/257–258).

قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا.

أي: قُلْ –يا محمَّدُ– لهؤلاء المُشرِكينَ: من كان مُنغَمِسًا في الضَّلالِ منَّا ومنكم، فلْيُمهِلْه اللهُ في ضلالِه، ويَزِدْه مِن النِّعَمِ والعُمُرِ؛ ليطولَ اغترارُه، ويزدادَ ضلالُه، فيكون ذلك أشَدَّ في عقوبتِه.(134)

حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ.

أي: مَن كان في الضَّلالةِ فلْيَمدُدْ له الرَّحمنُ في ضلالتِه إلى أن يرى الضالُّونَ ما وعَدَ اللهُ أن يأتيَهم به: إمَّا بالعذابِ العاجِلِ، وإمَّا بقيامِ السَّاعةِ، فيَصيرونَ إلى النَّارِ.

---

(134) قال الشنقيطي: (في معنَى هذه الآيةِ الكريمةِ وجهانِ مِن التَّفسيرِ معروفانِ عندَ العلماءِ، وكلاهما يشهدُ له قرآنٌ: الأوَّلُ: أنَّ اللهَ جلَّ وعلا أمَر نَبيَّه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في هذه الآيةِ الكريمةِ أن يقولَ هذه الكلماتِ كدعاءِ المباهلةِ بينَه وبينَ المشركينَ، وإيضاحُ معناه: قُلْ يا نبيَّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لهؤلاءِ المشركِينَ الَّذين ادَّعَوْا أنَّهم خيرٌ منكم، وأنَّ الدَّليلَ على ذلك أنَّهم خيرٌ منكم مقامًا وأحسَنُ منكم نَدِيًّا: مَنْ كَانَ منَّا ومنكم فِي الضَّلَالَةِ –أي: الكفرِ والضَّلالِ عن طريقِ الحقِّ– فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا، أيْ: فأمهلَه الرَّحمنُ إمهالًا فيما هو فيه حتَّى يستدرِجَه بالإمهالِ، ويموتَ على ذلك، ولا يرجعَ عنه، بل يستمِرَّ على ذلك حتَّى يرَى ما يُوعِدُه اللهُ، ...
وعلى ذلك التَّفسيرِ فصيغةُ الطَّلَبِ المدلولُ عليها باللَّامِ في قولِه: فَلْيَمْدُدْ على بابِها، وعليه فهي لامُ الدُّعاءِ بالإمهالِ في الضَّلالِ على الضَّالِّ مِن الفريقينِ، حتَّى يرَى ما يُوعِدُه مِن الشَّرِّ وهو على أقبحِ حالٍ مِن الكفرِ والضَّلالِ، ...
الوجهُ الثَّاني: أنَّ صيغةَ الطَّلَبِ في قولِه: فَلْيَمْدُدْ، يُرادُ بها الإخبارُ عن سُنَّةِ اللهِ في الضَّالِّينَ، وعليه فالمعنَى: أنَّ اللهَ أجرَى العادةَ بأنَّه يُمْهِلُ الضَّالَّ، ويُمْلي له فيستدْرِجُه بذلك، حتَّى يرَى ما يُوعِدُه، وهو في غفلةٍ وكفرٍ وضلالٍ).
((أضواء البيان)) (487/3).

فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا.

أي: فسيَعلَمُ الكُفَّارُ حين يَرَونَ ذلك مَن هو شَرٌّ مَسكَنًا، ومَن هو أضعَفُ ناصِرًا: هم أم المؤمِنونَ، وسيتبيَّنُ لهم خِلافُ ما كانوا يظنُّونَ، وبُطلانُ ما كانوا يدَّعونَ.(135)

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (76).

وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى.

أي: ويزيدُ اللهُ المهتدينَ يقينًا وإيمانًا، وعلمًا نافعًا وتوفيقًا للعمل الصَّالح، وثباتًا على الحَقِّ.

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ [محمد: 17].

وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا.

أي: وأعمالُ الخيرِ الصَّالحةُ –التي لا زوالَ لثوابِها مِن أقوالٍ وأفعالٍ– أفضَلُ جزاءً عندَ اللهِ لأهلِ طاعتِه، وهي خيرٌ مَرجِعًا وعاقبةً لصاحبِها في الآخرةِ، مِمَّا يفتخِرُ به الكُفَّارُ على المُؤمِنينَ مِن زينةِ الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ.

---

(135) قال الشنقيطي: (قولُه: شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا في مقابلةِ قولِهم: خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا؛ لأنَّ مَقامَهم هو مكانُهم ومَسكَنُهم، والنَّديُّ: المجلِسُ الجامعُ لوجوهِ قومِهم وأعوانِهم وأنصارِهم، والجندُ هم الأنصارُ والأعوانُ، فالمقابلةُ المذكورةُ ظاهِرةٌ).

((أضواء البيان)) (488/3).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (144/11).

كما قال تعالى: وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا [الكهف: 46].

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ رَسولَ اللهِ – ﷺ – قال: ((سُبحانَ اللهِ، والحَمدُ للهِ، ولا إلهَ إلَّا اللهُ، واللهُ أكبَرُ مِن الباقياتِ الصَّالحاتِ)).(136)

(136) أخرجه ابن جرير في ((التفسير)) (34/18).
صحَّحه الألباني بشواهده في ((سلسلة الأحاديث الصحيحة)) (3264).

سورةُ مَريَمَ

الآيات (77–84)

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ
عَهْدًا (78) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79) وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا
فَرْدًا (80) وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ
وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83) فَلَا
تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84)

غريب الكلمات:

تَؤُزُّهُمْ أَزًّا: أي: تُغويهم إغواءً، وتُزعِجُهم إزعاجًا، وتحرِّكهم، وأصلُ (أزز): يدُلُّ على التَّحريكِ والإزعاجِ.

تفسير الآيات:

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77).

سَبَبُ النُّزولِ:

عن خَبَّابِ بنِ الأرَتِّ رَضِيَ الله عنه، قال: (جئتُ العاصَ بنَ وائلٍ السَّهميَّ أتقاضاه حقًّا لي عندَه، فقال: لا أُعْطيك حتى تَكفُرَ بمُحمَّدٍ – ﷺ –، فقلتُ: لا حتى تموتَ ثمَّ تُبعَثَ، قال: وإنِّي لميتٌ ثمَّ مَبعوثٌ؟! قلتُ: نعم، قال: إنَّ لي هناك مالًا وولدًا فأقضيكه! فنزلت هذه الآيةُ: أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا).[137]

(137) رواه البخاري (4732) واللفظ له، ومسلم (2795).

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا (77).

أي: انظُرْ مُتعَجِّبًا -يا محمَّدُ [138]- إلى هذا الذي كفَرَ بآياتِ القُرآنِ، وقال: واللهِ ليعطيَنِّي اللهُ في الآخرةِ -على تقديرِ قيامِها- مالًا وأولادًا، مع كُفرِه باللهِ وتكذيبِه بآياتِه، ومِن جُملتِها آياتُ البعثِ بعدَ الموتِ؟![139]

أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (78).

أي: هل عَلِمَ هذا الكافِرُ -المتألِّي على اللهِ- عِلمَ الغَيبِ، فعَلِمَ أنَّ له في الآخرة مالًا وولدًا، أم له عهدٌ عند اللهِ بأنَّه سيعطيه ذلك؟!

---

(138) ممن اختار أنَّ الخطابَ للنبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم: ابنُ جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (617/15).
وقيل: الخِطابُ لكُلِّ مَن يصلُحُ للخطابِ، فلم يُرَدْ به مُعَيَّنٌ.
وممن قال بذلك: ابن عاشور.
وجوَّز أن يكون خطابًا للنبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم.
يُنظر: ((تفسير ابن عاشور)) (159/16).
(139) قال السعدي: (هذه الآيةُ، وإن كانت نازلةً في كافرٍ مُعَيَّن، فإنَّها تشمَلُ كُلَّ كافرٍ زعَم أنَّه على الحَقِّ، وأنَّه مِن أهلِ الجنَّة).
((تفسير السعدي)) (ص: 500).

كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا (79).

كَلَّا.

أي: ليس الأمرُ على ما قالَ هذا الكافرُ مِن أنَّه يُؤْتَى المالَ والولدَ؛ فهو مخطِئٌ فيما يقولُه ويتمَنَّاه.

سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ.

أي: ستَكتُبُ الملائكةُ الحَفَظةُ بأمْرِنا ما يقولُ هذا الكافِرُ المفتري على اللهِ أنَّه سيُعطيه في الآخرةِ مالًا وولدًا، وسنُجازيه في الآخرةِ على كَذِبِه وكُفرِه.

كما قال تعالى: قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ [يونس: 21].

وقال سُبحانه: أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ [الزخرف: 80].

وقال عزَّ وجلَّ: كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ * وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ [الانفطار: 9 – 12].

وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا.

أي: ونزيدُ هذا الكافِرَ في الآخرةِ عذابًا زائدًا؛ بسَبَبِ قَولِه الكَذِبَ على ربِّه.(140)

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس: 69، 70].

وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (80).

أي: ونَسلُبُ مالَه وولَدَه في الدُّنيا بموتِه عن جميعِ ذلك، فيصيرُ ذلك إلينا دونَه، ويأتينا يومَ القيامةِ وَحدَه لا مالَ معه ولا ولَدَ.(141)

كما قال تعالى: إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ [مريم: 40].

وقال سُبحانه: إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا * لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا * وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا [مريم: 93 – 95].

---

(140) وقال البقاعي: (وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا باستدراجِه بأسبابِه مِن كثرةِ النِّعَمِ، مِن الأموالِ والأولادِ المحَبَّبةِ له في الدنيا، المعَذِّبةِ له فيها بالكدحِ في جمعِها، والمُخاصَمةِ عليها المُوجِبةِ له التَّمادي في الكُفرِ المُوجِبِ لعذابِ الآخرةِ؛ وإتيانِ بَعضِه في إثرِ بَعضٍ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ [التوبة: 85]).
((نظم الدرر)) (243/12).

(141) وقيل: نحرِمُه ما تمنَّاهُ في الآخرةِ مِن مالٍ وولَدٍ، ونجعلُه لغيرِه مِن المسلمينَ.
يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (148/11).

وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (81).

أي: واتخذَ المُشرِكونَ أوثانًا يَعبُدونَها مِن دونِ اللهِ؛ مِن أجلِ أن ينالوا بها العِزَّ، وتمنَعَهم مِن عذابِ اللهِ، وتُقرِّبَهم إليه، وتنصُرَهم، وتشفَعَ لهم.

كما قال تعالى: وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ [يونس: 18].

وقال سُبحانه: وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آَلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ [يس: 74].

وقال عزَّ وجلَّ: وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى [الزمر: 3].

كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (82).

كَلَّا.

أي: ليس الأمرُ كما ظنُّوا مِن أنَّ آلهتَهم تكونُ لهم عِزًّا؛ فهي لا تستطيعُ أن تمنَعَهم من العذابِ، أو تنصُرَهم، أو تشفَعَ لهم، أو تقرِّبَهم إلى اللهِ.

كما قال تعالى: أَمْ لَهُمْ آَلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ [الأنبياء: 43].

سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا.

أي: ولكن ستَكفُرُ تلك المعبوداتُ يومَ القيامةِ بعبادةِ المُشرِكِينَ لها، وتتبرَّأُ منهم، وتكونُ بخلافِ ما ظنُّوا فيهم، فتكونُ أعوانًا عليهم في خصومتِهم وتكذيبِهم والتبرؤِ منهم، ويؤولُ بهم ذلك إلى الذلِّ والهوانِ!

كما قال تعالى: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ * وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ [النحل: 86، 87].

وقال سُبحانه: وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ * فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ [يونس: 28، 29].

وقال عزَّ وجلَّ: وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا * فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا [الفرقان: 17 – 19].

وقال تبارك وتعالى: وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ * قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ * وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ [القصص: 62–64].

وقال سُبحانه: وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ [فاطر: 13–14].

وقال تعالى: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ * وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ [الأحقاف: 5–6].

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (83).

أي: ألم تَرَ –(142)يا محمَّدُ– أنَّا سلَّطْنا الشَّياطينَ على الكافرينَ باللهِ، فتهيِّجُهم بالإغواءِ والتَّزيينِ إلى الكُفرِ والمعاصي، وتُزعِجُهم إليها إزعاجًا؟

كما قال تعالى: وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ [فصلت: 25].

---

(142) قال ابنُ عطية: (الرؤيةُ في الآيةِ رؤيةُ القلبِ).
((تفسير ابن عطية)) (32/4).

وقال سُبحانَه: وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ * وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ [الزخرف: 36، 37].

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (84).

فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ.

أي: فلا تَستعجِلْ -يا مُحمَّدُ- بطَلَبِ وُقوعِ الهلاكِ والعذابِ على أولئك الكافرينَ.(143)

كما قال تعالى: وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ * فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ [الأحقاف: 34، 35].

---

(143) وممَّن اختار هذا المعنى المذكورَ في الجملة: ابنُ كثير، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (147/3).

وقيل: المرادُ: ونحن نَعُدُّ أعمالَهم كلَّها ونُحصيها حتى أنفاسَهم؛ لنُجازيَهم على جميعِها، ونؤخِّرُ إهلاكَهم ليزدادوا إثمًا، ولم نَترُك تعجيلَ هلاكِهم لخيرٍ أردناه بهم.

وممَّن اختار هذا المعنى: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (628/15).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وطاوس، ومقاتل، وأبو جعفر محمد بنُ علي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (639/2)، ((تفسير ابن جرير)) (628/15)، ((تفسير ابن الجوزي)) (147/3)، ((الدر المنثور)) للسيوطي (538/5).

إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا.

أي: إنَّما نَعُدُّ الأعوامَ والشُّهورَ والأيَّامَ، فنُمهِلُهم ونؤخِّرُ تَعذيبَهم إلى أجَلٍ معدودٍ مَضبوطٍ، فإذا جاءَ الوقتُ المحدَّدُ لذلك أهلَكْناهم.

سورةُ مَريمَ

الآيات (85-95)

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85) وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86) لَا
يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87) وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88) لَقَدْ
جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90)
أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92) إِنْ كُلُّ مَنْ فِي
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94) وَكُلُّهُمْ
آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95)

غريب الكلمات:

وَفْدًا: أي: رُكبانًا، واحِدُهم وافِدٌ، فالوافدُ في الغالبِ يكونُ راكِبًا، يُقالُ: وَفَدتُ على فُلانٍ: إذا قَدِمتَ عليه، وأصلُ (وفد): يدُلُّ على إشرافٍ وطُلوعٍ.

وِرْدًا: أي: مُشاةً عِطاشًا، وأصلُه: الورودُ على الماءِ، والواردُ على الماءِ يكونُ عطشانَ، وأصلُ (ورد): يدلُّ على المُوافاةِ إلى الشَّيءِ.

إِدًّا: أي: عَظيمًا مُنكرًا، وأصلُ (أدد): يدُلُّ على عِظَمِ الشَّيءِ وشِدَّتِه.

يَتَفَطَّرْنَ: أي: يتشَقَّقْنَ ويَتصدَّعْنَ، وأصلُ (فطر): يدلُّ على فَتحِ شَيءٍ، وإبرازِه.

وَتَخِرُّ: أي: تَسقُطُ، وأصلُ (خرر): يدلُّ على اضطرابٍ، وسُقوطٍ مع صَوتٍ.

هَدًّا: الهَدُّ: الهدمُ له وقعٌ، وسُقوطُ شَيءٍ ثَقيلٍ، وأصلُ (هدد): يدُلُّ على كَسرٍ وهَدمٍ.

تفسير الآيات:

يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (85).

أي: اذكُرْ –يا محمَّدُ– يومَ القيامةِ حين نجمعُ الذين اتَّقوا اللهَ بامتثالِ ما أمرَ، واجتنابِ ما نهى، فنقودُهم إلى الرَّحمنِ راكبينَ في رِفعةٍ وعلوٍّ، فيَقدَمونَ إلى جنَّتِه، ومحلِّ ضِيافتِه، ودارِ كرامتِه ورِضوانِه.

كما قال تعالى: وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا [الزمر: 73].

وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا (86).

أي: ونسوقُ الكُفَّارَ والعُصاةَ إلى جهنَّمَ عِطاشًا مُشاةً؛ إذلالًا لهم.

عن أبي سَعيدٍ الخُدريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّ النبيَّ – ﷺ – قال: ((إذا كان يومُ القيامةِ أذَّنَ مُؤذِّنٌ: تتبعُ كُلُّ أمَّةٍ ما كانت تعبُدُ، فلا يبقى مَن كان يعبُدُ غيرَ اللهِ، مِن الأصنامِ والأنصابِ إلَّا يتساقطونَ في النَّارِ، حتى إذا لم يبقَ إلَّا مَن كان يعبُدُ اللهَ، بَرٌّ أو فاجِرٌ وغُبَّراتُ أهلِ الكِتابِ، فيُدعَى اليهودُ فيُقالُ لهم: مَن كنتم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ عزيرَ ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم؛ ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فماذا تبغونَ؟ فقالوا: عَطِشْنا ربَّنا فاسْقِنا، فيُشارُ ألا ترِدونَ؟ فيُحشَرونَ إلى النَّارِ كأنَّها سرابٌ يَحطِمُ(144) بَعضُها بعضًا، فيتَساقَطونَ في النَّارِ، ثم يُدعَى النَّصارى، فيُقالُ لهم: مَن كنتُم تعبُدونَ؟ قالوا: كنَّا نعبُدُ

(144) يحطِمُ بَعضُها بَعضًا: أي: يَكسِرُ؛ لشِدَّةِ اتِّقادِها، وتلاطُمِ أمواجِ لَهَبِها.
يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (82/7).

المسيحَ ابنَ اللهِ! فيُقالُ لهم: كذبتُم، ما اتخذَ اللهُ مِن صاحبةٍ ولا ولدٍ، فيُقالُ لهم: ماذا تبغونَ؟ فكذلك مِثل الأوَّلِ...)).[145]

لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (87).

أي: ليس للكافرينَ مِن الشَّفاعةِ شَيءٌ يومَ القيامةِ، فلا يَشفَعونَ لأحَدٍ، ولا يستَحِقُّونَ أن يشفَعَ لهم أحدٌ، لكنْ من كان مؤمِنًا باللهِ موحِّدًا ومطيعًا له؛ فإنَّه يشفعُ لِغَيرِه، وينتَفِعُ بشَفاعةِ غَيرِه له.[146]

كما قال تعالى: مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ [غافر: 18].

---

(145) رواه البخاري (4581) واللفظ له، ومسلم (183).

(146) اختُلِف في عود الضمير في قوله: ﴿لا يملكون﴾؛ فقيل بعوده على المجرمين أي: لا يملكون أن يُشفع لهم ولا سبيل لهم إليها.

وقيل: بعوده على المتقين، وفيه وجهان: أحدهما أي: إلا مَن كان له عمل صالح مبرز يحصل به في حيز من يشفع، و﴿مَن﴾ على هذا للشافعين.

والآخر: إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهدًا، و﴿مَن﴾ على هذا للمشفوع فيهم.

وذكر ابنُ عطية (٦/ ٦٩ – ٧١) أنه بعود الضمير على المجرمين يكون المراد به: المشركون خاصة، ويكون قوله: ﴿إلا من اتخذ عند الرحمن عهدًا﴾ استثناء منقطعًا، أي: لكن مَن اتخذ عهدًا يشفع له.

والعهد على هذا: الإيمان، ثم بين أنه يحتمل أن يكون «المجرمون» يعم الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم ﴿لا يملكون الشفاعة﴾ إلا العصاة المؤمنون؛ فإنهم يشفع فيهم، فيكون الاستثناء متصلًا.

وبنحوه ابنُ جرير (١٥/ ٦٣٢ – ٦٣٥).

وذكر ابنُ عطية احتمالًا آخر، فقال: «وتحتمل الآية أن يراد بـ ﴿مَن﴾: محمد – ﷺ –، وبـ ﴿الشفاعة﴾: الخاصة له – ﷺ – لعامة للناس، ويكون الضمير في ﴿يَمْلِكُونَ﴾ لجميع أهل الموقف، ألا ترى أن سائر الأنبياء يتدافعون الشفاعة حتى تصير إليه فيقوم إليها – ﷺ –، فالعهد –على هذا– النص على أمر الشفاعة في قوله تعالى: ﴿عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]».

وقال سُبحانه: فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ [المدثر: 48].

وقال تعالى: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ [الزخرف: 86].

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا [طه: 109].

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (88).

أي: وقال هؤلاء الكافِرونَ: اتَّخذَ الرَّحمنُ ولدًا له!

لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (89).

أي: لقد قلتُم قولًا عَظيمًا مُنكَرًا، بافترائِكم على اللهِ أنَّ له ولدًا.

كما قال تعالى: أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا [الإسراء: 40].

وقال سُبحانه: وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا [الكهف: 4-5].

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (90).

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ.

أي: تكاد السَّمواتُ على عَظَمتِها وإحكامِها تتشَقَّقُ قِطَعًا عند سماعِها ذلك القَولَ العَظيمَ المنكَرَ؛ إعظامًا للرَّبِّ، وإجلالًا له سُبحانَه.

وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ.

أي: وتكادُ الأرضُ تتصَدَّعُ؛ تعظيمًا لله سُبحانَه.

وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا.

أي: وتكادُ الجِبالُ على صلابتِها تسقُطُ سَريعًا، فتندَكُّ وتتفَتَّتُ.

أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (91).

أي: من أجلِ أنَّ المُشرِكينَ نَسَبوا للرَّحمنِ ولَدًا.

وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (92).

أي: وما يصِحُّ ولا يليقُ بالرَّحمنِ أن يتَّخِذَ ولَدًا؛ فلا مِثلَ له مِن خَلقِه، ولا احتياجَ له إليهم؛ فجميعُ الخلائقِ عَبيدٌ له، وهو الغنيُّ الحميدُ.

كما قال تعالى: وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ [البقرة: 116].

وقال سُبحانه: مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ [مريم: 35].

وقال عزَّ وجَلَّ: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ [الإخلاص: 1 – 4].

وعنِ ابنِ عباس رضي الله عنهما، عن النبي – ﷺ – قال: ((قال اللهُ: كَذَّبني ابنُ آدَمَ، ولم يكنْ له ذلك، وشتَمَني، ولم يكنْ له ذلك! فأمَّا تكذيبُه إيَّاي فزَعَم أنِّي لا أقدِرُ أن أُعيدَه كما كان، وأمَّا شَتمُه إيَّاي فقولُه: لي ولدٌ، فسُبحاني أن أتخِذَ صاحِبةً أو ولدًا!)).(147)

إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (93).

أي: ما مِن أحدٍ مِن أهلِ السَّمواتِ ومَن أهلِ الأرضِ إلَّا سيأتي إلى الرَّحمنِ يومَ القيامةِ ذَليلًا خاضِعًا، مقِرًّا له بعبوديَّتِه، فكيف يكونُ أحدٌ مِن خَلقِه ولدًا له، والحالُ أنَّ الجميعَ مِلكُه وعَبيدُه، يتصَرَّفُ فيهم كما يشاءُ؟ أمَّا هم فليس لهم من المُلكِ والتصَرُّفِ شيءٌ!

لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (94).

أي: لقد أحصى الرَّحمنُ عَدَدَ خَلْقِه كُلِّهم؛ ذَكَرِهم وأُنثاهم، وصَغيرِهم وكبيرِهم، فلا يخفَى عليه أحَدٌ منهم.

---

(147) رواه البخاري (4482).

وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (95).

أي: وكُلُّ واحدٍ مِن الخلائِقِ سيأتي إلى اللهِ يومَ القيامةِ بعدَ بَعثِه مِن الموتِ وَحيدًا، لا أولادَ معه، ولا مالَ له، ولا أنصارَ، ليس معه إلا عَمَلُه، فيقضي اللهُ فيه بحُكمِه، ويُجازيه، ويوَفِّيه حسابَه، فكيف يُتصوَّرُ في بالٍ أو يَقعُ في خيالٍ أن يكونَ شَيءٌ مِن خَلْقِه وعَبيدِه له ولدًا، أو معه شريكًا؟![148]

كما قال تعالى: وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ [الأنعام: 94].

(148) قال ابنُ عاشـــور: (معنى وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا إبطالُ ما لأجْلِه قالوا: اتَّخَذَ اللهُ ولدًا؛ لأنَّهم زَعَموا ذلك مُوجِبَ عِبادتِهم للمَلائكةِ والجِنِّ؛ لِيَكونوا شُفَعاءَهم عندَ الله، فأيأَسهم اللهُ مِن ذلك بأنَّ كُلَّ واحدٍ يأتي يومَ القيامةِ مُفرَدًا لا نَصيرَ له). ((تفسير ابن عاشور)) (174/16).

سورةُ مَريَمَ

الآيات (96–98)

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96) فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ
لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ
أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98)

غريب الكلمات:

وُدًّا: أي: محبَّةً، والوُدُّ: محبَّةُ الشيءِ، وتمنِّي كونِه، وأصلُ (ودد): يدلُّ على محبَّةٍ.

لُدًّا: اللُّدُّ: جمعُ ألَدَّ، وهو الخَصِمُ الجَدِلُ، شَدِيدُ الخُصومةِ، وأصلُ (لدد): يدُلُّ على خِصامٍ.

تُحِسُّ: أي: ترَى، وتجِدُ، وتعلمُ، والإحساسُ: العلمُ بإحدَى الحواسِّ، وأَحْسَسْتُه: أدركتُه بحاسَّتي.

رِكْزًا: أي: صَوتًا خَفِيًّا لا يُفهَمُ، وأصلُ (ركز): يدلُّ على صوتٍ.

تفسير الآيات:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (96).

أي: إنَّ الذين آمنوا باللهِ ورُسُلِه وبما جاؤوا به مِن عندِ اللهِ، وعَمِلوا الأعمالَ الصَّالحةَ: [149] يُحبُّهم اللهُ، ويجعلُ لهم في الدُّنيا محبَّةً في قلوبِ عِبادِه.[150]

---

(149) قال ابن كثير: (هي الأعمالُ التي ترضي اللهَ عَزَّ وجَلَّ؛ لمتابعتِها الشَّريعةَ المحمَّديَّةَ).

((تفسير ابن كثير)) (267/5).

(150) قال الشوكاني: (وُدًّا أي: حُبًّا في قلوبِ عبادِه، يجعلُه لهم مِن دونِ أنْ يَطْلُبوه بالأسبابِ الَّتي تُوجِبُ ذلك).

((تفسير الشوكاني)) (417/3).

وممن اختار أنَّ المرادَ بالودِّ: المحبةُ في قلوبِ العبادِ: القرطبي، وابنُ جُزي، وابنُ رجبٍ، والشوكاني، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (160/11)، ((تفسير ابن جزي)) (486/1)، ((مجموع رسائل ابن رجب)) (95/1)، ((تفسير الشوكاني)) (417/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 501)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (517/3).

وممن قال مِن السلف: إنها محبةٌ في قلوبِ الناسِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (642/15).

وذكَر ابنُ جرير، وابنُ كثير، والقاسمي أنها محبةٌ في قلوبِ عبادِه المؤمنين.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (642/15)، ((تفسير ابن كثير)) (267/5)، ((تفسير القاسمي)) (115/7).

وممن قال بنحوِ ذلك مِن السلفِ: ابن عباس -في رواية- ومجاهدٌ، وقتادةُ، وهرم بنُ حيان.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (642/15، 643).

قال ابنُ عطية: (وقوله: سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ذهَب أكثرُ المفسِّرين إلى أنَّ هذا هو القبولُ الذي يضعُه الله لمن يحبُّ مِن عبادِه).

((تفسير ابن عطية)) (34/4).

وذهَب ابنُ تيمية إلى أنَّ المرادَ أنَّ الله يحبُّهم؛ ويحببُهم إلى عبادِه.

يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) (232/15).

وممن قال بذلك مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ -في رواية-، ومجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (643/15).

وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ السياقَ يقتضي وقوعَ تلك المحبةِ في الآخرةِ، فيجعلُ الله للمؤمنين محبةً لبعضِهم بعضًا، وتحبُّهم الملائكةُ.

عن أبي هُريرةَ رَضِـــيَ الله عنه، قال: قال رســـولُ الله – ﷺ –: ((إنَّ اللهَ إذا أحبَّ عبدًا دعا جبريلَ فقال: إنِّي أحبُّ فلانًا فأحِبَّه، فيُحِبُّه جبريلُ، ثمَّ ينادي في السَّـــماءِ فيقولُ: إنَّ اللهَ يحبُّ فلانًا فأحِبُّوه، فيُحِبُّه أهلُ السَّـــماءِ، ثمَّ يُوضَـعُ له القَبولُ في الأرضِ، وإذا أبغَضَ عبدًا دعا جبريلَ فيقولُ: إنِّي أُبغِضُ فُلانًا فأبغِضْه، فيُبغِضُه جِبريلُ، ثمَّ ينادي في أهلِ السَّماءِ: إنَّ اللهَ يُبغِضُ فُلانًا فأبغِضوه، فيُبغِضونَه، ثمَّ تُوضَعُ له البَغضاءُ في الأرضِ)).(151)

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (97).

فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ.

أي: فإنَّما يسَّرْنا القرآنَ بلُغتِك العربيَّةِ –يا محمَّدُ– وسهَّلْنا قراءةَ ألفاظِه، وفَهْمَ معانيه؛ لتبشِّرَ بالقرآنِ الذين يمتَثِلونَ الأوامِرَ، ويجتَنِبونَ النَّواهيَ بأنَّ لهم الجنَّةَ في الآخرةِ، والعزَّ في الدُّنيا.

كما قال تعالى: فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ [الدخان: 58].

قال ابنُ عاشـور: (يقتضـي اتِّصـالُ الآياتِ بَعضِـها ببعضٍ في المعاني أنَّ هذه الآيةَ وَصـفٌ لحالِ المؤمنينَ يومَ القيامةِ بضِـدِّ حالِ المُشركِينَ؛ فيكونُ حالُ إتيانِهم غيرَ حالِ انفرادٍ، بل حالُ تأنُّسِ بَعضِهم ببَعضٍ...

وأنَّهم يكونون يومَئذٍ بمَقامِ المودَّةِ والتَّبجيلِ.

فالمعنى: سيَجعَلُ لهم الرَّحمنُ أودَّاءَ مِن الملائكةِ، كما قال تعالى: نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ [فصلت: 31] ، ويجعَلُ بين أنفُسِهم مودَّةً، كما قال تعالى: وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ [الأعراف: 43] .

وإيثارُ المصدرِ؛ ليفيَ بعِدَّةِ متعلّقاتٍ بالوُدّ).

((تفسير ابن عاشور)) (16/174 –175).

(151) رواه البخاري (3209)، ومسلم (2637) واللفظ له.

وقال سُبحانَه: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا [الإسراء: 9].

وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا.

أي: وتُنذِرَ بالقُرآنِ -يا محمَّدُ- قومَك الشَّدِيدي المخاصَمةِ والمجادلةِ بالباطِلِ لرَدِّ الحقِّ، فتُحذِّرَهم من وُقوعِ الهَلاكِ والعذابِ عليهم.

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (98) .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ.

أي: وأهلَكْنا كثيرًا مِن الأُمَمِ الماضيةِ قبلَ كُفَّارِ قُريشٍ؛ بسَبَبِ كُفرِهم باللهِ، وتكذيبِهم رُسُلَه، ورُكوبِهم معاصيَه.

كما قال تعالى: وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ [ق: 36].

هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ.

أي: فهل ترَى -يا محمَّدُ- أو تشعُرُ بشَخصٍ واحدٍ مِن تلك الأُمَمِ الماضيةِ التي أهلَكْناها؟!

كما قال تعالى: فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ [الحاقة: 8].

أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا.

أي: أو هل تَســمَعُ لهم صَــوتًا خَفِيًّا؟! كلا؛ فقد بادوا وهَلَكوا، وبَقِيَت أخبارُهم عِبرةً للمُعتَبِرينَ، ولم يبقَ منهم عينٌ ولا أثَرٌ، قد خلَت منهم دورُهم، وانتقلوا إلى دارٍ لا ينفَعُهم فيها إلَّا الإيمانُ والعَمَلُ الصالحُ، فكذلك هؤلاء المُشرِكونَ -يا محمَّدُ- صائرونَ إلى ما صار إليه أولئك، إن لم يبادِروا بالتَّوبةِ قَبلَ وُقوعِ الهلاكِ.

تَفْسِيرُ
سُورَةِ طه

سورةُ طه

سورةُ طه

سُمِّيَت هذه السُّورةُ بسورةِ (طه)،[152] ومما يدلُّ على ذلك:

1- عن ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه، قَالَ: (بني إسرائيلَ،[153] والكهفُ، ومريمُ، وطه، والأنبياءُ: هنَّ مِن العِتاقِ[154] الأُوَلِ، وهنَّ مِن تِلادي)[155].[156]

(152) سُمِّيت هذه السورةُ بـ (طه)؛ لافتتاحِ السورةِ به.

يُنظر: ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (311/1).

(153) (قال: بني إسرائيل) فيه حذفُ المضافِ، وإبقاءُ المضافِ إليه على حالِه، أي: سورةُ بني إسرائيلَ (والكهفُ) بالرفعِ، أي: والثاني الكهفُ.

يُنظر: ((شرح القسطلاني)) (240/7).

(154) العِتاق: جمعُ عتيقٍ، وهو القديمُ، أو: هو كلُّ ما بلَغ الغايةَ في الجودةِ، والمرادُ بقولِه: (العِتَاق الأُوَل): السُّـــوَر الَّتي أُنْزِلت أوَّلًا بمكَّةَ، وأنَّها مِنْ أوَّلِ ما تَعلَّمه مِنَ القرآنِ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (179/3)، ((فتح الباري)) لابن حجر (388/8).

(155) تِلادي: أي: مما حُفِظ قديمًا، والتلادُ: قديمُ المِلك.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (388/8).

(156) أخرجه البخاري (4739).

2- عن أنسٍ رضي الله عنه، قال: (خرج عمرُ متقلِّدًا بالسَّيفِ، فقيل لهُ: إنَّ خَتَنَك[157] وأختَكَ قد صبَوَا،[158] فأتاهما عمرُ وعندهما رجلٌ من المهاجِرين يقالُ لهُ: خبَّابٌ، وكانوا يقرؤونَ «طه»، فقال: أعطوني الذي عندكم فأقرأَه، وكان عمرُ يقرأُ الكتبَ، فقالت لهُ أختُه: إنَّك رِجْسٌ،[159] ولا يمَسُّه إلَّا المطَهَّرون، فقُمْ واغتَسِلْ أو توضَّأْ، فقام عمرُ فتوضَّأَ ثمَّ أخذ الكِتابَ فقرأَ «طه»).[160]

فضائل السورة وخصائصها:

أنَّها مِن السُّوَرِ المتقدِّمِ نزولُها، ومِن قديمِ ما حفِظ الصَّحابةُ وتعلَّموه:[161]

كما في أثرِ عبدِ اللهِ بنِ مَسعودٍ رضِيَ اللهُ عنه المتقدِّمِ قريبًا.

---

(157) الخَتَنُ: الصِّهْرُ.

يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (7/133).

(158) صبَوَا: أي تركَا دِينَك.

يقال: صَبَأَ الرَّجُلُ: إذا خرجَ مِن دينٍ إلى دينٍ.

يُنظر: ((مختار الصحاح)) للرازي (ص: 172).

(159) الرِّجْسُ: النَّتْنُ والقَذَرُ وكُلُّ شَيءٍ يُستَقذَرُ.

يُنظر: ((المصباح المنير)) للفيومي (1/219).

(160) أخرجه الدارقطني (1/123)، والحاكم (6897)، والبيهقي (420).

وقال البيهقي: (له شواهدُ كثيرةٌ)، وجوَّده الزيلعي في ((نصب الراية)) (1/199)، وقال العيني: (إسنادُه صحيحٌ متصلٌ). ((عمدة القاري)) (3/387).

(161) قال البقاعي: (ومن أعظَمِ فَضائِلِها: أنَّ قِراءةَ أوَّلِها كانت سببًا لإسلامِ عُمَرَ بنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عنه، وهو الفاروقُ الذي كان إسلامُه فتحًا أيَّد اللهُ به هذا الدِّينَ، ففرَّق به بينَ الحَقِّ والباطِلِ، فعزَّ به المسلِمون، فرَغِب في الإسلامِ بسَبَبِ ذلك مَن وفَّقَه اللهُ له، وذلك هو عَينُ مَقصودِها).

((مصاعد النظر)) (2/279).

سورةُ (طه) مكِّيَّةٌ،[162] وحُكِي الإجماعُ على ذلك.[163]

من أهمِّ مقاصِدِ هذه السُّورةِ:

رعايةُ اللهِ للمُختارينَ لحَملِ الدعوةِ مِن الرسُلِ وأتباعِهم.

من أهمِّ موضوعات هذه السُّورةِ:

1- التَّنويهُ بعَظَمةِ القُرآنِ الكريمِ وأنَّه منزلٌ مِن الله تعالى.

2- تفصيلُ الكلامِ عن قصةِ موسَى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ، وإرسالِه إلى فرعونَ، وما جرَى بينَهما مِن حوارٍ، وأمرِ السحرةِ وما آلَ إليه أمرُهم، وما فعَله بنو إسرائيلَ في غَيبةِ موسَى عنهم، وإضلالِ السامريِّ لهم.

3- ذِكرُ جَزاءِ المُعرِضينَ عن القرآنِ الكريمِ، وذِكرُ شَيءٍ مِن مشاهِدِ يومِ القيامةِ.

4- بيان مَنزِلةِ القرآنِ، وأنه نزل عربيًّا، وأنَّ اللهَ تعالى صرَّف فيه مِن الوعيدِ.

---

(162) وقيل: مكيةٌ إلا آيتينِ، هما: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ...
[طه: 130] ، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ ...
[طه: 131] فمَدنيَّتانِ.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (5/16)، ((الوسيط)) للواحدي (199/3)، ((تفسير الزمخشري)) (49/3)، ((تفسير ابن كثير)) (271/5).

(163) ممَّن نقَل الإجماعَ على ذلك: ابنُ الجوزي، والقرطبي، وأبو حيان، والفيروزابادي، والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (150/3)، ((تفسير القرطبي)) (163/11)، ((تفسير أبي حيان)) (308/7)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (310/1)، ((مصاعد النظر)) للبقاعي (267/2).

5- ذكرُ قصَّةِ خَلقِ آدَمَ.

6- أمرُ النبيِّ صلَّى الله عليه وسلَّم بعدةِ أمورٍ؛ منها: الصبرُ، والإكثارُ مِن ذكرِ الله، وعدمُ التطلُّعِ إلى زهرةِ الحياةِ الدنيا، وأمرُ أهلِه بالصلاةِ.

7- الردُّ على مزاعمِ المشركين، وتهديدُهم بسوءِ العاقبةِ إذا ما استمرُّوا على ضلالِهم.

سورةُ طه

الآيات (1-8)

طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (4) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6) وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8)

غريب الكلمات:

الثَّرَى: أي: التُّرابِ النَّديّ الرَّطْبِ المُبتلّ، وهو الذي تحت الظاهِرِ مِن وَجهِ الأرضِ، وأصلُه خِلافُ اليَبَسِ.

تفسير الآيات:

طه (1).

تقدَّم الكلامُ عن هذه الحروفِ المقطَّعةِ في أوَّلِ تفسيرِ سُورةِ (مريمَ).[164]

---

(164) القولُ بأنَّ طه مِن الحروفِ المقطعةِ، استظهَره أبو حيان، وممَّن اختاره: ابن القيم، والقاسمي، والسعدي، وابنُ عاشورٍ، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (7/309)، ((تحفة المودود)) لابن القيم (ص: 127)، ((تفسير القاسمي)) (7/118)، ((تفسير السعدي)) (ص: 502)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/183)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/3).

قال الشنقيطي: (أظهرُ الأقوالِ فيه عندي أنَّه مِن الحروفِ المقطَّعةِ في أوائلِ السُّوَرِ، ويدُلُّ لذلك أنَّ الطَّاءَ والهاءَ المذكورتَيْنِ في فاتحةِ هذه السُّورَةِ، جاءَتا في مواضعَ أُخَرَ لا نزاعَ فيها في أنَّهما مِن الحروفِ المقطَّعةِ، أمَّا الطَّاءُ ففي فاتحةِ «الشُّعراءِ» طسم [الشعراء: 1]، وفاتحةِ «النَّمْلِ» طس [النمل: 1]، وفاتحةِ «القصصِ»، وأمَّا الهاءُ ففي فاتحةِ «مريم» في قولِه تعالَى: كهيعص [مريم: 1]).

((أضواء البيان)) (4/3).

ونسب الواحديُّ إلى أكثر المفسِّرينَ أنَّ معنى: طه أي: يا رجُلُ، يريدُ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم.

وممَّن اختار ذلك: ابنُ جريرٍ، والواحدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/8)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 691)، ((الوسيط)) للواحدي (3/199).

قال الواحدي: (وهو قولُ الحسنِ، وعكرمةَ، وسعيدِ بن جُبيرٍ، وقتادةَ، والضحَّاكِ، ومجاهدٍ، وابنِ عباس في روايةِ عطاء، والكلبي، غيرَ أنَّ بعضَهم يقولُ: هي بلسانِ الحبشةِ، وبالنَّبَطيَّة، والسُّريانية).

((الوسيط)) (3/199).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/150)، ((تفسير ابن كثير)) (5/271).

وقال الشوكاني بعدَ أن ذكَر كلامَ الواحدي: (وإذا تقرَّرَ أنَّها لهذا المعنَى في لغةٍ مِن لغاتِ العربِ كانت ظاهرةَ المعنَى، واضحةَ الدَّلالةِ، خارجةً عن فواتحِ السُّورِ الَّتي قدَّمْنا بيانَ كونِها مِن المتشابِه...، وهكذا إذا كانت لهذا المعنَى في لغةٍ مِن لغاتِ العجمِ، واستعملَتْها العربُ في كلامِها في ذلك المعنَى كسائرِ الكلماتِ العجميَّةِ الَّتي استعمَلَتْها العربُ الموجودَةِ في الكتابِ العزيزِ، فإنَّها صارَتْ بذلك الاستعمالِ مِن لغةِ العربِ).

((تفسير الشوكاني)) (3/420).

وقال ابنُ عاشور: (لا التفاتَ إلى قَولِ من زعموا أنَّه من أسماء النبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم).

مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2).

أي: ما أنزَلْنا عليك القُرآنَ -يا محمَّدُ- ليكونَ سَببًا في جلْبِ شَيءٍ من الشَّقاءِ لك.(165)

((تفسير ابن عاشور)) (183/16).

ويُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 502)، ((مجموع فتاوى ابن باز)) (54/18).

قال ابنُ عثيمين: (وهذا لا يَصِحُّ نَظَرًا ولا أثَرًا؛ أمَّا عدَمُ صِحَّتِه أثَرًا فلِعَدمِ النَّقلِ؛ فإنَّه لم يأتِ حديثٌ صحيحٌ ولا ضَعيفٌ أنَّ مِن أسماءِ الرَّسولِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: «طه» أبدًا.

وأمَّا النظَرُ: فلأنَّ «طه» مركَّبٌ مِن حرفينِ مُهمَلينِ هِجائيَّينِ، والحروفُ الهجائيَّةُ ليس لها معنًى، ومِن المعلومِ أنَّ أسماءَ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم كُلُّها تحمِلُ معانيَ؛ فليس له اسمٌ صلَّى الله عليه وسلَّم هو علَمٌ مَحضٌ، بل أسماءُ الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلم كلُّها أعلامٌ وألقابٌ).

((شرح نظم الورقات)) (ص: 141).

في ﴿طه﴾ خمسة أقوال: الأول: أنّ معناه: يا رجل.

الثاني: أنّه اسم من أسماء الله، وقَسَمٌ أقسم الله به.

الثالث: أنّه حرف من الحروف المُقَطَّعة التي تفتتح بها السور.

الرابع: أن معناه: طَإِ الأرضَ بقدمك.

الخامس: أن معناه: طهارة أهل بيت النبي - ﷺ -.

وقد رجّح ابن جرير (١٦/ ٨) مستندًا إلى اللغة وأقوال السلف القولَ الأول، فقال: «والذي هو أولى بالصواب عندي مِن الأقوال فيه: قولُ مَن قال: معناه: يا رجل.

لأنّها كلمة معروفة في عكٍّ فيما بلغني، وأن معناها فيهم: يا رجل، أُنشدت لمتمم بن نويرة:

هتفت بطه في القتال فلم يجب فخفت عليه أن يكون موائلا

وقال آخر:

إنّ السفاهة طه مِن خلائقكم لا بارك الله في القوم الملاعين

فإذا كان ذلك معروفًا فيهم على ما ذكرنا فالواجب أن يُوَجَّه تأويلُه إلى المعروف فيهم مِن معناه، ولا سيما إذا وافق ذلك تأويلَ أهل العلم من الصحابة والتابعين».

(165) قال ابنُ جُزي: (قيل: إنَّ النبيَّ صلَّى الله عليه وسلَّم قام في الصلاةِ حتى تورَّمت قدماه، فنزلت الآيةُ تخفيفًا عنه، فالشَّقاءُ على هذا إفراطُ التَّعَب في العبادة، وقيل: المرادُ به التأسُّفُ على كُفرِ الكُفَّار، واللَّفظُ عامٌّ في ذلك كلِّه، والمعنى أنَّه نفى عنه جميعَ أنواعِ الشَّقاءِ في الدنيا والآخرة؛ لأنَّه أنزل عليه القرآنَ الذي هو سَبَبُ السعادة).

إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَنْ يَخْشَى (3).

أي: إنَّما أنزَلْنا عليك القُرآنَ –يا مُحمَّدُ– تذكيرًا وعظةً لِمن يخشَى اللهَ، ويخافُ عذابَه.[166]

كما قال تعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص: 29].

وقال سُبحانه: فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى * سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى [الأعلى: 9، 10].

تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَا (4).

أي: نزل هذا القرآنُ تنزيلًا مِنَ الله الذي خلقَ الأرضَ المُنخَفضةَ والسَّمواتِ العاليةَ الرَّفيعةَ.

((تفسير ابن جزي)) (5/2).

أفادت الآثارُ أنّ في سبب هذه الآية قولين: الأول: أنّ سببها ما كان النبيُّ يعانيه مِن التعب في العبادة والسهر للقيام.

الثاني: أنّها جوابٌ للمشركين، إذ قالوا: إنّ محمدًا مع ربه في شقاء.

وعلّق ابنُ عطية (٦/ ٧٩) القول الثاني بقوله: «فهذا التأويل أعمُّ مِن الأول في لفظة الشقاء».

ولم يذكر ابن جرير (١٦/ ٨ – ٩) في نزول الآية سوى القول الأول.

(166) قال السعدي: (إلّا ليتذكرَ به مَن يخشَى الله تعالى، فيتذكرَ ما فيه مِن الترغيبِ إلى أجلّ المطالبِ، فيعملَ بذلك، ومِن الترهيبِ عن الشقاءِ والخسرانِ، فيرهبَ منه، ويتذكرَ به الأحكامَ الحسنةَ الشرعيةَ المفصَّلةَ، التي كان مستقرًّا في عقلِه حسنُها مجملًا، فوافَق التفصيلُ ما يجدُه في فطرته وعقلِه...

والتذكرةُ لشيءٍ كان موجودًا، إلّا أنَّ صاحبَه غافلٌ عنه، أو غيرُ مستحضِرٍ لتفصيلِه).

((تفسير السعدي)) (ص: 502).

وقال ابن عاشور: (التذكرةُ: خُطورُ المنسيّ بالذّهن، فإنَّ التَّوحيدَ مستَقِرٌّ في الفطرةِ والإشراكَ منافٍ لها، فالدَّعوةُ إلى الإسلامِ تذكيرٌ لما في الفطرةِ أو تذكيرٌ لملَّةِ إبراهيمَ عليه السَّلامُ).

((تفسير ابن عاشور)) (185/16).

وقال ابن عطية: (ويَخْشَى يتضمَّنُ الإيمانَ والعملَ الصالحَ؛ إذ الخشيةُ باعثةٌ على ذلك).

((تفسير ابن عطية)) (37/4).

كما قال تعالى: تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ [فصلت: 2].

الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (5).

أي: الرَّحمنُ علا وارتفَعَ على عَرشِه، كما يليقُ بجَلالِه.

لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (6).

أي: لله وَحْدَه مُلكُ جَميعِ ما في السَّمواتِ، وجميعِ ما في الأرضِ، وما بينَهما وما تحتَ التُّرابِ ممَّا في باطِنِ الأرضِ مِن المخلوقاتِ، وهو المتصَرِّفُ فيهم بتدبيرِه ومشيئتِه وَحْدَه.

وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (7).

أي: وإنْ تجهَرْ بقَولِك –يا مُحمَّدُ[167] – أو تُسِرَّه، فكُلٌّ سَواءٌ في عِلمِ اللهِ؛ فإنَّه يعلَمُ ما تُسِرُّه النفوسُ، ويعلَمُ ما هو أخفى من السِّرِّ ممَّا لم يخطُرْ على قلوبِ العبادِ، يعلَمُ أنه سيخطرُ ببالِهم كذا وكذا، في وقتِ كذا وكذا.[168]

---

(167) وممن ذهب إلى أنَّ الخطابَ للنبي صلَّى الله عليه وسلَّم: ابن جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/16).
قال ابن عاشور: (الخطابُ في قولِه وَإِنْ تَجْهَرْ يجوز أنْ يكون خطابًا للنبيّ صلَّى الله عليه وسلَّم وهو يعمُّ غيرَه، ويجوزُ أنْ يكونَ لغيرِ مُعَيَّنٍ ليعُمَّ كُلَّ مخاطَبٍ).
((تفسير ابن عاشور)) (189/16).

(168) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (12/16، 16، 17)، ((بدائع الفوائد)) لابن القيم (111/3)، ((الوابل الصيب)) لابن القيم (ص: 62)، ((تفسير السعدي)) (ص: 502).

كما قال تعالى: قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا [الفرقان: 6].

وقال سُبحانَه: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ [الأنبياء: 110].

وقال عزَّ وجلَّ: إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى [الأعلى: 7].

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، وقتادةُ، والضحاكُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (14/16، 16)، ((تفسير ابن كثير)) (275/5).

وذكر ابنُ الجوزيِّ أقوالًا أخرى، منها: أنَّ السرَّ: ما حدَّثت به نفسَك، وَأَخْفَى: ما لم تلفِظْ به.

ونسَبه لسعيدِ بنِ جُبيرٍ.

ومنها: أنَّ السرَّ: العملُ الذي يُسِرُّه الإنسانُ مِن الناسِ، وأخفَى منه: الوسوسةُ.

ونسَبه لمجاهدٍ.

ومنها: أنَّ المرادَ: يعلمُ إسرارَ عبادِه، وقد أخفَى سرَّه عنهم فلا يُعْلَمُ.

ونسَبه لزيدِ بنِ أسلمَ، وابنِه.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (151/3).

للسلف في تفسير قوله: ﴿وأخفى﴾ ثلاثة أقوال: الأول: أنه ما حدَّث الإنسان به نفسه ولم يعمله.

الثاني: أنه ما علمَ الله مما هو كائن.

الثالث: ﴿وأخفى﴾ فعل ماضٍ، والمعنى: أن الله أخفى سرَّه عن عباده فلا يعلمه أحد منهم.

وهو قول ابن زيد.

وقد رجّح ابن جرير (١٦/ ١٦ – ١٧) مستندًا إلى ظاهر الآية والدلالة العقلية القولَ الثاني، وانتقد قول ابن زيد مستندًا إلى اللغة، فذكر أنّ المعنى أن الله «يعلم السر وأخفى من السر؛ لأن ذلك هو الظاهر من الكلام، ولو كان معنى ذلك ما تأوله ابن زيد لكان الكلام: وأخفى الله سرَّه.

لأنّ» أخفى «فعلٌ واقعٌ مُتَعَدٍّ، إذ كان بمعنى» فعَل «على ما تأوله ابن زيد، وفي انفراد أخفى من مفعوله، والذي يعمل فيه لو كان بمعنى» فعَل «الدليل الواضح على أنه بمعنى أفعل، وأن تأويل الكلام: فإنه يعلم السر وأخفى منه.

فإذ كان ذلك تأويله فالصواب من القول في معنى أخفى من السر أن يُقال: هو ما علم الله مما خفي عن العباد، ولم يعلموه مما هو كائن ولما يكن؛ لأنّ ما ظهر وكان فغير سِرٍّ، وأن ما لم يكن وهو غير كائن فلا شيء، وأن ما لم يكن وهو كائن فهو أخفى من السر، لأن ذلك لا يعلمه إلا الله، ثم مَن أعلمه ذلك من عباده».

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (8).

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أي: اللهُ لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو، ولا يستحِقُّ العبادةَ غيرُه؛ فأخلِصوا له العبادةَ وَحْدَه.

لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى.

أي: لله وَحْدَه الأسماءُ الكثيرةُ الكامِلةُ في حُسنِها، الدَّالَّةُ على صِفاتِ كَمالِه سُبحانَه.(169)

كما قال تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا [الأعراف: 180].

وقال سُبحانَه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى [الإسراء: 110].

---

(169) قال السَّعدي: (مِن حُسنِها أنَّها كلَّها أسماءٌ دالَّةٌ على المدحِ، فليس فيها اسمٌ لا يدُلُّ على المدحِ والحَمدِ، ومن حُسنِها أنَّها ليست أعلامًا محضةً، وإنَّما هي أسماءٌ وأوصافٌ، ومن حُسنِها أنَّها دالَّةٌ على الصِّفاتِ الكامِلةِ، وأنَّ له مِن كُلِّ صِفةٍ أكمَلَها وأعمَّها وأجَلَّها، ومن حُسنِها أنَّه أمر العبادَ أنْ يَدعُوه بها؛ لأنَّها وسيلةٌ مُقَرِّبةٌ إليه، يحِبُّها، ويحِبُّ مَن يُحِبُّها، ويحِبُّ من يحفَظُها، ويحِبُّ من يبحَثُ عن معانيها، ويتعَبَّدُ له بها؛ قال تعالى: وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا).

((تفسير السعدي)) (ص: 502).

وقال ابنُ عاشور: (قولُه: لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى...

أي: لا لغَيرِه؛ لأنَّ غيرَه إمَّا أنْ يكون اسمُه مُجَرَّدًا من المعاني المدلولةِ للأسماءِ، مثلَ الأصنامِ، وإمَّا أنْ تكون حقائقُها فيه غيرَ بالغةٍ مُنتهى كَمالِ حَقيقتِها، كاتِّصافِ البَشَرِ بالرَّحمةِ والمُلكِ، وإمَّا أنْ يكونَ الاتِّصافُ بها كَذِبًا لا حَقيقةً، كاتِّصافِ البَشَرِ بالكِبرِ؛ إذ ليس أهلًا للكِبرِ والجَبَروتِ والعِزَّةِ).

((تفسير ابن عاشور)) (16/192).

وقال عزَّ وجلَّ: هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [الحشر: 22 – 24].

سورةُ طه

الآيات (9–16)

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ
مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ
فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13)
إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى
(16)

غريب الكلمات:

آنَسْتُ: أي: أبصَرتُ، والإيناسُ: الرُّؤيةُ، والعِلمُ، والإحساسُ بالشَّيءِ.

بِقَبَسٍ: أي: بشُعلةٍ مِن النَّارِ، مِن قَولِهم: قَبَسْتُه نارًا: إذا جِئتَه بها.

بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى: طُوى هو اسمُ الوادي، أو مصدرٌ، كقولِك: ناديتُ طُوى، أي: مرَّتين، أي: قُدِّس مرتين، والمقدَّس: المطهَّر، وأصلُ (قدس): طُهْرٌ.

فَتَرْدَى: أي: تَهلِكَ، والرَّدَى: الموتُ والهلاكُ، وأصلُ (ردي): يدُلُّ على رَميٍ وتَرامٍ.

تفسير الآيات:

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (9).

أي: وهل أتاك -يا مُحمَّدُ [170]- خبرُ موسى؟

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى (10).

إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا.

أي: حين رأى نارًا -وهو مسافِرٌ مِن مَدينَ إلى مِصرَ في ليلةٍ مُظْلِمةٍ باردةٍ- فقال لزوجتِه ووَلَدِه: أقيموا أنتم في مكانِكم، فقد أبصرتُ نارًا.

لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ.

أي: وأنا ذاهبٌ إليها رجاءَ أنْ أجلِبَ منها شعلةً تَستَدفِئونَ بها.

---

(170) قال الشربيني: (هذا محتمِلٌ لأن يكونَ هذا أوَّلَ ما أُخبِرَ به مِن أمرِ موسى فقال: وَهَلْ أَتَاكَ أي: لم يأتِك إلى الآن فتنبَّه له، وهذا قولُ الكلبيِّ، ومحتملٌ أنْ يكونَ قد أتاه ذلك في الزمانِ المتقدِّمِ، فكأنَّه قال: أليس قد أتاك؟ وهذا قولُ مقاتلٍ والضحاكِ عن ابنِ عباسٍ).
((تفسير الشربيني)) (451/2).

كما قال تعالى: فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [القصص: 29].

وقال سُبحانَه: إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَآتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ [النمل: 7].

أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى.

أي: أو رجاءَ أنْ ألقَى عندَ تلك النَّارِ ما يَهديني الطريقَ الذي ضَلَلْناه.[171]

فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (11).

أي: فلما أتَى موسى إلى النَّارِ ناداه اللهُ، فقال: يا موسى![172]

كما قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [النمل: 8، 9].

---

(171) قال ابنُ جرير: (قوله: أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى [طه: 10] دلالةٌ تدلُّ على الطريقِ الذي أضللْناه؛ إمَّا مِن خبرٍ هادٍ يهدينا إليه، وإمَّا مِن بيانٍ وعلمٍ نتبيَّنُه به ونَعرِفُه).

((تفسير ابن جرير)) (20/16).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (38/4).

(172) قال السعدي: (فَلَمَّا أَتَاهَا أي: النَّارَ التي آنسَها من بعيدٍ، وكانت -في الحقيقة- نورًا، وهي نارٌ تَحرِق وتُشرِق، ويدلُّ على ذلك قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «حِجابُه النورُ أو النَّارُ، لو كَشَفَه لأحرَقَت سُبُحاتُ وَجهِه ما انتهى إليه بصَرُه»).

((تفسير السعدي)) (ص: 503).

وقال سُبحانَه: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [القصص: 30].

وقال عز وجل: وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا [مريم: 52].

إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (12).

أي: إني أنا ربُّك الذي يكَلِّمُك ويخاطِبُك -يا موسى- فاخلَعْ نَعلَيك؛[173] لأنَّك بالوادي المُطَهَّرِ المبارَك المُسمَّى طُوًى.[174]

---

(173) اختلف السلف في السبب الذي من أجله أمر الله موسى بخلع نعليه على قولين: الأول: لنجاستهما؛ إذ كانتا من جلد حمار ميت.

وقيل: مِن جلد خنزير.

الثاني: أنّ الله أراد أن يطأ موسى الأرض بقدميه لينال من بركتها.

وقد رجّح ابن جرير (١٦/ ٢٥) مستندًا إلى السياق القول الثاني، وعلل ذلك بقوله: «وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب لأنّه لا دلالة في ظاهر التنزيل على أنه أُمِر بخلعهما مِن أجل أنهما من جلد حمار ولا لنجاستهما، ولا خبر بذلك عمَّن تلزم بقوله الحجة، وإن في قوله: ﴿إنك بالواد المقدس﴾ بعَقِبه دليلًا واضحًا على أنه إنما أمره بخلعهما لما ذكرنا».

ثم أورد حديث ابن مسعود المرفوع -الآتي في الآثار المتعلقة بالآية- وقال: «لو كان صحيحًا لم نعدُهُ إلى غيره».

ثم انتقده، فقال: «لكنَّ في إسناده نظرًا يجب التثبت فيه».

وقد ذكر ابنُ عطية (٦/ ٨٢) القولين، ثم بيّن أن الآية تحتمل وجهًا ثالثًا، ورجّحه مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وتحتمل الآية معنًى آخر، هو الأليق بها عندي، وذلك أنّ الله تعالى أمره أن يتواضع لِعظم الحال التي حصل فيها، والعُرْف عند الملوك أن تُخلَع النعلان، ويبلغ الإنسان إلى غاية تواضعه، فكأنّ موسى – عليه السلام – أُمر بذلك على هذا الوجه، ولا نبالي كانت نعلاه من ميتة أو غيرها».

(174) قال الواحدي عن طُوًى: (قال ابنُ عبَّاس: هو اسمُ الوادي.

وهو قَولُ جميعِ المفسِّرينَ).

((البسيط)) (369/14).

كما قال تعالى: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ [القصص: 30].

وقال سُبحانَه: هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى * إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى [النازعات: 15، 16].

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (13).

وَأَنَا اخْتَرْتُكَ.

أي: وأنا اخترتُك –يا موسى– مِن بينِ النَّاسِ للنبُوَّةِ والرِّسالةِ، وسَماعِ كلامي مُباشَرةً.

وقال ابنُ جرير: (أمَرَه الله –تعالى ذِكرُه– بخَلعِ نعلَيه ليباشِرَ بقَدَميه بركةَ الوادي؛ إذ كان واديًا مُقَدَّسًا، وإنما قلنا: ذلك أولى التأويلينِ بالصوابِ؛ لأنَّه لا دلالةَ في ظاهِرِ التنزيلِ على أنَّه أُمِرَ بخلعِهما مِن أجلِ أنهما مِن جِلدِ حِمارٍ، ولا لنجاستِهما! ولا خبَرَ بذلك عمَّن يلزَمُ بقولِه الحُجَّة، وإنَّ في قوله إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ بعَقِبِه دَليلًا واضِحًا على أنَّه إنما أمَرَه بخَلْعِهما لِما ذكَرْنا).

((تفسير ابن جرير)) (25/16).

وقال ابنُ عطية: (تحتملُ الآيةُ معنى آخرَ هو الأليقُ بها عندي، وذلك أنَّ الله تعالى أمره أنْ يتواضعَ لعظمِ الحالِ التي حصَل فيها، والعرفُ عندَ الملوكِ أنْ تُخلعَ النعلانِ، ويبلغَ الإنسانُ إلى غايةِ تواضعِه، فكأنَّ موسى عليه السلام أُمِر بذلك على هذا الوجهِ).

((تفسير ابن عطية)) (39/4).

وقال ابنُ كثير: (قال عليُّ بنُ أبي طالبٍ، وأبو ذرٍّ، وأبو أيوبَ، وغيرُ واحدٍ مِن السلفِ: كانتا مِن جلدِ حمارٍ غيرِ ذكيّ.

وقيل: إنما أمَرَه بخلعِ نعليه تعظيمًا للبقعة.

قال سعيدُ بنُ جبيرٍ: كما يُؤمَرُ الرجلُ أنْ يخلعَ نعليهِ إذا أراد أنْ يدخُلَ الكعبةَ.

وقيل: ليطأَ الأرضَ المقدَّسة بقدميه حافيًا غير مُنتَعِلٍ.

وقيل غير ذلك، والله أعلم).

((تفسير ابن كثير)) (276/5).

كما قال تعالى: قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي [الأعراف: 144].

فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى.

أي: فأنصِتْ –يا موسى– مُلقيًا سَمْعَك ومُعمِلًا قَلْبَك لوعْيِ ما أُوحِيه إليك الآنَ مِن كلامي.

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14).

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا.

أي: إنَّني أنا اللهُ الذي لا معبودَ بحقٍّ غيري، ولا يستحقُّ العبادةَ أحدٌ سِواي.

فَاعْبُدْنِي.

أي: فأخلِصْ لي وَحْدي جميعَ أنواعِ العبادةِ –يا موسى– وقُمْ بعبادتي دونَ أنْ تُشرِكَ بي شيئًا.

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي.

أي: وأقِمِ الصَّلاةَ –يا موسى– لأجلِ أنْ تذكُرَني فيها، متى ما ذكَرْتَ أنَّ عليك صلاةً.(175)

---

(175) وقال ابن عاشور: (الذكرُ يجوزُ أنْ يكونَ بمعنى التذكرِ بالعقلِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الذكرُ باللسانِ).
((تفسير ابن عاشور)) (201/16).
قال ابن الجوزي: (وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي فيه قولان: أحدهما: أقِمِ الصلاةَ متى ذكرتَ أنَّ عليكَ صلاةً، سواء كنتَ في وقتِها أو لم تكنْ، هذا قولُ الأكثرينَ.
والثاني: أقِمِ الصلاةَ لتَذْكُرَني فيها، قاله مجاهدٌ).
((تفسير ابن الجوزي)) (154/3).
ونسَب القولَ الأوَّل أيضًا ابنُ عبدِ البرِّ إلى أكثرِ أهلِ العلمِ، ونسبه الواحدي إلى عامةِ المفسرينَ.

يُنظر: ((الاستذكار)) لابن عبد البر (90/1)، ((الوسيط)) للواحدي (202/3).

ويشهدُ لمعناه حديثُ أنس أنَّ رسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إذا رَقَد أحَدُكم عن الصَّلاةِ، أو غَفَل عنها، فلْيُصَلِّها إذا ذكَرَها؛ فإنَّ اللهَ يقولُ: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي)) أخرجه البخاري (597)، ومسلم (684) واللفظ له.

وممن اختار القولَ الثاني: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ رجب، والقاسمي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (23/3)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 277)، ((تفسير ابن جرير)) (32/16)، ((فتح الباري)) لابن رجب (133/5)، ((تفسير القاسمي)) (121/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 503).

قال ابن القيم: (قال سبحانه وتعالى: وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي.

قيل: المصدرُ مضافٌ إلى الفاعلِ، أي: لأذكرَك بها، وقيل: مضافٌ إلى المذكورِ، أي: لتذكروني بها.

واللامُ على هذا لامُ التعليلِ.

وقيل: هي اللامُ الوقتيةُ، أي: أقمِ الصلاةَ عندَ ذكري، كقولِه: أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ [الإسراء: 78] ، وقوله تعالى: وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ [الأنبياء: 47] ...

والأظهرُ أنَّها لامُ التعليلِ، أي: أقمِ الصلاةَ لأجلِ ذكري.

ويلزمُ مِن هذا أنْ تكونَ إقامتُها عندَ ذكرِه، وإذا ذكر العبدُ ربَّه، فذكرُ اللهِ تعالى سابقٌ على ذكرِه، فإنَّه لما ذكرَه ألهمه ذكرَه، فالمعاني الثلاثةُ حقٌّ).

((الوابل الصيب)) (ص: 74).

وقال الجصاص بعد أنْ ذكر أنَّ المعاني التي ذكرها المفسرون غير متنافية: (فكأنَّه قال: أقِمْ الصَّلاةَ إذا ذكرْتَ الصَّلاةَ المنسِيَّةَ؛ لتذكُرَنِي فيها بالتَّسبيحِ والتَّعظيمِ؛ لأنْ أذكُرَك بالثَّناءِ والمدحِ؛ فيكونُ جميعُ هذه المعاني مرادةً بالآيةِ).

((أحكام القرآن)) للجصاص (50/5).

اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ على أقوال: الأول: أقِم الصلاة حين تذكرها.

الثاني: أقم الصلاة لتذكرني بها.

الثالث: أقم الصلاة لأذكرك بها.

فعلى القول الأول تكون اللام وقتية، وعلى القولين الآخرين تكون اللام سببية كما ذكرَ ابنُ عطية (٦/ ٨٣)، وابنُ القيم (٢/ ١٧٩).

وقد رجّح ابن جرير (١٦/ ٣٣ بتصرف) مستندًا إلى ظاهر لفظ الآية القول الثاني، فقال: «وأولى التأويلين في ذلك بالصواب تأويلُ مَن قال: معناه: أقم الصلاة لتذكرني فيها؛ لأن ذلك أظهر معنييه، وفي قوله: ﴿لذكري﴾ دلالة بينة على صحة ذلك».

وبنحوه ابنُ القيم (٢/ ١٧٩)، وبيّن أن هذا القول يستلزم القولين الآخرين.

وقوّى ابنُ كثير (٩/ ٣١٧ - ٣١٨ بتصرف) القول الأول بقوله: «ويشهد لهذا القول ما رواه الإمام أحمد ... عن أنس، عن النبي - ﷺ -، قال: «إذا رقد أحدكم عن الصلاة، أو غفل عنها، فليصلها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى قال: ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾».

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15).

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا.

أي: إنَّ السَّاعةَ التي يُبعَثُ فيها الخلائِقُ مِن قُبورِهم لموقِفِ القيامةِ آتيةٌ لا محالةَ، وأكاد أستُرُها مِن نفسي، فلا يمكِنُ لأحدٍ أنْ يطَّلِعَ عليها.(176)

وفي الصحيحين عن أنس قال: قال رسول الله – ﷺ –: «من نام عن صلاة أو نسيها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك»».

واستدرك ابن جرير مستندًا لظاهر لفظ الآية على هذا القول، فقال: «ولو كان معناه: حين تذكرها؛ لكان التنزيل: أقم الصلاة لذكركها».

وكذا استدرك ابنُ القيم مستندًا إلى اللغة ...

وذكر أن تفسير الآية به فيه نظر؛ «لأن اللام الوقتية يليها أسماء المكان والظروف، والذِّكْرُ مصدر، إلا أن يقدر زمان محذوف: أي عند وقت ذكري، وهذا محتمل».

(176) قال ابنُ عطية: (الساعةُ في هذه الآيةِ القيامةُ، بلا خلافٍ).

((تفسير ابن عطية)) (4/39، 40).

وممن ذهب إلى أنَّ معنى: أَكَادُ أُخْفِيهَا أي: مِن نفسي: ابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، وابنُ تيميةَ، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وقد نسبه الواحديُّ إلى أكثر المفسِّرينَ، فقال: (قولُه تعالى: إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا قال أكثرُ المفسرينَ: «أُخفيها من نفسي»، وهذا قولُ سعيدِ ابنِ جُبيرٍ، ومجاهدٍ، وعطاءِ بنِ السائبِ.

وهذا التفسيرُ موافقٌ لما رُويَ: أنَّ في مصحف أُبَيٍّ: «أكادُ أُخفيها مِن نفسي، فكيفَ يعلَمُها مخلوقٌ»، وفي بعضِ القراءاتِ: «أكادُ أُخفيها مِن نفسي، فكيفَ أُظهِرُكم عليها»).

((البسيط)) (14/372).

ويُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/277).

وقال الواحدي: (على هذا معنى الآيةِ: إنَّ الله تعالى بالغَ في إخفاء الساعة، فذكَره بأبلغِ ما تعرِفُه العَرَبُ في مثلِه...

والمعنى: أنه لم يُطلِعْ على وقتِ قيامِ الساعة ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا، حتى لو جاز أنْ يُخفِيَه عن نفسه أخفاها.

لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى.

أي: إنَّ السَّاعةَ آتيةٌ؛ لتنالَ كلُّ نفسٍ جزاءَ ما تعمَلُه في الدُّنيا مِن خيرٍ وشرٍّ.

قال ابنُ الأنباري: والمعنى في إخفائِها التهويلُ والتخويفُ؛ لأنَّ النَّاسَ إذا لم يعلموا متى تقومُ الساعةُ كانوا على حَذَرٍ منها كلَّ وقتٍ.

هذا معنى قولِ المفسرينَ في هذه الآيةِ.

و«كاد» -على قولِهم- للمُقاربةِ).

((البسيط)) (373/14).

اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿أكاد أخفيها﴾ على قولين: الأول: أكاد أخفيها من نفسي، فلا أُظْهِر عليها أحدًا من خلقي.

الثاني: أكاد أظهرها.

وقد رجّح ابن جرير (١٦/ ٣٧ - ٣٨ بتصرف) مستندًا إلى أقوال السلف وإلى اللغة القول الأول، فقال: «والذي هو أولى بتأويل الآية من القول قولُ مَن قال: معناه: أكاد أخفيها مِن نفسي.

لأن تأويل أهل التأويل بذلك جاء، ولأنّ المعروف من معنى الإخفاء في كلام العرب: الستر.

يقال: قد أخفيت الشيء: إذا سترته، فلما كان معروفًا في كلامهم أن يقول أحدهم إذا أراد المبالغة في الخبر عن إخفائه شيئًا هو له مُسِرٌّ: قد كدت أن أخفي هذا الأمر عن نفسي مِن شدة استسراري به، ولو قدرت أخفيه عن نفسي أخفيته.

خاطبهم على حسب ما قد جرى به استعمالُهم في ذلك من الكلام بينهم، وما قد عرفوه في منطقهم».

وأمّا ابنُ عطية (٦/ ٨٦) فقد ذكر قولًا عن بعض المفسرين لم يُسمِّه، ورجّحه مستندًا إلى الدلالة العقلية، فقال: «وقالت فرقة: ﴿أكادُ﴾ على بابها، بمعنى أنها مقاربة ما لم يقع، لكن الكلام جارٍ على استعارة العرب ومجازها، فلما كانت الآية عبارة عن شدة خفاء أمر القيامة ووقتها، وكان القَطْع بإتيانها مع جهل الوقت أهيب على النفوس؛ بالغ قوله تعالى في إعتام وقتها، فقال: ﴿أكادُ أُخْفِيها﴾ حتى لا تظهر البتة، ولكن ذلك لا يقع، ولا بد من ظهورها، هذا تلخيص هذا المعنى الذي أشار إليه بعض المفسرين، وهو الأقوى عندي.

ورأى بعضُ القائلين بأن المعنى: أكادُ أُخْفِيها من نفسي.

ما في القول من القلق، فقالوا: معنى من نفسي: من تلقائي، ومن عندي، وهذا رفض للمعنى الأول، ورجوع إلى هذا القول الذي اخترناه أخيرًا.

فتأمله».

وذكر ابن جرير (١٦/ ٣٨ - ٤١) عدة أقوال أخر لم ينسبها إلى أحد، وكذا فعلَ ابنُ عطية، وانتقد هو وابن جرير بعضَ تلك الأقوال لمخالفتها لغة العرب، وقولَ الحجة من أهل التأويل، ودلالة العقل.

كما قال تعالى: فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ [الزلزلة: 7- 8].

فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (16).

أي: فلا يَصرِفنَّكَ -يا موسى- عن الإيمانِ بالسَّاعةِ، والاستعدادِ لها مَنْ لا يُقِرُّ بقيامِها، ولا يُصدِّقُ بها، فلا يرجو ثوابًا، ولا يخافُ عقابًا، واتَّبعَ شَهَواتِه، وخالَف أمْرَ اللهِ ونَهْيَه؛ فتهلِكَ.[177]

---

(177) قال ابن عطية: (هذا الخطابُ كلُّه لموسى عليه السلامُ وكذلك ما بعدَه، وقال النقَّاش: «الخطابُ بـــ فَلَا يَصُدَّنَّكَ لمحمد عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ»، وهذا بعيد).

((تفسير ابن عطية)) (40/4).

وممَّن نصَّ على أنَّ الخطاب هنا لموسى عليه السَّلام: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (41/16).

وممَّن ذهب إلى أنَّ الخطاب لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: مقاتلُ بنُ سليمانَ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (24/3).

وقال ابنُ كثير: (المرادُ بهذا الخطابِ آحادُ المكلَّفين، أي: لا تتَّبعوا سبيلَ مَن كَذَّب بالساعةِ، وأقبَل على ملاذِّه في دنياه، وعصَى مولاه، واتَّبعَ هواه، فمَن وافَقَهم على ذلك فقد خاب وخَسِر).

((تفسير ابن كثير)) (278/5).

سورةُ طه

الآيات (17–23)

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ
فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18) قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20)
قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ
مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)

غريب الكلمات:

أَتَوَكَّأُ: أي: أعتمِدُ عليها، والتوكُّؤ: التحاملُ على العصا في المشْيِ، وأصلُ (وكا): يَدُلُّ على شدِّ شَيءٍ وشِدَّةٍ، ومنه: تَوَكَّأْتُ على كذا، أي اتَّكَأْتُ؛ لأنَّه يتشَدَّدُ به ويَتقَوَّى به.

وَأَهُشُّ: أي: أضرِبُ بها الشَّجرَ؛ لِيَسقُطَ وَرَقُه فترعاه الغَنَمُ، والهَشُّ: يقارِبُ الهزَّ في التَّحريكِ.

مَآرِبُ: أي: حاجاتٌ، واحِدُها: مَأرُبةٌ ومأرَبةٌ ومأْرِبةٌ، وأصلُ (أرب) هنا: الحاجةُ.

سِيرَتَهَا: أي: هَيئتَها، وحالتَها التي كانت عليها مِن كَونِها عُودًا، وأصلُ (سير): يدُلُّ على مُضِيٍّ وجرَيانٍ.

جَنَاحِكَ: أي: جَنْبِك تَحتَ العضُدِ، وأصلُ (جنح): يدلُّ على المَيلِ، وسُمِّيَ الجناحانِ جَناحَينِ؛ لِمَيلِهما في الشِّقَّينِ.

سُوءٍ: أي: آفةٍ أو بَرَصٍ، والسُّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ، وأصلُ (سوء): يدلُّ على قُبحٍ.

تفسير الآيات:

وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (17).

أي: قال الله: وما تلك التي تمسِكُها بيَدِك اليُمنى يا موسى؟

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى (18).

قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا.

أي: قال موسى: هي عصايَ، أعتَمِدُ عليها في حالِ قيامي، وحينَ أمشي.(178)

وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي.

أي: وأضرِبُ بها الشَّجرَ؛ لِيَسقُطَ ورقُه، فتَرْعاه غَنَمي.(179)

---

(178) انتقد ابنُ كثير (٩/ ٣٢٠) مستندًا إلى الدلالة العقلية ما جاء في شأن عصا موسى مِن الأمور الخارقة، فقال: «وقد تكلَّف بعضُهم لذِكرِ شيء من تلك المآرب التي أُبْهِمَتْ، فقيل: كانت تضيء له بالليل، وتحرس له الغنم إذا نام، ويغرسها فتصير شجرة تُظِلُّه، وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة.

والظاهر أنها لم تكن كذلك، ولو كانت كذلك لما استنكر موسى صيرورتها ثعبانًا، فما كان يَفِرُّ منها هاربًا، ولكن كل ذلك من الأخبار الإسرائيلية.

وكذا قول بعضهم: إنها كانت لآدم – عليه السلام –.

وقول الآخر: إنها هي الدابة التي تخرج قبل يوم القيامة».

(179) قال ابنُ كثير: (قال عبد الرحمن بن القاسم، عن الإمام مالك: والهشُّ: أنْ يضَعَ الرجُلُ المِحجَنَ [أي: العصا المعوجَّة] في الغُصنِ، ثمَّ يحرِّكَه حتى يسقُطَ وَرَقُه وثَمَرُه، ولا يُكسَرُ العودُ؛ فهذا الهشُّ، ولا يُخبَط [أي: لا يُضرَبُ ضربًا شديدًا].

وكذا قال ميمونُ بنُ مهرانَ أيضًا).

((تفسير ابن كثير)) (279/5).

وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى.

أي: ولي في عَصاي هذه حوائجُ أخرى، فأنتَفِعُ بها أيضًا في غيرِ الاتِّكاءِ عليها، والهشِّ بها.(180)

قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى (19).

أي: قال الله: ألقِ عَصاك التي بيَدِك اليُمنى يا موسى.

كما قال تعالى: وَأَلْقِ عَصَاكَ [النمل: 10].

فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (20).

أي: فألقَى موسى عصاه دونَ تردُّدٍ، فتحوَّلَتْ فورًا بأمرِ اللهِ إلى حيَّةٍ حَقيقيَّةٍ عظيمةٍ، تتحرَّكُ بسُرعةٍ وخِفَّةٍ!

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (21).

قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ.

أي: قال الله لموسى: خُذِ الحيَّةَ، ولا تخَفْ منها؛ فلن تَضُرَّك.

---

(180) وقد تَعَرَّض قومٌ لتعدادِ منافعِ العَصا -بل ألَّف في ذلك بعضُ المتأخرينَ- فذكَروا مِن ذلك أشياءَ: منها ركزُها سترةً للصلاةِ، وسوقُ الدابةِ بها، والاعتمادُ عليها في المشيِ، وأنَّها تُؤَمِّنُ العثرَةَ، ويُلْقَى عليها الكساءُ فتقي الحرَّ، وتُدْني ما بَعُد، ويُقرعُ بها الأبوابُ، وتقي مِن عَقُورِ الكلابِ إلى غيرِ ذلك.
يُنظر ((تفسير القرطبي)) (187/11)، ((تفسير الشوكاني)) (427/3).

كما قال تعالى: فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ [القصص: 31].

سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى.

أي: سنردُّ الحيَّةَ إلى هيئتِها وطبيعتِها الأُولَى، فتعودُ عصًا كما كانت.

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى (22).

وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ.

أي: وأدخِلْ يَدَك في جَيبِك –وهو فَتحةُ القَميصِ التي يَبرزُ منها العُنُقُ – وألصِقْها بجَنبِك تحت عضُدِك.

كما قال تعالى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ [النمل: 12].

وقال سُبحانَه: اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ [القصص: 32].

تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى.

أي: تخرُجْ يَدُك بعدَ أنْ تضعَها تحتَ عَضُدِك ساطعةَ البَياضِ، كالثَّلجِ مِن غَيرِ عَيبٍ ومَرَضٍ، كبَرَصٍ أو بَهَقٍ وغيرِه، والحالُ أنَّها علامةٌ أخرى تدلُّ على نبوَّتِك معَ آيةِ العصا التي تحوَّلتْ حيَّةً.

لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23).

أي: فعَلْنا ذلك؛ لنُريَك مِن أدِلَّتِنا الكُبرى الدَّالَّةِ على عَظيمِ قُدرتِنا، وصِحَّةِ رِسالتِك، فيَطمَئِنَّ قَلبُك، وتَثِقَ بوَعدِ اللهِ بحِفظِك ونَصرِك، وتكونَ حُجَّةً على من أُرسِلتَ إليهم.

سورةُ طه

الآيات (24–36)

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26)
وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27) يَفْقَهُوا قَوْلِي (28) وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29) هَارُونَ
أَخِي (30) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33)
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا (34) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا (35) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36)

غريب الكلمات:

اشْرَحْ: أي: وسِّع ونوِّرْ، وأصلُ (شرح): يدلُّ على الفَتحِ والبَيانِ.

وَزِيرًا: أي: عَونًا، ومُؤازِرًا، ومُؤيِّدًا، وأصلُ الوِزارةِ مِن الوِزْرِ، كأنَّ الوَزيرَ يحمِلُ عَن السُّلطانِ الثِّقلَ والشُّغلَ، وأصلُ (وزر): يدلُّ على الثِّقلِ في الشَّيءِ.

أَزْرِي: أي: ظَهْري، ومنه يُقالُ: آزَرْتُ فلانًا على الأمرِ، أي: قوَّيتُه عليه، وكنتُ له فيه ظَهيرًا، وأصلُ الأَزْرِ: القوَّةُ والشِّدةُ.

سُؤْلَكَ: أي: أُمنيتَك وطَلِبَتَك، والسُّؤْلُ: الحاجةُ التي تحرِصُ النَّفسُ عليها.

تفسير الآيات:

اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (24).

أي: اذهبْ –يا موسى– إلى فِرعونَ مَلِكِ مِصرَ، فادعُه إلى توحيدِ الله وطاعتِه، وإرسالِ بني إسرائيلَ معك، وعَدَمِ تَعذيبِهم؛ لأنَّه تجاوَزَ حدَّه، فادَّعى الربوبيَّةَ، وتمرَّدَ على ربِّه، وعلا في الأرضِ، وأفسَدَ فيها.

كما قال تعالى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى [النازعات: 17 – 19].

قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (25).

أي: قال موسى: يا ربِّ وسِّعْ لي صدري؛ لأعِيَ ما تُوحيه إليَّ، وأتجرَّأَ على مخاطبةِ فِرعَونَ، وأتحمَّلَ أذاه ووعيدَه، فلا يضيقَ صدري.

وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (26).

أي: وسَهِّلْ عليَّ –يا ربِّ– القيامَ بشأنِ الرِّسالةِ، ودَعوةِ فِرعَونَ، واجعَلْ ما تُكَلِّفُني به مِن الطاعاتِ، وما يعترِيني مِن الشَّدائدِ في سبيلِك هيِّنًا عليَّ.

وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي (27).

أي: وأطلِق الانحِباسَ الشَّديدَ الذي في لِساني؛ كي ينطَلِقَ، ويسْهُلَ عليَّ الكلامُ.(181)

يَفْقَهُوا قَوْلِي (28).

أي: فيفهَمَ النَّاسُ قولي حينَ أُخاطِبُهم.

وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي (29).

أي: واجعَلْ لي مُعينًا مِن أهلِ بيتي أعتَمِدُ عليه، فيَحمِلُ عني بعضَ ثِقَلِ أمرِ الدَّعوةِ والرِّسالةِ، ويساعِدُني على ما كلَّفتَني به.

هَارُونَ أَخِي (30).

أي: اجعَلْ هارونَ أخي وزيري.

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ موسى: وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ [القصص: 34].

---

(181) قال السعدي: (وكان في لسانِه ثقلٌ لا يكادُ يُفهَمُ عنه الكلامُ، كما قال المفسِّرونَ).
((تفسير السعدي)) (ص: 504).
قال ابنُ كثيرٍ: (ما سأل أنْ يزولَ ذلك بالكليَّة، بل بحيثُ يزولُ العِيُّ، ويحصُلُ لهم فَهمُ ما يُريدُ منه، وهو قَدرُ الحاجةِ. ولو سأل الجميعَ لزال، ولكنَّ الأنبياءَ لا يسألون إلا بحَسَبِ الحاجةِ، ولهذا بَقِيَتْ بقيَّةٌ، قال اللهُ تعالى إخبارًا عن فِرعَونَ أنَّه قال: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ [الزخرف: 52] أي: يُفصِحُ بالكلامِ.
وقال الحسنُ البصري: وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي قال: حلَّ عقدةً واحدةً، ولو سأل أكثَرَ مِن ذلك أُعطي).
((تفسير ابن كثير)) (282/5).

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا [الفرقان: 35].

وقال تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا [مريم: 53].

اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (31).

أي: قَوِّ بهارونَ ظَهري، وأعِنِّي به.

كما قال تعالى: قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ [القصص: 35].

وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (32).

أي: واجمَعْ بيني وبينه في النبُوَّةِ، وتبليغِ الرِّسالةِ، فاجعَلْه نبيًّا مِثلَ ما جعلْتَني نبيًّا، وأرسِلْه معي إلى فِرعَونَ.

القِراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

1- قراءةُ أَشْدُدْ بهمزةٍ مفتوحةٍ مقطوعةٍ، وَأُشْرِكْهُ بضَمّ الهمزةِ: على وجهِ الإخبارِ، فأخبرَ موسى عليه السلامُ بذلك عن نفسِه، فالمعنى: إن فعلتَ ذلك أَشدُدْ به أزري، وأُشرِكْه في أمري.(182)

2- قراءةُ اشْدُدْ بوَصلِ الألفِ، وَأَشْرِكْهُ بفتحِ الهمزةِ، أتَى بالكلامِ على طريقِ الدُّعاءِ، أي: اللهُمَّ اشدُدْ به أزري، وأَشرِكْه في أمري.(183)

كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا (33).

أي: اجعَلْ هارونَ أخي عضُدًا لي؛ مِن أجلِ أنْ نتعاوَنَ معًا على عبادتِك، فنصلِّيَ لك، ونعظِّمَك بالتَّسبيحِ لك كثيرًا، تنزيهًا عمَّا لا يليقُ بك.(184)

---

(182) قرأ بها ابنُ عامرٍ.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (320/2)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: 202).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 241)، ((معاني القراءات)) للأزهري (144/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 452).

(183) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (320/2)، ((البدور الزاهرة)) لعبد الفتاح القاضي (ص: 202).

ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 241)، ((معاني القراءات)) للأزهري (144/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 452).

(184) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (56/16)، ((تفسير القرطبي)) (194/11)، ((تفسير النسفي)) (363/2)، ((تفسير السعدي)) (ص: 504).

قال القرطبي: (قيل: معنى نُسَبِّحَكَ: نصلِّيَ لك.

ويحتمَلُ أنْ يكونَ التَّسبيحُ باللِّسانِ، أي: ننزِّهَك عما لا يليقُ بجلالك).

﴿وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا﴾ (34).

أي: ونذكُرَك ذِكرًا كثيرًا فنُثنيَ عليك ونحمَدَك على نِعَمِك، ونَصِفَك بما يليقُ بك من صِفاتِ كمالِك.

﴿إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا﴾ (35).

أي: إنَّك كنتَ بنا مُبصِرًا، لا يخفَى عليك شَيءٌ مِن أمْرِنا.(185)

((تفسير القرطبي)) (11/194).

ومن اختار أنَّ المرادَ بالتسبيحِ: الصلاةُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والسمعاني، وابنُ الجوزي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/26)، ((تفسير السمرقندي)) (2/394)، ((تفسير الثعلبي)) (6/243)، ((تفسير السمعاني)) (3/328)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/157).

ومن اختار أنَّ المرادَ بالتسبيحِ: التَّسبيحُ باللِّسانِ: أبو حيان، والنيسابوري، وأبو السعود، والشوكاني، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (7/329)، ((تفسير النيسابوري)) (4/539)، ((تفسير أبي السعود)) (6/13)، ((تفسير الشوكاني)) (3/429)، ((تفسير القاسمي)) (7/124).

ومن جمَع بينَ المعنيينِ السابقينِ: النَّسَفي.

يُنظر: ((تفسير النسفي)) (2/363).

وذهَب البقاعيُّ إلى ما هو أعمُّ مِن ذلك، فقال: (كَيْ نُسَبِّحَكَ أي: بالقولِ، والفعلِ؛ بالصلاةِ وغيرِها).

((نظم الدرر)) للبقاعي (12/285).

(185) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/56).

قال ابنُ كثيرٍ: (قولُه: إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا أي: في اصطفائِك لنا، وإعطائِك إيَّانا النبوةَ، وبعثتِك لنا إلى عدوِّك فرعونَ، فلك الحمدُ على ذلك).

((تفسير ابن كثير)) (5/283).

وقال السعدي: (إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا تعلمُ حالَنا، وضعفنا، وعجزَنا، وافتقارَنا إليك في كلِّ الأمورِ، وأنت أبصرُ بنا من أنفسِنا وأرحمُ، فمُنَّ علينا بما سألناك، وأجِبْ لنا فيما دعوناك).

((تفسير السعدي)) (ص: 504).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير ابن عاشور)) (16/214).

قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (36).

أي: قال الله: قد أُعطيتَ كلَّ ما طَلَبْتَه –يا موسى– مِن شَرحِ صَدرِك، وتيسيرِ أمرِك، وحَلِّ عُقدةٍ مِن لسانِك، وجَعْلِ أخيك هارونَ وزيرًا لك، وإشراكِه في الرِّسالةِ معك.

قال تعالى: قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ * وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ * قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ [القصص: 33 – 35].

سورةُ طه

الآيات (37–41)

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي
التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً
مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ
إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ
سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41)

غريب الكلمات:

التَّابُوتِ: أي: الصُّندوقِ، قيل: وزنُه فَعْلوتٌ من التَّوْبِ، فإنَّه لا يزالُ يَرجِعُ إليه ما يخرُجُ منه.

بِالسَّاحِلِ: أي: شاطئِ البَحرِ، قيل: أصلُه من: سَحَلَ الحديدَ، أي: بَرَدَه وقَشَرَه؛ لأنَّ الماءَ يفعلُ به ذلك، فقيل: أصلُه أنْ يكونَ مَسْحولًا، لكن جاء على لفظِ الفاعلِ، وقيل: بل هو على بابِه، وتُصوِّر منه أنَّه يَسْحَلُ الماءَ، أي: يُفرِّقه ويُضيِّعه.

يَكْفُلُهُ: أي: يَضُمُّه، والكَفالةُ: الضَّمانُ، وأصلُه يدُلُّ على تَضَمُّنِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ.

تَقَرَّ عَيْنُهَا: أي: تطيبَ نَفسُها، قيل: أصلُه من القُرِّ، أي: البَرِدِ، فقَرَّتْ عينُه، قيل: معناه بَرَدَت فصحَّت، وقيل: هو من القَرارِ، والمعنى: أعطاه اللهُ ما تَسكُنُ به عينُه، فلا يطمَحُ إلى غيرِه.

وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا: أي: اختبَرناك اختبارًا، والفتنةُ في الأصلِ: الاختِبارُ والابتِلاءُ والامتِحانُ، مأخوذةٌ من الفَتْنِ: وهو إدخالُ الذَّهَبِ النَّارَ؛ لتظهَرَ جودتُه مِن رداءتِه.

قَدَرٍ: أي: ميقاتٍ ووَقتٍ ومِقدارٍ، وأصلُ (قدر): يدُلُّ على مبلغِ الشَّيءِ وكُنهِه ونهايتِه.

وَاصْطَنَعْتُكَ: أي: اصطفيتُك، واختَرتُك، والاصطِناعُ: المبالغةُ في إصلاحِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (37).

أي: ولقد أحسنَّا إليك –يا موسى– وأنعَمْنا عليك قبلَ هذه المرَّة –أي: قبلَ نِعمةِ الوحيِ والرِّسالةِ وإجابةِ الدُّعاءِ– مرَّةً أخرى، وأنت طفلٌ صغيرٌ.

إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى (38).

أي: وذلك قد وقع حينَ ألهَمْنا أمَّك في شأنِك ما يُلْهَمُ.(186)

كما قال تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ [القصص: 7].

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (39).

---

(186) قال الواحدي: (إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ، قال المفسرونَ: وَحْي إلهامٍ).
((البسيط)) (393/14).
وقال ابن عاشور: (الوحيُ هنا: وحيُ الإلهامِ الصادقِ.
وهو إيقاعُ معنًى في النفسِ ينثَلِجُ له نفسُ المُلْقَى إليه، بحيثُ يجزمُ بنجاحِه فيه، وذلك مِن توفيقِ الله تعالى.
وقد يكونُ بطريقِ الرُّؤيا الصالحةِ التي يُقذَفُ في نفسِ الرَّائي أنها صِدقٌ).
((تفسير ابن عاشور)) (216/16).

أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ.

أي: فأوحَينا إليها أنْ ألْقِ ابنَك موسى في الصُّندوقِ.

فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ.

أي: فاطرَحيه وهو في الصُّندوقِ في نهرِ النِّيلِ.

فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ.

أي: فلْيُلقِ نهرُ النِّيلِ موسى وهو في داخِلِ الصُّندوقِ بالشَّاطئِ.

يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ.

أي: وحينئذٍ يأخُذُ موسى فِرعَونُ الذي هو عدوٌّ لي وعدوٌّ لموسى.

كما قال تعالى: فَالْتَقَطَهُ آَلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا [القصص: 8].

وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي.

أي: أحبَبْتُك وجعلتُك محبوبًا لكلِّ من يراك، ووضعتُ لك القَبولَ بينَ النَّاسِ.(187)

---

(187) قال الواحدي: (قال في روايةِ سعيدِ بن جُبَير: «ألقى عليه منها [أي: امرأةِ فرعونَ] محبَّةً لم يُلقَ منها على أحدٍ مِن البشَـر» وهذا كلامُ المفسِّرينَ، فأمَّا ظاهِرُ اللَّفظِ فإنَّه يقتضي أنَّ اللهَ تعالى أحبَّه، وحُبُّ الله تعالى إيَّاه أعظَمُ نِعمةٍ وأجملُ إحسانٍ).

((البسيط)) (397/14).

وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي.

أي: ولتُغذَّى وتُربَّى في قصر فِرعَون على ما أُريدُ بمرأى منِّي، وتحت حِفْظي ورعايتي.(188)

وقال ابنُ عثيمين: (فقولُه: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي: اختلفَ المفَسِّرونَ في معناها؛ فمِنهم من قال: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي، يعني: أنِّي أحبَبْتُك.

ومنهم مَن قال: ألقيتُ عليك محبَّةً مِنَ النَّاسِ، والإلقاءُ مِنَ اللهِ، أي: أنَّ من رآك أحبَّك، وشاهِدُ هذا أنَّ امرأةَ فِرعونَ لَمَّا رأته أحبَّته وقالت: لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا [القصص: 9].

ولو قال قائلٌ: أيمكِنُكم أن تحمِلوا الآيةَ على المعنَيَينِ؟ لقُلْنا: نعمْ، بناءً على القاعدةِ، وهي: أنَّ الآيةَ إذا كانت تحمِلُ معنيَينِ لا مُنافاةَ بينهما، فإنَّها تُحمَلُ عليهما جميعًا؛ فموسى عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ محبوبٌ مِن اللهِ عزَّ وجلَّ، ومحبوبٌ مِن النَّاسِ، إذا رآه النَّاسُ أحبُّوه، والواقِعُ أنَّ المعنَيَينِ متلازمانِ؛ لأنَّ اللهَ تعالى إذا أحبَّ عبدًا ألقى في قُلوبِ العبادِ محبَّتَه، ويُروى عن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنه أنَّه قال: أحَبَّه اللهُ، وحبَّبه إلى خَلقِه).

((شرح العقيدة الواسطية)) (319/1).

وقال الثعلبي: (قولُه سبحانه: وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي قال ابنُ عباسٍ: أحبَّه وحبَّبه إلى خلقِه).

((تفسير الثعلبي)) (244/6).

وقال البقاعي: (...

لتكونَ أهلًا لما أريدُك له).

((نظم الدرر)) (287/12).

اخْتُلِفَ في تفسير قوله: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ على قولين: الأول: أنه حببه إلى عباده، ورزَقه القبول بينهم.

الثاني: أنه حسّن خَلْقَه.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٥٨) القول الأول لظاهر اللفظ، فقال: «والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله ألقى محبته على موسى، كما قال -جل ثناؤه-: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾، فحببه إلى آسية امرأة فرعون حتى تبنته وغذته وربته، وإلى فرعون حتى كفَّ عنه عاديته وشرَّه.

وقد قيل: إنما قيل: ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ لأنه حببه إلى كل من رآه.

ومعنى ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾: حببتك إليهم، يقول الرجل لآخر إذا أحبه: ألقيت عليك رحمتي، أي: محبتي».

ووافق ابنُ عطية (٦/ ٩٥) ابنَ جرير، فقال: «وأقوى الأقوال: أنّه القبول».

(188) قال ابنُ عاشور: (قرأه الجُمهورُ بكسرِ اللَّامِ، على أنَّها لامُ كي، وبنَصبِ فِعلِ «لِتُصنَعَ»، وقرأه أبو جعفرٍ بسكونِ اللَّامِ، على أنَّها لامُ الأمرِ، وبجَزمِ الفِعلِ على أنَّه أمرٌ تكوينيٌّ، أي: وقلنا: لِتُصنَعْ).

((تفسير ابن عاشور)) (218/16).

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (40).

إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ.

أي: حينَ[189] كانت أختُك تمشي لِتتبَّعَك حتى وجدَتْك في أيدي آلِ فِرعَونَ يَطلُبونَ لك مُرضِعًا فتَقولُ لهم: هل أدلُّكم على من يضُمُّ هذا الطِّفلَ إليه، ويقومُ بمَصالحِه وخِدمتِه، فيُرضِعُه ويُرَبِّيه ويحفَظُه؟

ويُنظر: ((الدر المصون)) للحلبي (36/8).

وقال الشوكاني: (قيل: واللامُ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ، أي: فعَلْتُ ذلك لِتُصنعَ.

وقيل: متعلّقةٌ بـ «ألقيتُ».

وقيل: متعلقةٌ بما بعده، أي: ولِتُصنعَ على عيني قدَّرْنا مشيَ أُختِك).

((تفسير الشوكاني)) (431/3).

قال ابنُ عثيمين: (ظاهِرُ الكلامِ: أنَّ تربيةَ موسى تكونُ على عَينِ اللهِ يرعاه ويكلؤُه بها.

وهذا معنى قَولِ بَعضِ السَّلَفِ: «بمرأًى منِّي»؛ فإنَّ اللهَ تعالى إذا كان يكلؤُه بعَينِه لزم من ذلك أنْ يراه، ولازِمُ المعنى الصَّحيحِ جُزءٌ منه، كما هو معلومٌ مِن دَلالةِ اللَّفظِ؛ حيث تكونُ بالمطابقةِ والتضَمُّنِ والالتزامِ).

((القواعد المثلى)) (ص: 67) بتصرف.

(189) قال الشنقيطي: (اختُلِف في العاملِ الناصبِ للظرفِ الذي هو «إذ» من قولِه: إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فقيل: هو «ألقيت» أي: ألقيتُ عليك محبةً مني حينَ تمشي أختُك.

وقيل: هو «تصنع» أي «تصنع على عيني» حينَ تمشي أختُك.

وقيل: هو بدلٌ مِن «إذ» في قولِه: إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ [طه: 38] .

قال الزمخشري: فإن قلتَ: كيف يصحُّ البدلُ، والوقتان مختلفان متباعدان؟ قلتُ: كما يصحُّ وإن اتَّسع الوقتُ، وتباعَد طرفاه أنْ يقولَ لك الرجلُ: لقيتُ فلانًا سنةَ كذا.

فتقولُ: وأنا لقيتُه إذ ذاك.

كما قال تعالى: وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ [القصص: 10 – 12].

فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ.

أي: فرَدَدْناك إلى أمِّك بعدَما صرتَ في أيدي آلِ فِرعَون؛ لكي تفرَحَ بلُقياك وسَلامتِك، ولا تحزَنَ على فَقدِك وفِراقِك.

وَقَتَلْتَ نَفْسًا.

أي: وقتلتَ الرجُلَ القبطيَّ من آلِ فِرعَونَ حينَ استغاثَك الإسرائيليُّ عليه، وكانَ قتلُه له خطأً.

كما قال تعالى: وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ [القصص: 15].

فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ.

وربما لقِيه هو في أوَّلِها، وأنت في آخرِها).
((أضواء البيان)) (4/10).
وقال ابنُ عطية: (العاملُ في إذْ فعلٌ مضمرٌ تقديرُه ومَنَنَّا إذْ).
((تفسير ابن عطية)) (4/45).

أي: فنجَّيناك من غمِّك لَمَّا أراد آلُ فِرعون قَتْلَك اقتصاصًا للقبطيِّ، ففَرَرت منهم خائفًا إلى مَدْين.

كما قال تعالى: وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ * فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [القصص: 20، 21].

وقال سُبحانَه: فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [القصص: 25].

وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا.

أي: واختَبرناك اختبارًا بإيقاعِك في المحنِ، وتخليصِك منها.[190]

---

(190) وقال الشوكاني: (وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا الفتنةُ تكونُ بمعنَى المحنةِ، وبمعنَى الأمرِ الشَّاقِّ، وكُلِّ ما يبتلَى به الإنسانُ، والفتونُ يجوزُ أنْ يكونَ مصدرًا...

أي: ابتليناكَ ابتلاءً، واختبرناكَ اختبارًا، ويجوزُ أنْ يكونَ جمعَ فِتْنَةٍ...

أيْ: خَلَّصناكَ مَرَّةً بعدَ مَرَّةٍ مِمَّا وَقَعْتَ فيه مِنَ المحَنِ الَّتي سَبَق ذكرُها قبلَ أنْ يصطفيَه اللَّهُ لرسالَتِه).

((تفسير الشوكاني)) (432/3).

ويُنظر: ((تفسير القاسمي)) (126/7)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (13/4).

ومِمَّن اختار أنَّ قوله تعالى: وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا يعني: اختبرناك وامتحنَّاك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ القيم، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (63/16، 70، 71)، ((تفسير القرطبي)) (198/11)، ((طريق الهجرتين)) لابن القيم (ص: 167)، ((تفسير السعدي)) (ص: 504).

قال ابنُ عطية: (وقالت فِرقةٌ: معناه: اختبرناك.

وعلى هذا التأويلِ لا يُرادُ إلَّا ما اختُبِرَ به موسى بعد بلوغِه وتكليفِه، وما كان قبل ذلك فلا يدخُلُ في اختبارِ موسى).

((تفسير ابن عطية)) (45/4).

فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ.

أي: فلمَّا خرجتَ من مصرَ خائفًا إلى مَدْينَ أقمتَ سنينَ كثيرةً عندَ أهلِها.

كما قال تعالى: فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ [القصص: 21–22].

وقال سُبحانَه: قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ * قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ * فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا [القصص: 27 – 29].

ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى.

وممَّن اختار أنَّ المعنى: خلَّصناك من المحَنِ تخليصًا: ابنُ عطية –ونسَبه لجمهورِ المفسرينَ–، والبقاعي.
يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (45/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (288/12).
قال ابنُ عباسٍ في روايةِ سعيد بن جبير، ومجاهدٌ في روايةِ ابنِ أبي نَجيحٍ: (الفُتونُ وقوعُه في محنةٍ بعدَ محنةٍ، خلَّصه اللهُ منها).
يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (206/3).
وقال ابنُ القيمِ: (لفظُ الفِتنةِ في كتابِ الله تعالى يُراد بها الامتِحانُ الذي لم يُفتَتَنْ صاحِبُه، بل خَلَص مِن الافتِتانِ، ويُرادُ بها الامتحانُ الذي حصَلَ معه افتِتانٌ؛ فمِنَ الأوَّلِ: قَولُه تعالى لموسى عليه السَّلامُ: وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا [طه: 40]).
((إغاثة اللهفان)) (159/2).

أي: ثم حَضَرتَ الآن –يا موسى– إلى الوادِ المقَدَّسِ في الوقتِ المحدَّدِ الذي قدَّرتُه، وأردتُ فيه منْحَك النبوَّةَ، وتكليفَك بإبلاغِ الرِّسالةِ إلى فِرعَونَ، بلا تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ.(191)

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (41).

أي: واصطفيتُك وأنعمتُ عليك بالنِّعَم الكثيرةِ؛ لأجل أنْ تكونَ لي حبيبًا مختَصًّا، ورسولًا لتبليغ رسالتي.(192)

كما قال تعالى: قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ [الأعراف: 144].

---

(191) قال الواحدي: (يعني: على رأسِ أربعينَ سنةً، وهو القَدرُ الذي يُوحَى فيه إلى الأنبياءِ، هذا قولُ المفسِّرينَ، والمعنى: على الوعدِ الذي وعَدَه الله وقَدَّره في عِلمِه أنْ يوحى إليه بالرِّسالةِ، وهو أربعون سنة).

((الوسيط)) (207/3).

وقال السعدي: (ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى أي: جئتَ مجيئًا قد مضى به القدرُ، وعلمه الله وأراده في هذا الوقتِ وهذا الزمانِ وهذا المكانِ، ليس مجيئُك اتفاقًا من غيرِ قصدٍ ولا تدبيرٍ منا، وهذا يدلُّ على كمالِ اعتناءِ الله بكليمِه موسى عليه السلام).

((تفسير السعدي)) (ص: 504).

(192) قال ابن تيمية: (لفظُ النفسِ في حقِّ الله تعالى ليس إلا الذَّاتَ والحقيقةَ؛ فقولُه: وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي كالتأكيدِ الدَّالِّ على مزيدِ المبالغةِ؛ فإنَّ الإنسان إذا قال: جعلت هذه الدارَ لنفسي وعَمَرتُها لنفسي؛ فُهِمَ منه المبالغةُ).

((بيان تلبيس الجهمية)) (425/7).

سورةُ طه

الآيات (42 – 55)

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42) اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا
لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى
(45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47) إِنَّا
قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48) قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49)
قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51)
قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52)

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53) كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55)

غريب الكلمات:

تَنِيَا: أي: تَفتُرا، وتُقَصِّرا، وتَضعُفا، وأصلُ (وني): يدُلُّ على ضَعْفٍ.

يَفْرُطَ: أي: يبادِرَ ويَعجَلَ، والفَرَطُ: التقَدُّمُ والسَّبقُ، وأصلُه يدُلُّ على إزالةِ شَيءٍ مِن مكانِه، وتَنحيتِه عنه.

يَطْغَى: أي: يستعصي ويتَعَدَّى، وأصلُ الطُّغيانِ: مجاوزةُ الحَدِّ في العِصيانِ.

بَالُ: أي: حالُ وشَأنُ، والبالُ: الحالةُ التي يُكترَثُ لها.

مَهْدًا: أي: فِراشًا قَرارًا ثابِتَةً، والمهدُ والمِهادُ: المكانُ المُمَهَّدُ الموطَّأُ، وأصلُ (مهد): يدُلُّ على توطئةٍ، وتسهيلٍ للشَّيءِ.

وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا: أي: سهَّل لكم طرُقًا داخِلةً في الأرض مُتخَلِّلةً فيها. والسَّلْكُ: إدخالُ الشَّيءِ في الشَّيءِ، والنُّفوذُ فيه، وأصلُ (سبل): يدُلُّ على امتدادِ شَيءٍ.

أَزْوَاجًا: أي: أنواعًا وأصنافًا، وأصلُ (زوج): يدُلُّ على مُقارنةِ شَيءٍ لِشَيءٍ.

نَبَاتٍ شَتَّى: أي: مختلِفِ الألوانِ والطُّعومِ والأنواعِ، وشتَّى جمعُ شتيتٍ، والشَّتيتُ: المتفرِّقُ، وأصلُ (شتت): يدُلُّ على تفرُّقٍ وتزَيُّلٍ.

لِأُولِي النُّهَى: أي: لأصحابِ العُقولِ. وواحِدُ النُّهى نُهْيَةٌ؛ سمِّيَ بذلك لأنَّه يُنتهَى به عن القَبائِحِ، وأصلُه يدُلُّ على الحَبسِ.

تَارَةً أُخْرَى: أي: مرةً أُخرَى، قيل: هو مِن تار الجرحُ: الْتَأم. وقيل: الفعلُ منها: أترت، أي: أعدتُ، تارةً، وتارتينِ، وتِيَرًا.

تفسير الآيات:

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي (42).

اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي.

أي: اذهَبْ أنت وأخوك هارونُ إلى فِرعَونَ بأدلَّتي وحُجَجي ومُعجِزاتي الدالَّةِ على صِدقِكما.(193)

كما قال تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا * فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا [الفرقان: 35، 36].

وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي.

---

(193) قال أبو السعود: (أي: بمُعجِزاتي التي أريتُكَها من اليدِ والعصا؛ فإنَّهما وإن كانتا اثنتينِ لكِنْ في كلٍّ منهما آياتٌ شتَّى، كما في قولِه تعالى: فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ [آل عمران: 97] ؛ فإنَّ انقلابَ العصا حيوانًا آيةٌ، وكَونَها ثعبانًا عَظيمًا لا يُقادَرُ قَدرُه آيةٌ أخرى، وسُرعةَ حَركتِه مع عِظَمِ جِرْمِه آيةٌ أخرى، وكَونَه مع ذلك مُسَخَّرًا له عليه السَّلامُ...

آيةٌ أخرى، ثمَّ انقِلابَها عصًا آيةٌ أخرى، وكذلك اليَدُ؛ فإنَّ بياضَها في نفسِه آيةٌ، وشُعاعَها آيةٌ، ثمَّ رُجوعَها إلى حالتِها الأولى آيةٌ أخرى).

((تفسير أبي السعود)) (6/17).

وقال الشنقيطي: (قال بَعضُ أهلِ العِلمِ: المرادُ بالآياتِ في قَولِه هنا: اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي الآياتُ التِّسعُ المذكورةُ في قَولِه تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ [الإسراء: 101]، وقَولِه: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ [النمل: 12]، والآياتُ التِّسعُ المذكورةُ هي: العصا، واليدُ البيضاءُ...

إلى آخِرِها).

((أضواء البيان)) (4/14).

ويُنظر: ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/289-290)، ((تفسير السعدي)) (ص: 506).

أي: ولا تَضعُفا، ولا تَفتُرا عن ذِكري، بل لازِماه واستَمِرَّا عليه.(194)

اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43).

أي: اذهَبا إلى فِرعَونَ؛ لأنه تمرَّدَ وتجاوَزَ الحَدَّ في الكفرِ والعِصيانِ، والتكَبُّرِ والعُدوانِ.

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44).

فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا.

أي: فقُولا له عندَ دعوتِه إلى الله قولًا رقيقًا لطيفًا، لا غِلظةَ فيه، ولا تنفيرَ.(195)

---

(194) وممن اختار المعنى المذكورَ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر المصادر السابقة.

قال ابنُ كثير: (والمرادُ أنهما لا يفتُرانِ في ذكرِ الله، بلْ يذكرانِ الله في حالِ مواجهةِ فِرعَونَ، ليكونَ ذكرُ الله عونًا لهما عليه، وقوةً لهما، وسلطانًا كاسرًا له).

((تفسير ابن كثير)) (5/294).

وقال الرسعني: (وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي أي: لا تَفْتُرا...

المعنى: لا تنسياني، وليكنْ دأبُكما وشعارُكما ذِكْري.

وقيل: المعنى: لا تَنِيَا في تبليغِ رسالتي، وهو يدخلُ في القولِ الأوَّلِ؛ لأنَّ تبليغَ الرسالةِ مِن جملةِ ذِكرِ الله تعالى).

((تفسير الرسعني)) (4/510).

(195) قال السعدي: (وقد فُسِّر القولُ اللَّيِّنُ في قولِه: فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى [النازعات: 18، 19] فإنَّ في هذا الكلامِ مِن لطفِ القولِ، وسهولتِه، وعدمِ بشاعته ما لا يخفَى على المتأمِّلِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 506).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةِ أبي صالحٍ عنه، ومقاتلٌ.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/28)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/160).

وقيل غير ذلك في تفسيرِ القولِ اللينِ.

كما قال تعالى: اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى * وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى [النازعات: 17 – 19].

لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى.

يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (3/160).

ذكر ابنُ عطية في القول الليّن الذي أمر الله به موسى وهارون أن يقولاه لفرعون قولين: الأول: أنه الكنية.

الثاني: أنه تحسين الكلمة.

وقد رجّح ابنُ عطية (٦/ ٩٧) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الثاني، بقوله: «وهذا هو الوجه، وذلك أنّ كل مَن يريد دعاء إنسان إلى أمر يكرهه فإنّما الوجه أن يُحَرِّر في عبارته بالمعنى الذي يُريد حتى لا يخل به ولا يخرمنه، ثم يجتهد بعد ذلك في أن تكون عبارته لطيفة، ومقابلته لينة؛ وذلك أجلب للمراد، فأمر الله تعالى موسى وهارون أن يسلكا مع فرعون إكمال الدعوة في لين من القول».

أي: اذهَبا إلى فِرعَونَ وأنتما تَرجُوانِ[196] بقَولِكما اللَّيِّنِ أن يتذكَّرَ ما هو غافِلٌ عنه مِن التَّوحيدِ الموافِقِ لِما في فطرتِه مِن العِلمِ الذي يَعرِفُ به رَبَّه، ويَعرِفُ إنعامَه عليه وإحسانَه إليه، وافتقارَه إليه، فيَدعُوَه ذلك إلى الإيمانِ باللهِ والرُّجوعِ عن ضلالِه؛ أو يخشى حُلولَ العَذابِ فيَترُكَ طغيانَه، ويُطيعَ ربَّه.[197]

---

(196) قال الشنقيطي: («لعلّ» في القرآنِ بمعنى التعليلِ، إلا التي في سورةِ «الشعراء» : وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ [الشعراء: 129] فهي بمعنى كأنَّكم...

وقال بعضُ أهلِ العلمِ: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى معناه على رجائِكما وطمعِكما، فالترجِّي، والتوقعُ المدلولُ عليه بـ «لعلَّ» راجعٌ إلى جهةِ البشرِ.

وعزا القرطبيُّ هذا القولَ لكبراءِ النحويينَ، كسيبويه، وغيرِه).

((أضواء البيان)) (16/4).

وقال الرسعني: (وقال الفراءُ وكثيرٌ مِن المفسرينَ والنَّحْويينَ: «لعله» بمعنى: لكي).

((تفسير الرسعني)) (512/4).

وممَّن قال بأنَّ لعلَّ هنا تعني الرَّجاءَ الصَّادر من موسى وهارون: الواحدي، وابنُ عطية، والقرطبي وأبو حيان، ومحمد رشيد رضا.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 696)، ((تفسير ابن عطية)) (46/4)، ((تفسير القرطبي)) (11/200– 201)، ((تفسير أبي حيان)) (337/7)، ((تفسير المنار)) لمحمد رشيد رضا (156/1).

قال ابن عاشور: (الترجِّي المستفادُ مِن «لَعَلَّ» إما تمثيلٌ لشأنِ الله في دعوةِ فِرعَون بشأنِ الراجي، وإما أن يكون إعلامًا لموسى وفِرعَونَ بأن يرجوا ذلك).

((تفسير ابن عاشور)) (225/16).

قال ابنُ القيِّم: (التَّعليلُ بـ «لعلَّ»، وهي في كلامِ اللهِ سُبحانَه وتعالى للتَّعليلِ مجرَّدةً عن معنى الترجِّي؛ فإنَّها إنَّما يقارنُها معنى الترجِّي إذا كانت مِنَ المخلوقِ، وأمَّا في حقِّ مَن لا يصِحُّ عليه الترجِّي؛ فهي للتَّعليلِ المحضِ، كقَولِه تعالى: اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ...، ومنه قولُه: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، وقولُه: إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وقولُه: لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ، لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى؛ فـ «لعَلَّ» في هذا كُلِّه قد أُخلِصَت للتَّعليلِ، والرَّجاءُ الذي فيها متعَلِّقٌ بالمُخاطَبينَ).

((شفاء العليل)) (ص: 196).

قال ابنُ جرير: (قولُه: لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى اختُلِفَ في معنى قَولِه: لَعَلَّهُ في هذا الموضِعِ، فقال بعضُهم: معناها هاهنا الاستفهامُ، كأنَّهم وجَّهوا معنى الكلامِ إلى: فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا فانظُرا هل يتذكَّرُ ويُراجِعُ، أو يخشى اللهَ فيرتَدِعَ عن طُغيانِه...

قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45).

أي: قال موسى وهارونُ: ربَّنا إنَّنا نخافُ مِن فِرعونَ أن يعجِّلَ بعُقوبتِنا قبلَ أن ندعُوَه إلى ما أمَرْتَنا به، أو أن يتكبَّرَ ويتمرَّدَ على طاعتِك.

قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46).

وقال آخرون: معنى «لعل» هاهنا «كي»، ووجَّهوا معنى الكلامِ إلى اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فادعُواه وعِظاه ليتذَكَّرَ أو يخشى، كما يقولُ القائلُ: اعمَلْ عَمَلَك؛ لعلَّك تأخذُ أجرَك، بمعنى: لتأخُذَ أجرَك، وافرُغْ مِن عَمَلِك لعلَّنا نتغدَّى، بمعنى: لنتغدَّى، أو حتى نتغَدَّى، ولكلا هذين القولينِ وجهٌ حَسَنٌ، ومذهبٌ صَحيحٌ).

((تفسير ابن جرير)) (75/16).

ويُنظر: ((تفسير القرطبي)) (201/11).

(197) وقال ابنُ كثير: (التَّذَكُّرُ: الرُّجوعُ عن المحذورِ، والخشيةُ: تحصيلُ الطَّاعةِ).

((تفسير ابن كثير)) (295/5).

وقال الشوكاني: (والتذكيرُ: النَّظَرُ فيما بَلَّغاه مِن الذكرِ، وإمعانُ الفكرِ فيه حتَّى يكونَ ذلك سببًا في الإجابةِ، والخشيةُ هي خشيةُ عقابِ اللَّهِ الموعودِ به على لسانِهما.

وكلمةُ «أو» لمنعِ الخلُوِّ دونَ الجمعِ).

((تفسير الشوكاني)) (433/3).

قال البقاعي: (لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ما مرَّ له من تطويرِ الله له في أطوارٍ مختلفةٍ، وحمله فيما يكرهُ على ما لم يقدِرْ على الخلاصِ منه بحيلةٍ، فيعلمُ بذلك أنَّ الله ربُّه، وأنَّه قادرٌ على ما يريدُ منه، فيرجع عن غيِّه فيؤمن أَوْ يَخْشَى أي: أو يصلُ إلى حالِ مَن يخافُ عاقبةَ قولِكما لتوهُّمِ الصدقِ).

((نظم الدرر)) (290/12).

وقال ابنُ عاشور: (أي: لعلَّه ينظرُ نظرَ المتبصرِ فيعرف الحقَّ، أو يخشى حلولَ العقابِ به فيطيعُ عن خشيةٍ لا عن تبصُّرٍ...، فالتذكُّر: أن يعرفَ أنه على الباطلِ، والخشية: أن يترددَ في ذلك فيخشى أن يكونَ على الباطلِ، فيحتاطُ لنفسِه بالأخذِ بما دعاه إليه موسَى).

((تفسير ابن عاشور)) (226/16).

قَالَ لَا تَخَافَا.

أي: قال اللهُ لهما: لا تخافَا مِن فِرعَونَ.

إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى.

أي: إنَّني معكما بالنَّصرِ والإعانةِ والحِفظِ والتَّأييدِ، أسمَعُ كلامَكما وكلامَ فِرعَونَ، وأراكم وأرى أفعالَكم وأحوالَكم جميعًا؛ فاطمَئِنَّا ولا تخافا منه.

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى (47).

فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ.

أي: فاذهَبا إلى فِرعَونَ فقولا له: إنَّا رَسولانِ إليك مِن رَبِّك الذي خلَقَك وربَّاك.

كما قال تعالى: فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 16، 17].

فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ.

أي: فأطلِقْ بني إسرائيلَ لِيذهَبوا معنا، ولا تُعَذِّبْهم باستعبادِهم، وتَذبيحِهم، وتكليفِهم الأعمالَ الشاقَّةَ.(198)

قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ.

أي: قد أتيناك بمعجزةٍ من ربِّك تدلُّ على صِدقِنا.(199)

---

(198) وممن اختار المعنى المذكورَ في قولِه: وَلَا تُعَذِّبْهُمْ: ابنُ عطيةَ، والرسعني، وابنُ جُزي، والبقاعي، والشوكاني.
يُنظر المصادر السابقة.
قال الشنقيطي: (العذابُ الَّذي نَهى اللَّهُ فرعونَ أنْ يفعلَه ببني إسرائيلَ: هو المذكورُ في سورةِ «البقرةِ» في قولِه: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ [البقرة: 49]، وفي سورةِ «إبراهيمَ» في قوله تعالَى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ [إبراهيم: 6] ، وفي سورةِ «الأعرافِ» في قولِه تعالَى: وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ [الأعراف: 141]، وفي سورةِ «الدُّخانِ» في قولِه: وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ [الدخان: 30-31]، وفي سورةِ «الشُّعراءِ» في قوله: وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرَائِيلَ [الشعراء: 22]).
((أضواء البيان)) (4/16).
وممن اقتصر في تفسيرِ العذابِ على السخرةِ والأعمالِ الشاقةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والقرطبي، والعليمي، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/78)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 696)، ((تفسير القرطبي)) (11/203)، ((تفسير العليمي)) (4/297)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/229).

(199) قال الشنقيطي: (قولُه تعالى في هذه الآيةِ الكريمةِ: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ يرادُ به جنسُ الآيةِ الصَّادِقُ بالعصا واليد وغيرِهما؛ لدَلالةِ آياتٍ أُخَرَ على ذلك).
((أضواء البيان)) (4/17).

كما قال تعالى: قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ * قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ * وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ [الشعراء: 30 – 33].

وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى.

أي: والسَّلامةُ مِن سَخَطِ الله وعذابِه في الدُّنيا والآخرةِ لِمن اتَّبَعَ هدى اللهِ الَّذي شرَعَه لعبادِه.(200)

إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (48).

أي: إنَّا قد أوحَى اللهُ إلينا أنَّ عذابَه في الدُّنيا والآخرةِ على من كذَّب بالحقِّ، فلم يؤمِنْ باللهِ وما جاءَتْ به رسُلُه، وأعرَض عن اتِّباعِ الحقِّ، وطاعةِ اللهِ.

كما قال تعالى: فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى * لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى * الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى [الليل: 14–16].

---

(200) بيّن ابنُ عطية (٦/ ٩٨) أن قوله: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ يحتمل وجهين، فقال: «وقوله – عليه السلام –: ﴿مَنِ اتَّبَعَ الهُدى﴾ يحتمل أن يكون آخر كلام وفصْله، فيقوى أن يكون السلام بمعنى التحية، كأنهما رَغِبا بها عنه، وجريًا على العرف في التسليم عند الفراغ مِن القول، فسلَّما على متبع الهدى، وفي هذا توبيخ له.
وعلى هذه الجهة استعمل الناسُ هذه الآية في مخاطبتهم ومحاوراتهم.
ويحتمل أن يكون في درج القول، متصلًا بقوله: ﴿إنّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنا﴾، فيقوى على هذا أن يكون خبرًا بأنّ السلامة للمهتدين.
وهذان المعنيان قالت كلَّ واحد منهما فرقةٌ، لكن دون هذا التلخيص».
ورجّح ابنُ القيم (٢/ ١٨٠) الاحتمال الثاني، وانتقد الأول مستندًا إلى النظائر، ودلائل العقل، فقال: «قول موسى: ﴿والسلام على من اتبع الهدى﴾ فليس بسلام تحية؛ فإنه لم يبتدئ به فرعون، بل هو خبر محض، فإن من اتبع الهدى له السلام المطلق دون مَن خالفه، فإنه قال له: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إسْرائِيلَ ولا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِن رَبِّكَ والسَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الهُدى إنّا قَدْ أُوحِيَ إلَيْنا أنَّ العَذابَ عَلى مَن كَذَّبَ وتَوَلّى﴾ أفلا ترى أن هذا ليس بتحية في ابتداء الكلام ولا خاتمته، وإنما وقع متوسطًا بين الكلامين إخبارًا محضًا عن وقوع السلامة وحلولها على مَن اتبع الهدي، ففيه استدعاء لفرعون وترغيب له بما جُبِلَتِ النفوسُ على حُبِّه».

وقال سُبحانَه: فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّى * وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى * ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى * أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى * ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى [القيامة: 31 – 35].

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (49).

أي: فلمَّا أتَى موسَى وهارونُ إلى فِرعَونَ، وكلَّماه بما أمَرَهما الله، قال فِرعَونُ: فمَنْ ربُّكما الذي تعبُدانِه –يا موسى– وتَزعُمانِ أنَّه أرسَلَكما إليَّ؟

كما قال تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ [الشعراء: 23].

قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (50).

أي: قال موسى: ربُّنا الذي أعطى كلَّ مخلوقٍ صُورتَه التي تميِّزُه، وشَكلَه الذي يناسِبُه، وأعطى كلَّ ذكَرٍ وأنثَى الشَّكلَ المُناسِبَ له من جِنسِه في المناكحةِ، والأُلفةِ والاجتماعِ، وأعطاهم كلَّ ما يحتاجونَه، ثمَّ هدى كلَّ مخلوقٍ إلى تحصيلِ مَنافِعِه، والحَذَرِ مِن مضارِّه.(201)

---

(201) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾ على أربعة أقوال: الأول: معناه: أعطى كل شيء زوجه مِن جنسه، ثم هداه لنكاحه.

الثاني: أعطى كل شيء صورته، ثم هداه إلى معيشته ومطعمه ومشربه.

الثالث: أعطى كلًّا ما يصلحه، ثم هداه له.

الرابع: أنه هداهم إلى الألفة والاجتماع والمناكحة.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ٨١ – ٨٢) مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول، وانتقد ما عداه، فقال: «لأنه –جلَّ ثناؤه– أخبر أنه أعطى كلَّ شيء خلقه، ولا يُعْطى المعطى نفسه، بل إنما يعطى ما هو غيره؛ لأنّ العطية تقتضي المعطي والمعطى والعطية، ولا تكون العطية هي المُعْطى، وإذا لم تكن هي هو، وكانت غيره، وكانت صورة كل خلق بعض أجزائه؛ كان معلومًا

كما قال تعالى: الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ [السجدة: 7].

وقال سُبحانه: الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى [الأعلى: 2، 3].

قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51).

أي: قال فِرعَونُ: فما شأنُ القُرونِ الماضيةِ مِن قَبلِنا، الذين لم يؤمِنْ أهلُها باللهِ، وعَبَدوا غيرَه؟ فلو كان ما تقولُه حَقًّا، لم يخْفَ على القُرونِ الأُولى ولم يُهمِلوه.[202]

قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52).

أنه إذا قيل: أعطى الإنسان صورته إنما يعني: أنه أعطى بعض المعاني التي به مع غيره دعي إنسانًا، فكأن قائله قال: أعطى كل خلق نفسه.

وليس ذلك إذا وُجّه إليه الكلام بالمعروف من معاني العطية، وإن كان قد يحتمله الكلام.

فإذا كان ذلك كذلك فالأصوب مِن معانيه أن يكون مُوَجَّهًا إلى أن كل شيء أعطاه ربه مثل خلقه، فزوجه به، ثم هداه لما بينا».

ورجّح ابنُ عطية (٦/ ٩٩) القول الثاني مستندًا إلى العموم، ودلالة العقل بقوله: «وهذا القولُ أشرفُ معنًى، وأعمُّ في الموجودات».

وأما ابنُ القيم فقد رجّح (٢/ ١٨١ بتصرف) القول الثالث مستندًا إلى النظائر، فقال: «وقال الحسن وقتادة: أعطى كل شيء صلاحه.

وهذا هو القول الصحيح الذي عليه جمهور المفسرين؛ فيكون نظير قوله: ﴿قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [الأعلى: ٣]».

(202) قال ابنُ عطية (٦/ ٩٩): «وقول فرعون: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾ يحتمل أن يريد محاجته بحسب ما تقدم من القول ومناقضته فيه، فليس يتجه على هذا أن يريد إلا: ما بال القرون الأولى لم تُبعث إليها، ولم يوجد أمرك عندها؟ فَرَدَّ موسى – عليه السلام – علم ذلك إلى الله تعالى.

ويحتمل أن يريد فرعون قطع الكلام الأول، والرجوع إلى سؤال موسى عمَّن سلف من الناس روغانًا في الحجة وحَيْدَةً».

وقال ابنُ كثير (٩/ ٣٤٤) في معنى الآية: «أصحُّ الأقوال في معنى ذلك: أنّ فرعون لَمّا أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدَّر فهدى؛ شرع يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول، لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره؟».

قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ.

أي: قال له موسى: عِلمُ القُرونِ الماضيةِ وأعمالُ أهلِها كُلُّها مكتوبةٌ عندَ رَبِّي في اللَّوحِ المحفوظِ،[203] فهم إنْ لم يُؤمِنوا باللهِ ويَعبُدوه وَحدَه، فسيُجازيهم على ذلك ولا علمَ لي بهم.

لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى.

أي: لا يَشِذُّ عن عِلمِ رَبِّي شَيءٌ، ولا يفوتُه صَغيرٌ ولا كبيرٌ، ولا ينسَى شيئًا، فلا يُخطئُ في أفعالِه وتدبيرِ خَلقِه، ولا ينسى شيئًا مِن أعمالِ عبادِه وأحوالِهم وأخبارِهم، ولا يَترُكُ فِعلَ ما هو حِكمةٌ وصَوابٌ.

---

(203) ممن اختار أنَّ الكتابَ هنا المرادُ به: اللوحُ المحفوظُ: مقاتلُ بنُ سليمان، والسمرقندي، والثعلبي، والواحدي، والبغوي، والثعالبي، والقرطبي، والعليمي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (29/3)، ((تفسير السمرقندي)) (402/2)، ((تفسير الثعلبي)) (247/6)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 697)، ((تفسير البغوي)) (264/3)، ((تفسير الثعالبي)) (57/4)، ((تفسير القرطبي)) (205/11)، ((تفسير العليمي)) (298/4)، ((تفسير الشوكاني)) (436/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 507).

وقال ابنُ عطية: (وقوله: فِي كِتَابٍ يريدُ في اللوحِ المحفوظِ، أو فيما كتَبه الملائكةُ مِن أحوالِ البشرِ).

((تفسير ابن عطية)) (47/4).

وقال ابنُ كثيرٍ: (وهو اللَّوحُ المحفوظُ وكِتابُ الأعمالِ).

((تفسير ابن كثير)) (298/5).

وقال ابن القيم: (عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي أي: أعمالُ تلك القُرونِ وكُفرُهم وشِركُهم معلومٌ لرَبِّي، قد أحصاه وحَفِظَه وأودَعَه في كتابٍ، فيُجازيهم عليه يومَ القيامةِ، ولم يُودِعْه في كتابٍ خَشيةَ النِّسيانِ والضَّلالِ؛ فإنَّه سُبحانَه لا يَضِلُّ ولا ينسى، وعلى هذا فالكِتابُ هاهنا كتابُ الأعمالِ، وقال الكلبي: «يعني به اللَّوحَ المحفوظَ»، وعلى هذا فهو كتابُ القَدَرِ السَّابق، والمعنى على هذا أنَّه سبحانَه قد علِمَ أعمالَهم وكَتَبَها عنده قبل أن يَعمَلوها، فيكونُ هذا من تمامِ قَولِه: الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى فتأمَّلْه).

((شفاء العليل)) (ص: 79).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53).

الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا.

أي: اللهُ الذي جعَل لكم الأرضَ مُمهَّدةً تَسكُنونَ عليها، وتستَقِرُّونَ بها، وتَمشونَ وتُسافِرونَ على ظَهرِها، وتتمكَّنونَ مِن زَرعِها وغَرسِها، والبناءِ عليها وغيرِ ذلك.(204)

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا [البقرة: 22].

وقال سُبحانه: وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ [الذاريات: 48].

---

(204) قيل: هذه الآيةُ معترضةٌ في أثناء قِصَّة موسى، وليست من كلامِه، وممن ذهب إلى هذا القولِ: ابنُ القيمِ، وابنُ كثير، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((التبيان)) لابن القيم (ص: 263)، ((تفسير ابن كثير)) (298/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (235/16).

قال الشنقيطي: (والتَّحقيقُ أنَّه يَتعَيَّنُ كونُه خبرَ مبتدأٍ محذوفٍ [أي: هو الَّذِي جَعَلَ لكم الأرضَ]؛ لأنَّه كلامٌ مستأنفٌ مِن كلامِ اللَّهِ.

ولا يصِحُّ تَعَلُّقُه بقولِ مُوسَى لَا يَضِلُّ رَبِّي؛ لأنَّ قولَه: فَأَخْرَجْنَا يُعَيِّنُ أنَّه مِن كلامِ اللَّهِ، كما نَبَّهَ عليه أبو حَيَّانَ في «البحرِ»، والعلمُ عندَ اللَّهِ تعالَى).

((أضواء البيان)) (21/4).

ويُنظر: ((تفسير الرازي)) (61/22)، ((تفسير أبي حيان)) (343/7).

وقيل: بل كلامُ موسى مستمِرٌّ إلى قولِه: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً، ثم قال الله تعالى: فَأَخْرَجْنَا بِهِ.

وممن ذهب إلى هذا القول: الواحدي، والقرطبي.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 697)، ((تفسير القرطبي)) (209/11).

وقيل: يحتملُ أنْ يكونَ فَأَخْرَجْنَا مِن كلامِ موسَى حكايةً عن اللَّهِ تعالَى على تقديرِ: يقولُ عزَّ وجلَّ: فَأَخْرَجْنَا.

يُنظر: ((تفسير ابن جزي)) (9/2).

وقال عزَّ وجلَّ: هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ [الملك: 15].

وقال تبارك وتعالى: أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا [النبأ: 6].

وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا.

أي: وجعل اللهُ لأجْلِكم في الأرضِ بينَ أوديَتِها وجِبالِها طُرُقًا كثيرةً تَمشونَ فيها.

كما قال تعالى: الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ [الزخرف: 10].

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى.

وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً.

أي: وأنزل اللهُ من السَّماءِ مَطرًا.

فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى.

أي: فأخرَجْنا بسَبَبِ المطَرِ أصنافًا من النَّباتاتِ المختلفةِ الألوانِ، والأشكالِ، والرَّوائحِ، والطُّعومِ، والمنافِعِ.

كما قال تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ [الأنعام: 99].

وقال سُبحانه: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ [النحل: 10، 11].

وقال عزَّ وجلَّ: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ [الحج: 63].

وقال جلَّ جلاله: وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ [لقمان: 10].

وقال تبارك وتعالى: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا [فاطر: 27].

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (54).

كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ.

أي: كلُوا –أيُّها النَّاسُ– مِن طَيِّبِ ما أنبَتْنا لكم من الأرضِ مِن الحُبوبِ والثِّمارِ، وارعَوا فيها إبِلَكم وبقَرَكم وغنَمَكم.

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ [النحل: 10].

وقال سُبحانَه: أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ [السجدة: 27].

وقال عزَّ وجلَّ: فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ [عبس: 24 – 32].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى.

أي: إنَّ في ذلك لعَلاماتٍ لأُولي العُقولِ تدُلُّهم على وحدانيَّةِ اللهِ، وقُدرتِه، ورَحمتِه، وأنَّه المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه لا شريكَ له.

كما قال تعالى: وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الرعد: 4].

وقال سُبحانَه: وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ [الروم: 24].

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (55).

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ.

أي: مِن تُرابِ الأرضِ خَلَقْنا -أيُّها النَّاسُ- أباكم آدَمَ الذي هو أصلُكم، وأنتم ذريَّتُه.(205)

كما قال تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ [الأنعام: 2].

وقال سُبحانَه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ [الحج: 5].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ [الروم: 20].

وقال عزَّ مِن قائلٍ: وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ [السجدة: 7- 8].

وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ.

أي: وفي الأرضِ نُعيدُكم بعدَ مَوتِكم، وتَصيرونَ تُرابًا في قُبورِكم، كما كنتُم قبل إنشائِنا لكم بشرًا سَوِيًّا.

---

(205) قال الشنقيطي: (التحقيقُ أن معنى خلْقِه تعالى النَّاسَ من ترابٍ أنَّه خلق أباهم آدَمَ منها...
وما يزعُمُه بعضُ أهلِ العلم من أنَّ معنى خَلْقِهم من ترابٍ أنَّ النطفةَ إذا وقَعت في الرَّحِمِ انطلق المَلَك الموكَّلُ بالرَّحِمِ فأخذ من ترابِ المكانِ الذي يُدفَنُ فيه فيَذُرُّه على النطفةِ، فيَخلُقُ اللهُ النَّسَمةَ مِن النطفةِ والترابِ معًا؛ فهو خلافُ التحقيقِ؛ لأنَّ القرآن يدُلُّ على أنَّ مرحلةَ النطفةِ بعدَ مرحلةِ الترابِ بمُهلةٍ...
وكذلك ما يزعُمُه بعضُ المفَسِّرين مِن أنَّ معنى خَلقِهم من ترابٍ أنَّ المرادَ أنَّهم خُلِقوا من الأغذيةِ التي تتولَّدُ من الأرضِ؛ فهو ظاهِرُ السُّقوطِ كما ترى).
((أضواء البيان)) (4/24-25).

وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى.

أي: ومِن الأرضِ نَبعَثُكم أحياءً مرَّةً أُخرَى، كما كنتُم قَبلَ مَماتِكم أحياءً، فنُنشِئُكم منها كما أنشَأناكم أوَّلَ مَرَّةٍ، فتَخرُجونَ منها يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ.

كما قال تعالى: قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ [الأعراف: 25].

وقال سُبحانَه: ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ [الروم: 25].

وقال عزَّ وجلَّ: يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [ق: 42 – 44].

سورةُ طه

الآيات (56–64)

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا
مُوسَى (57) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ
مَكَانًا سُوًى (58) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59) فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ
فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ
بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62) قَالُوا إِنْ
هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63)
فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64)

غريب الكلمات:

سُوًى: أي: وسَطًا، وهو مِن الاستواءِ؛ لأنَّ المسافةَ مِن الوسَطِ إلى الطَّرفينِ لا تفاوُتَ فيها، بل هي مُستويةٌ، وأصلُ (سوي): يدلُّ على استِقامةٍ، واعتِدالٍ بين شيئَينِ.

يَوْمُ الزِّينَةِ: يومُ عيدٍ لهم، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه.

كَيْدَهُ: أي حِيَلَه ومَكْرَه، والكَيدُ: ضَربٌ مِن الاحتيالِ، وقد يكونُ مَذمومًا وممدوحًا، وإن كان يُستعمَلُ في المذمومِ أكثَرَ.

فَيُسْحِتَكُمْ: أي: يُهلِكَكم ويَستَأْصِلَكم، وأصلُ (سحت): القِشرُ الذي يُستأصَلُ.

وَأَسَرُّوا النَّجْوَى: أي: أخفَوا كلامَهم، والإسرارُ: خِلافُ الإعلانِ، والنَّجوى: المناجاةُ، وأصلُ (نجو): يدُلُّ على سَترٍ وإخفاءٍ.

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى: قيل: أي: بجَماعتِكم الأشراف، والعَرَبُ تقولُ للرَّجُلِ الفاضِلِ: هذا طَريقةُ قَومِه؛ فإنَّ الطريقةَ اسمٌ للأفاضِلِ على معنى أنَّهم الذين يُقتَدى بهم ويُتَّبَعُ آثارُهم، وقيل: أراد سُنَّتَكم ودِينَكم، والمثلَى تأنيثُ الأمثلِ، وهو الأفضلُ.

اسْتَعْلَى: أي: غلَبَ وأفلَحَ، وأصْلُ (علو): يدُلُّ على السُّموِّ والارتفاعِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (56).

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا.

أي: ولقد أريْنا فِرعَونَ جميعَ مُعجزاتِنا الدالَّةِ على نبوَّةِ موسى، وصِحَّةِ ما يدعو إليه.(206)

كما قال تعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ * وَمَا نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * وَقَالُوا يَا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ * فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ [الزخرف: 46–50].

فَكَذَّبَ وَأَبَى.

أي: فكذَّب فِرعَونُ بآياتِ اللهِ، ولم يَقبَلْ ما جاء به موسى وهارونُ مِن تَوحيدِ اللهِ وطاعتِه.

كما قال تعالى: وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا [النمل: 14].

---

(206) قال الشنقيطي: (المرادُ بـــ آتَيْنَا المعهودةِ لموسى كلِّها هي التِّسعُ المذكورةُ في قولِه تعالى: وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ الآية [الإسراء: 101] ، وقولِه تعالى: وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ الآية [النمل: 12]).
((أضواء البيان)) (4/26).

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ * كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ [القمر: 41، 42].

قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (57).

أي: قال فِرعَونُ: هل جِئتَنا لِتُخرِجَنا مِن دُورِنا ومَنازِلِنا في مِصرَ، وتستوليَ عليها بسِحرِك يا موسى؟

كما قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ * قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ [يونس: 76 – 78].

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (58).

فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ.

أي: لكنَّ مرادَكَ هذا لن يتحقَّقَ يا موسى؛ فلَنُعارِضَنَّك بسِحرٍ مِثلِ سِحرِك، بواسطةِ سَحَرتِنا الذين نُحضِرُهم إلينا.

فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ.

أي: فحدِّدْ بيننا وبينك وَقتًا معيَّنًا ومَكانًا محدَّدًا نجتَمِعُ فيه، فننظُرُ أيُّنا يغلِبُ الآخَرَ، ولا نَقعُدُ نحن ولا أنت عن إتيانِ ذلك الموعِدِ.

مَكَانًا سُوًى.

أي: في مكانٍ وَسَطٍ.(207)

---

(207) قال الجمل: (وقوله: مَوْعِدًا يجوزُ أن يكونَ زمانًا، ويرجِّحُه قَولُه: قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ. والمعنى: عيِّنْ لنا وقتَ اجتماعٍ؛ ولذلك أجابهم بقولِه: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ، ويجوزُ أن يكونَ مكانًا، والمعنى: بيِّنْ لنا مكانًا معلومًا نَعرِفُه نحن وأنت، فنأتيَه، وهذا يؤيِّدُه قولُه: مَكَانًا سُوًى، ويجوزُ أن يكونَ مَصدرًا، ويؤيِّدُ هذا قَولُه: لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ؛ لأنَّ المواعَدةَ تُوصَفُ بالخُلْفِ وعَدَمِه).

((حاشية الجمل على الجلالين)) (3/103، 104).

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/88)، ((معاني القرآن)) للزجاج (3/360)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/301-302)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/28).

قيل: المعنى: في مكانٍ وسَطٍ بيننا وبينَك.

وممن ذهَب إلى هذا المعنى: ابنُ جرير، والزجَّاج، والبقاعي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/88)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (3/360)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/301-302).

وقيل: المرادُ: في مكانٍ وسَطَ البلدِ؛ ليتمكَّنَ جميعُ النَّاسِ من الحضور.

وممن قال بذلك: الشنقيطي.

قال الشنقيطي: (أصح الأقوالِ في قولِه: سُوًى على قراءةِ الكسرِ والضمّ: أنَّه مكانٌ وسَطٌ تستوي أطرافُ البلدِ فيه؛ لتوسُّطِها بينها، فلم يكنْ أقرَبَ للشَّرقِ مِن الغربِ، ولا للجنوبِ مِن الشَّمالِ، وهذا هو معنى قولِ المفسِّرينَ: مَكَانًا سُوًى أي: نصَفًا وعَدلًا؛ ليتمَكَّنَ جميعُ النَّاسِ أن يحضُروا).

((أضواء البيان)) (4/28).

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (59).

قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ.

أي: قال موسى: مَوعِدُكم هو اليَومُ المخصَّصُ لاجتِماعِ النَّاسِ فيه، وتَزَيُّنِهم وتفَرُّغِهم مِن أعمالِهم، في المكانِ المعتادِ لذلك.

وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى.

أي: وأن يُساقَ جَميعُ النَّاسِ مِن كلِّ ناحيةٍ لِحُضورِ اجتِماعِنا في وقتِ الضُّحَى.

فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (60).

أي: فتولَّى فِرعَونُ،[208] وشرَعَ يجمَعُ السَّحَرةَ مِن المدائِنِ، ثمَّ جاء لموعِدِ يومِ الزِّينةِ.

كما قال تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ [يونس: 79].

(208) قيل: المعنى: انصرف ليجمَعَ السَّحرةَ ويهيئَ ما يريدُ من الكيد.
وممَّن قال بذلك: ابن كثير، والشوكاني، وابن عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (300/5)، ((تفسير الشوكاني)) (440/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (247/16).
وقيل: المعنى: فأدبر فِرعَونُ مُعرِضًا عمَّا أتاه به من الحَقِّ.
وممن قال بذلك: ابن جرير.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (93/16).
وجَمَع البقاعي بين المعنيينِ فقال: (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ عن موسى إلى تهيئةِ ما يريدُ مِن الكيدِ، بعد تولِّيه عن الانقيادِ لأمرِ اللهِ).
((نظم الدرر)) (303/12).

وقال سُبحانَه: قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ * فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ * لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ * فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ * قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ [الشعراء: 36 – 42].

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى (61).

قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ.

أي: قال موسى للسَّحَرةِ:[209] ويلَكم! لا تختَلِقوا كَذبًا على اللهِ[210]؛ فيَستأصِلَكم بهلاكٍ وعذابٍ مِن عِندِه.

وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَى.

أي: وقد فات ما رجاه وطَلَبه وأمَّلَه مِن وراءِ كَذِبِه على اللهِ: مَن فَعَل ذلك.

---

(209) ممن نصَّ على أنَّ الخطابَ كان للسحرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والبغوي، وابنُ عطيةَ، وابنُ الجوزي، والرسعني، والنسفي، والخازنُ، والعُليمي، وابنُ عثيمين .

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/93)، ((الوسيط)) للواحدي (3/211)، ((تفسير البغوي)) (3/265)، ((تفسير ابن عطية)) (4/49)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/163)، ((تفسير الرسعني)) (4/524)، ((تفسير النسفي)) (2/370)، ((تفسير الخازن)) (3/207)، ((تفسير العليمي)) (4/302)، ((تفسير ابن عثيمين- سورة النمل)) (ص: 310).

وقيل: الخطابُ لفرعونَ ومَن معَه مِن السحرةِ.

وممن اختاره القرطبي، والمظهري.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/214)، ((التفسير المظهري)) (6/148).

قال البقاعي: قَالَ لَهُمْ أي: لأهلِ الكيدِ، وهم السحرةُ وغيرُهم).

((نظم الدرر)) (1/17).

(210) قيل: المراد: أي: لا تخيِّلوا للنَّاسِ بأعمالِكم إيجادَ أشياءَ لا حقائقَ لها، وأنَّها مخلوقةٌ وليست مخلوقةً؛ فتكونوا قد كذبتُم على الله.

وممن قال بذلك: ابن كثير، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/301)، ((تفسير القاسمي)) (7/131).

وقيل: المعنى: لا تَدْعُوا آياتِه ومعجزاتِه سِحرًا.

وممن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والبيضاوي.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/72)، ((تفسير البيضاوي)) (4/31).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير الماوردي)) (3/409).

كما قال تعالى: قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ [يونس: 69، 70].

وقال سُبحانَه: إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ [النحل: 116، 117].

فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى (62)

أي: فلمَّا سَمِعَ السَّحَرةُ كلامَ موسى اختلَفوا،[211] وتجاذَبوا الحديثَ سِرًّا فيما بينَهم، وبالَغوا في إخفائِه مِن فِرعَونَ.[212]

---

(211) وممن اختار أنَّ التنازُعَ وقَع بينَ السحرةِ: ابنُ جريرٍ، والزجَّاجُ، والواحدي، والسمرقندي، وابنُ عطية، وابنُ الجوزي، والقرطبي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (95/16)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (361/3)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 698)، ((تفسير السمرقندي)) (403/2)، ((تفسير ابن عطية)) (50/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (164/3)، ((تفسير القرطبي)) (215/11)، ((تفسير الشوكاني)) (440/3).

قال الرازي: (قال بعضُهم: دخَل في التنازعِ فرعونُ وقومُه، ومنهم مَن يقولُ: بل هم السحرةُ وحدَهم، والكلامُ محتملٌ، وليس في الظاهرِ ما يدلُّ على الترجيح).

((تفسير الرازي)) (65/22).

(212) وقال ابن كثير: (فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ قيل: معناه: أنهم تشاجروا فيما بينهم، فقائلٌ يقولُ: ليس هذا بكلامِ ساحرٍ، إنما هذا كلام نبيٍّ.

وقائلٌ يقول: بل هو ساحرٌ.

وقيل غير ذلك، والله أعلم).

((تفسير ابن كثير)) (301/5).

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى (63).

قَالُوا إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ.

أي: قال السَّحرةُ: ما موسى وهارونُ إلَّا ساحرانِ.

يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا.

أي: يريدُ موسى وهارونُ أن يُخرِجاكم مِن وطَنِكم؛ أرضِ مِصرَ، بالاستيلاءِ عليها بسِحرِهما الذي أظهراه.[213]

وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى.

قال القرطبي: (وَأَسَرُّوا النَّجْوَى قال قتادةُ: قالوا: إن كان ما جاء به سحرًا فسنغلبُه، وإن كان مِن عندِ الله فسيكون له أمرٌ، وهذا الذي أسرُّوه.

وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم: إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ [طه: 63] الآيات، قاله السديُّ ومقاتلٌ.

وقيل: الذي أسرُّوا قولُهم: إن غلَبَنا اتَّبعْناه، قاله الكلبيُّ، دليلُه ما ظهر مِن عاقبةِ أمرِهم.

وقيل: كان سرُّهم أن قالوا حين قال لهم موسَى: وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا [طه: 61] : ما هذا بقولِ ساحرٍ).

((تفسير القرطبي)) (215/11).

(213) قال ابنُ كثير: (يُريدانِ في هذا اليومِ أنْ يَغْلِباكم وقومَكم ويَستوليا على النَّاسِ، وتتبعَهما العامَّةُ، ويُقاتِلا فرعونَ وجنودَه، فينتَصِرا عليه ويُخْرِجاكم مِن أرضِكم).

((تفسير ابن كثير)) (301/5).

ويَذْهبا بدينِكم وشريعتِكم ومذهبِكم الذي هو أفضلُ المذاهبِ، بإظهارِ مذهبِهما، وإعلاءِ دينِهما.[214]

---

(214) قال ابنُ الجوزي: (وفي الطريقةِ قولانِ: أحدُهما: بدينِكم المُستقيمِ.
رواه الضَّحَّاكُ عن ابنِ عبَّاسٍ.
وقال أبو عُبيدةَ: بسُنَّتِكم ودينِكم وما أنتم عليه، يقالُ: فلانٌ حَسَنُ الطَّريقةِ.
والثاني: بأمثَلِكم.
رواه ابنُ أبي طلحةَ عن ابنِ عباسٍ.
وقال مجاهِدٌ: بأُولي العَقلِ، والأشرافِ، والأسنانِ.
وقال الشعبيُّ: يَصرِفانِ وُجوهَ النَّاسِ إليهما.
قال الفرَّاءُ: الطريقةُ: الرِّجالُ الأشرافُ، تقولُ العرَبُ للقَومِ الأشرافِ: هؤلاء طريقةُ قَومِهم، وطرائِقُ قَومِهم...
وقال الزجَّاجُ: ومعنى المُثلى والأمثَلُ: ذو الفَضلِ الذي به يَستحِقُّ أن يُقالَ: هذا أمثَلُ قَومِه، قال: والذي عندي أنَّ في الكلامِ محذوفًا، والمعنى: يذهبَا بأهلِ طَريقتِكم المُثلى، وقَولُ العَرَبِ: هذا طريقةُ قَومِه، أي: صاحِبُ طَريقتِهم).
((تفسير ابن الجوزي)) (3/165).
وممن اختار في الجملةِ أنَّ الطريقةَ تعني الدينَ والشريعةَ والمذهبَ والسنةَ والعادةَ: الكسائي -كما في ((البسيط)) للواحدي (14/452)-، وأبو عبيدة، والسمعاني، والزمخشري، والقرطبي، والبيضاوي، والنسفي، وأبو السعود، والعُليمي، والألوسي، والقاسمي، وابن عاشور.
يُنظر: ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (2/23)، ((تفسير السمعاني)) (3/339)، ((تفسير الزمخشري)) (3/72)، ((تفسير القرطبي)) (11/220)، ((تفسير البيضاوي)) (4/31)، ((تفسير النسفي)) (2/372)، ((تفسير أبي السعود)) (6/25)، ((تفسير العليمي)) (4/304)، ((تفسير الألوسي)) (8/536)، ((تفسير القاسمي)) (7/131)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/255).
وممن اختار أنَّ الطريقةَ تعني الرجالَ الأشرافَ: الفرَّاءُ، وابنُ قتيبةَ، وابنُ جريرٍ، والسمرقندي، ومكي، والواحدي، والمحلي.
يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (2/185)، ((غريب القرآن)) لابن قتيبة (ص: 280)، ((تفسير ابن جرير)) (16/101)، ((تفسير السمرقندي)) (2/404)، ((الهداية)) لمكي (7/4664)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 698)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 411).
قال الواحدي: (والمعنى: أنْ يَغلِبا بسِحرِهما، فتَمْثُلَ إليهما السَّادةُ والأشرافُ منكم.
وقال قتادة: «طريقتُكم المثلى يومَئذٍ بنو إسرائيل كانوا أكثَرَ القَومِ عددًا وأموالًا، فقالوا: إنَّما يريد أن يذهَبَا بهما لأنفُسِهم».
فجعل قتادةُ هؤلاء الأفاضِلَ من بني إسرائيلَ.
وهذا قولُ ابن عباس في رواية الوالبي: «هم بنو إسرائيل».
هذا الذي ذكَرْنا قولُ المفَسِّرين، وأهلِ التأويلِ، وعلى هذا مقاتِلٌ والكلبيُّ).

كما قال تعالى: وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ [غافر: 26].

فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (64).

((البسيط)) (452/14).

وقال الزجَّاجُ: (والذي عندي –والله أعلم– أنَّ في الكلام محذوفًا يدُلُّ عليه ما بَقِي.

إنَّما المعنى: يذهبا بأهلِ طَريقتِكم المُثْلى).

((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (364/3).

وممَّن ذهب إلى أنَّ المرادَ طريقةُ السِّحرِ: ابن كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (301/5)، ((تفسير السعدي)) (ص: 508).

وقال البقاعي: (وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ هذه السِّحريةِ التي تَعِبتُم في تمهيدِها، وأفنى فيها أسلافُكم أعمارَهم، حتى بلغ أمرُها الغايةَ؛ وبدينِكم الذي به قِوامُكم).

((نظم الدرر)) (305/12).

وقيل: المرادُ بالطريقةِ: السيرة والمملكةُ والحالُ التي عليها.

وممن اختاره ابنُ عطيةَ، وأبو حيان.

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (51/4)، ((تفسير أبي حيان)) (351/7).

اختلف المفسرون في المراد من الطريقة على قولين: الأول: السادة، ويراد بها أهل العقل والشرف.

والثاني: السيرة والحال التي هم عليها.

وهو قول ابن زيد.

وقد حكى ابنُ جرير (١٦/ ١٠١ – ١٠٤) القولين، ثم استدرك مستندًا للإجماع قولَ ابن زيد بقوله: «وهذا القول الذي قاله ابن زيد في قوله: ﴿ويذهبا بطريقتكم المثلى﴾ وإن كان قولًا له وجه يحتمله الكلام؛ فإنّ تأويل أهل التأويل بخلافه؛ فلا أستجيز لذلك القول به».

ورجّح ابنُ عطية (٦/ ١٠٨) ما أفاده قولُ ابن زيد، فقال: «والأظهر في الطريقة هنا أنها: السيرة والمملكة والحال التي هم عليها».

ولم يذكر مستندًا.

أي: قال السَّحَرةُ بعضُهم لبعضٍ: فاجتَهِدوا في إحكامِ سحرِكم، واعزِموا كُلُّكم على كيدِ موسى، ثمَّ احضُروا مُجتَمِعينَ في صَفٍّ.

القراءاتُ ذاتُ الأثَرِ في التَّفسيرِ:

في قَولِه تعالى: فَأَجْمِعُوا قِراءتانِ:

1- قِراءةُ فَاجْمَعُوا مِن الجَمعِ. أي: فاجمَعوا سِحرَكم، فلا تَدَعوا مِن كَيدِكم شيئًا إلَّا جِئتُم به.[215]

2- قراءةُ فَأَجْمِعُوا من العَزمِ والإحكامِ. أي: فأحكِموا سِحرَكم واعزِمُوا كلُّكم على كَيدِ عَدُوِّكم.[216]

---

(215) قرأ بها أبو عمرو.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/321).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 244)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/151-152)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 456).

(216) قرأ بها الباقون.

يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (2/321).

ويُنظر لمعنى هذه القراءة: ((الحجة)) لابن خالويه (ص: 244)، ((معاني القراءات)) للأزهري (2/151-152)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 456).

وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى.

أي: وقد فاز اليومَ بمَطلوبه مَن غلَبَ خَصْمَه، وقَهَره.[217]

(217) قال ابن كثير: (وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى أي: مِنَّا ومنه، أما نحن فقد وعَدَنا هذا المَلِكُ العطاءَ الجزيلَ، وأما هو فينالُ الرِّياسةَ العظيمةَ).

((تفسير ابن كثير)) (302/5).

سورةُ طه

الآيات (65-76)

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ
وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67)
قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ
سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ
وَمُوسَى (70) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى
(71) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا
تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72)

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73)

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ
الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76)

غريب الكلمات:

يُخَيَّلُ: أي: يُشَبَّهُ ويُظَنُّ، وأصلُ (خيل): يدُلُّ على حركةٍ في تلوُّنٍ.

فَأَوْجَسَ: أي: أضمرَ وأحَسَّ، والوَجْسُ: الصَّوتُ الخفيُّ، وأصلُه يدُلُّ على إحساسٍ بِشَيءٍ، وتَسَمُّعٍ له.

خِيفَةً: أي: خَوفًا، والخَوفُ: توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مَظنونةٍ أو معلومةٍ، وأصلُه يدُلُّ على الذُّعرِ والفَزَعِ.

تَلْقَفْ: أي: تَلْتَهِمْ وتبتَلِعْ، يقال: لَقِفتُ الشَّيءَ ألقَفُه، وتلقَّفتُه: أي: تناوَلتُه بسُرعةٍ.

مِنْ خِلَافٍ: أي: مخالفًا في قَطعِ ذلك منكم؛ يَدِه اليُمنى ورِجلِه اليُسرى، يخالِفُ بينَ قَطعِهما.

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ: أي: لأجعَلَنَّكم مُثلةً، ولأقتُلَنَّكم، والصَّلبُ: تعليقُ الإنسانِ للقَتلِ، قيل: هو شدُّ صُلْبِه على خَشَبٍ.

نُؤْثِرَكَ: أي: نختارَك، وأصلُ (أثر): يدُلُّ على تَقديمِ الشَّيءِ.

تَزَكَّى: أي: تطهَّرَ مِن الشِّركِ والفواحِشِ، وأصلُ (زكي): يدلُّ على نماءٍ وزيادةٍ.

تفسير الآيات:

قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (65).

أي: فأجمَعَ السَّحَرةُ كَيدَهم، وجاؤوا صَفًّا، وقالوا: يا موسى اختَرْ، فإمَّا أن ترميَ عَصاك قَبْلَنا، وإمَّا أن نرميَ حِبالَنا وعِصِيَّنا قَبلَك.

كما قال تعالى: قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ [الأعراف: 115].

قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (66).

قَالَ بَلْ أَلْقُوا.

أي: قال لهم موسى: بل ألقُوا أنتم أوَّلًا ما تريدونَ إلقاءَه.

كما قال تعالى: قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ * فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ [الشعراء: 43، 44].

فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى.

أي: فألقَى السَّحرةُ ما معهم فإذا حبالُهم وعِصِيُّهم يُشَبَّهُ لموسى بسَبَبِ سِحرِهم أنَّها تتحرَّكُ![218]

كما قال تعالى: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ [الأعراف: 116].

فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (67).

أي: فوجَدَ موسى في نفسِه خوفًا.[219]

---

(218) قال الشنقيطي: (اختلف العُلَماءُ في السِّحرِ: هل هو حقيقةٌ أو هو تخييلٌ لا حقيقةَ له؟ والتحقيقُ أنَّ منه ما هو حقيقةٌ، ومنه ما هو تخييلٌ).

((أضواء البيان)) (4/50).

(219) قال ابنُ عطيَّةَ: (وقَولُه تعالى: فَأَوْجَسَ عبارةٌ عما يعتري نَفسَ الإنسانِ إذا وقع ظَنُّه في أمرٍ على شَيءٍ يَسوءُه، وظاهِرُ الأمرِ كُلِّه الصَّلاحُ، فهذا الفِعلُ مِن أفعالِ النَّفسِ يُسمَّى الوجيسَ، وعَبَّرَ المفسِّرون عن «أَوْجَسَ» بـ «أضمَرَ»، وهذه العبارةُ أعَمُّ مِن الوَجيسِ بكثيرٍ).

((تفسير ابن عطية)) (4/51).

قال ابنُ الجوزي: (في خَوفِه قَولانِ: أحدُهما: أنَّه خوفُ الطَّبعِ البَشَريِّ.

والثاني: أنَّه لَمَّا رأى سِحرَهم مِن جِنسِ ما أراهم في العصا، خاف أن يلتَبِسَ على النَّاسِ أمرُه ولا يؤمِنوا، فقيل له: لا تَخَفْ؛ إنَّك أنت الأعلى عليهم بالظَّفَرِ والغَلَبةِ، وهذا أصحُّ مِنَ الأوَّلِ).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/167).

وممَّن قال بنحوِ القولِ الثاني: ابن كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/302).

وقال ابن عاشور: (وإنما خاف موسى مِن أن يَظهرَ أمرُ السَّحرةِ فيُساويَ ما يَظهَرُ على يديه مِن انقلابِ عصاه ثُعبانًا؛ لأنَّه يكونُ قد ساواهم في عملِهم، ويكونون قد فاقوه بالكثرة، أو خشِيَ أن يكونَ اللهُ أراد استدراجَ السَّحرةِ مُدَّةً، فيُمليَ لهم بظُهورِ غَلَبِهم عليه ومَدِّه لِما تكونُ له العاقِبةُ، فخَشِيَ ذلك).

((تفسير ابن عاشور)) (16/259).

وذكَر الرازي في سببِ هذا الخوفِ أوجهًا أُخرَى.

قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (68).

أي: قُلْنا لموسى تثبيتًا وتَطمينًا: لا تخفْ؛ إنَّك أنت الغالِبُ القاهِرُ، المنتَصِرُ على فِرعَونَ وسَحَرتِه وجُندِه.

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (69).

وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا.

أي: وألقِ عصاك التي في يمينِك تبتَلِعْ بقُوَّةٍ وسُرعةٍ حِبالَهم وعِصِيَّهم التي خَيَّلوا إلى النَّاسِ بسِحرِهم أنها حيَّاتٌ تتحَرَّكُ.

إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (73/22).

قال ابنُ عطية (٦/ ١١٠): «قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارة عما يعتري نفسَ الإنسـان إذا وقع ظنُّه في أمر على شـيء يسـوءه، وظاهر الأمر كله الصلاح، فهذا الفعل مِن أفعال النفس يسمى: الوجيس، وعبر المفسرون عن» أوجس «بـ: أضمر، وهذه العبارة أعمُّ مِن الوجيس بكثير».

ذكر ابنُ عطية (٦/ ١١٠) الاختلاف في اشتقاق ﴿خيفة﴾؛ فذكر أنها تصح أن يكون أصلها: خِوْفة؛ فيكون خوف موسى عامًّا. أو أن يكون أصلها: خَوفَة؛ فيكون خوف موسى «إنما كان على الناس أن يَضِلُّوا لهول ما رأى».

ثم رجّح القول الأول، فقال: «والأولُ أصوب أنه أوجس على الجملة، وبقي ينتظر الفرج».

ولم يذكر مستندًا.

أي: إنَّ الذي صَنَعه هؤلاء السَّحرةُ حِيلةٌ من ساحِرٍ.

وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى.

أي: ولا يظفَرُ السَّاحِرُ بمَطلوبِه أينما توجَّه، لا في الدُّنيا ولا في الآخرةِ؛ فكَيدُه ليس بمُثمِرٍ له ولا ناجِحٍ.

فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (70).

أي: فألقَى موسى عصاه، وابتلَعَت عِصِيَّ السَّحَرةِ وحِبالَهم، فعَلِموا عِلمَ اليَقينِ أنَّ هذا الأمرَ ليس مِن قَبيلِ السِّحرِ والحِيَلِ، وأنَّه حَقٌّ لا مِريةَ فيه، ومُعجزةٌ مِن الإلهِ الحَقِّ الذي يقولُ للشَّيءِ كُن فيكونُ، فحينَها وقَعَ السَّحَرةُ على الأرضِ ساجِدينَ لله قائلينَ: آمَنَّا باللهِ رَبِّ هارونَ وموسى.[220]

كما قال تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ * وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ * قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ [الأعراف: 117–122].

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى (71).

---

(220) قال القرطبي: (لِمَا رأوا من عظيمِ الأمرِ، وخرقِ العادةِ في العصا، فإنها ابتلعت جميعَ ما احتالوا به مِن الحبالِ والعصيّ... ثم عادت عصا، لا يعلمُ أحدٌ أين ذهبتِ الحبالُ والعصيُّ إلا الله تعالى!).
((تفسير القرطبي)) (224/11).

قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ.

أي: قال فِرعَونُ للسَّحرةِ: أصدَّقتم بموسى، وأقرَرْتُم له بالنبُوَّةِ قبلَ أن أسمَحَ لكم بالإيمانِ بما يدعوكم إليه؟! فهذا سوءُ أدبٍ منكم، وتجرُّؤٌ عليَّ!!

كما قال تعالى: قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ [الأعراف: 123].

إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ.

أي: إنَّ موسى لَعظيمُكم ورئيسُكم الكبيرُ الَّذي علَّمَكم السِّحرَ، واتَّفقتُم معه على أن يَغلِبَكم؛ مكيدةً لي ولِقَومي!

كما قال تعالى حاكيًا قَولَ فِرعَونَ: إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا [الأعراف: 123].

فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ.

أي: قال فِرعَونُ للسَّحرةِ مُقْسِمًا: لأقطِّعَنَّ من كلِّ ساحرٍ منكم يَدَه ورِجلَه مِن جِهَتينِ مُختَلِفَتينِ. أي: يقطَعُ يمنى اليدينِ ويُسرى الرِّجلَينِ، أو يُسرى اليَدَينِ، ويُمنى الرِّجلينِ.

وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ.

أي: ولأُصلِّبَنَّكم على جُذوعِ النَّخلِ؛ تبشيعًا لقَتلِكم، ورَدعًا لأمثالِكم.

وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى.

أي: ولتَعلَمُنَّ –أيُّها السَّحرةُ– مَن هو أشَدُّ عذابًا، وأدوَمُ عِقابًا![221]

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72).

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ.

---

(221) قيل: المراد: يعني أنا، أو موسى أشدُّ عذابًا وأبقى.

وممَّن اختار ذلك: يحيى بن سلام، وابن جرير.

يُنظر: ((تفسير يحيى بن سلام)) (267/1)، ((تفسير ابن جرير)) (116/16).

وقيلَ: المرادُ: أنا أم رَبُّ موسى أشدُّ عذابًا وأبقى.

وممن اختار ذلك: القرطبي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (224/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 509).

قال الشِّنقيطيُّ: (قَولُه في هذه الآيةِ الكريمة: وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى قال بعضُ أهل العلم: وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا: يعني: أنا أم رَبُّ موسى أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى.

واقتصرَ على هذا القرطبيُّ.

وعليه ففِرعَونُ يدَّعي أنَّ عَذابَه أشــدُّ وأبقى مِن عذابِ اللهِ! وهذا كقولِه: أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى، وقَولِه: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، وقَولِه: لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ.

وقال بعضُهم: وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا: أنا أمْ موسى أشَدُّ عذابًا وأبقى.

وعلى هذا فهو كالتهَكُّمِ بموسى لاستضعافِه له، وأنَّه لا يقدرُ على أن يُعَذِّبَ مَن لم يُطِعْه، كقَولِه: أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ.

واللهُ جلَّ وعلا أعلَمُ).

((أضواء البيان)) (64/4).

أي: قال السَّحَرةُ بعد إيمانِهم: لن نُقَدِّمَك -يا فِرعَونُ- على الحَقِّ، فلن نتَّبِعَك ونختارَ دينك؛ طَلَبًا لما وعَدْتَنا مِن الأجرِ، أو السلامةِ مما توعدْتَنا مِن العذابِ، ونكَذِّبَ لأجْلِك موسى بعدَ أن رأَينا المعجزاتِ الواضِحةَ الدَّالَّةَ على نبوته، وصِحَّةِ ما يدعو إليه.

وَالَّذِي فَطَرَنَا.

أي: ولن نُؤثِرَك على اللهِ الذي خلَقَنا، وأنشَأَنا من العَدَمِ، وابتدأَ خَلْقَنا مِن طينٍ؛ فهو المستَحِقُّ للعبادةِ والخُضوعِ لا أنت.[222]

فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ.

---

(222) قال الشنقيطي: (الواوُ في قوله: وَالَّذِي فَطَرَنَا عاطفةٌ على مَا مِن قَولِه: عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ أي: لن نختارَك على ما جاءنا مِن البيِّناتِ، ولا على الذي فطَرنا أي: خلَقَنا وأبرَزَنا من العَدَمِ إلى الوجود.

وقيل: هي واو القَسَم، والمقسَمُ عليه محذوفٌ دَلَّ عليه ما قبله، أي: والذي فطَرَنا لا نُؤثِرُك على ما جاءنا من البيِّناتِ). ((أضواء البيان)) (65/4).

ويُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (187/2)، ((تفسير ابن جرير)) (116/16)، ((معاني القرآن)) للزجاج (368/3)، ((البسيط)) للواحدي (466/14)، ((تفسير ابن عطية)) (53/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (168/3)، ((تفسير ابن كثير)) (304/5).

وممن اختار أنَّ الواوَ عاطفةٌ: الفراء، والأخفش، وابن جرير، والزجاج، والواحدي، وابن كثير، وأبو السعود، والقاسمي، والشنقيطي.

يُنظر: ((معاني القرآن)) للفراء (187/2)، ((معاني القرآن)) للأخفش (444/2)، ((تفسير ابن جرير)) (116/16)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (368/3)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 700)، ((تفسير ابن كثير)) (304/5)، ((تفسير أبي السعود)) (29/6)، ((تفسير القاسمي)) (135/7)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (65/4).

وجوَّز احتمالَ كونها واوَ قَسَمٍ، من هؤلاء المفسرين: الفراءُ، وابنُ جرير، والزجاجُ، وابنُ كثير.

أي: فاصنَعْ ما شِئتَ أن تَصنَعَه بنا، وافعَلْ ما بدا لك؛ فلن نَرجِعَ عن إيمانِنا باللهِ.[223]

عن أنسِ بنِ مالكٍ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه وجَدَ بهنَّ حَلاوةَ الإيمانِ: مَن كان اللهُ ورَسولُه أحَبَّ إليه مِمَّا سواهما، وأن يحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلَّا للهِ، وأن يَكرَهَ أن يَعودَ في الكُفرِ بعد أن أنقَذَه اللهُ منه، كما يكرَهُ أن يُقذَفَ في النَّارِ)).[224]

---

(223) قال ابنُ عطيةَ: (هؤلاء السَّحَرةُ اختلَف النَّاسُ: هل نفَذَ فيهم وعيدُ فِرعونَ؟ فقالت طائفةٌ: صلَبَهم على الجذوعِ كما قال، فأصبحَ القَومُ سَحَرةً، وأمسَوا شُهَداءَ بلُطفِ اللهِ لهم وبرَحمتِه! وقالت فرقةٌ: إنَّ فِرعونَ لم يفعَلْ ذلك، وقد كان اللهُ تعالى وعد موسى أنَّه ومن معه الغالبونَ.

وهذا كلُّه مُحتَمَلٌ).

((تفسير ابن عطية)) (4/53).

وممَّن رأى أنهم قُتِلوا: ابن كثير، فقال: (الظاهِرُ أنَّ فِرعونَ -لعَنَه اللهُ- صمَّم على ذلك، وفعَلَه بهم، رَحِمَهم اللهُ؛ ولهذا قال ابنُ عباس وغيرُه مِن السلفِ: أصبحوا سحَرةً، وأمسَوا شُهَداءَ).

((تفسير ابن كثير)) (5/305).

وممَّن رأى أنهم لم يُقتَلوا: الشنقيطي، فقال بعدَ أن ذكَر القولينِ: (وأظهرهما عندي: أنَّه لم يقتُلْهم، وأنَّ اللهَ عصمهم منه لأجلِ إيمانِهم الراسخِ باللهِ تعالى؛ لأنَّ اللهَ يقول لموسى وهارون: أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ [القصص: 35] ، والعِلمُ عند اللهِ تعالى).

((أضواء البيان)) (4/65).

(224) رواه البخاري (16)، ومسلم (43) واللفظ له.

إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا.

أي: إنما ينفُذُ أمرُك، وتتسلَّطُ علينا، وتَقدِرُ على تعذيبِنا في هذه الحياةِ الدُّنيا الفانيةِ، وعذابُك فيها ينقضي ويَزولُ، ولا يضُرُّنا، ولا قَضاءَ لك ولا سُلطانَ علينا في الحياةِ الآخرةِ الباقيةِ التي نرجو فيها مِن ربِّنا الجزاءَ الخالِدَ.

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73).

إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ.

أي: إنَّا آمنَّا بربِّنا وأقرَرْنا بتوحيدِه؛ لِيَغفِرَ لنا ذُنوبَنا من الكُفرِ والمعاصي، فيَستُرَها علينا، ويتجاوَزَ عن مؤاخَذتِنا بها، ويَغفِرَ لنا ما أكرَهْتَنا عليه من العَمَلِ بالسحر، ومن ذلك معارضةُ مُعجزاتِ موسى به.

وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

أي: واللهُ خَيرٌ لنا منك، وأجرُه خَيرٌ لنا مِن أجرِك، وهو أدوَمُ ثوابًا للطائعينَ، وأدوَمُ عَذابًا للكافرينَ، وهو الحيُّ الذي لا يموتُ، ولا يزولُ مُلكُه، أما أنت ففانٍ هالكٌ.

كما قال تعالى: إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ [النحل: 95، 96].

وقال سُبحانَه: وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 17].

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (74).

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ.

أي: إنَّه من يَمُتْ ويُلاقِ ربَّه يومَ القيامةِ لِيُجازيَه بعَمَلِه، والحالُ أنَّه كافِرٌ باللهِ؛ فإنَّ جزاءَه جهنَّمُ.[225]

لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا.

أي: لا يموتُ الكافِرُ في جهنَّم فيَستريحَ من العذابِ، ولا يحيا حياةً هَنِيَّةً يتلَذَّذُ بها وينتَفِعُ.[226]

---

(225) قال ابن عطية: (قالت فِرقةٌ: هذه الآيةُ بجُملتِها من كلامِ السَّــحَرةِ لفِرعَونَ على جهةِ الموعظةِ له والبيانِ فيما فعلوه، وقالت فرقة: بل هي مِن كلامِ الله تعالى لمحمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم؛ تنبيهًا على قبحِ ما فعَل فِرعَونُ، وحُسنِ ما فعل السَّحَرةُ، وتحذيرًا قد ضُمِّنَت القِصَّةُ المذكورةُ مِثالَه).

((تفسير ابن عطية)) (53/4).

ويُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (34/4).

وممن ذهَب إلى الرأيِ الأوَّلِ: ابنُ جريرٍ، وابنُ كثيرٍ، والشوكانيُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (119/16)، ((تفسير ابن كثير)) (305/5)، ((تفسير الشوكاني)) (445/3).

وممن ذهَب إلى الرأيِ الثاني: الواحدي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (467/14)، ((تفسير ابن عاشور)) (268/16).

قال القرطبي: (مَن قال: هذا مِن قولِ السَّحَرة قال: لعلَّ السحرةَ سمعوه مِن موسَى أو مِن بني إسرائيلَ إذ كان فيهم بمصرَ أقوامٌ، وكان فيهم أيضًا المؤمنُ مِن آلِ فِرعَون.

قلتُ: ويحتملُ أن يكونَ ذلك إلهامًا مِن الله لهم أنطَقهم بذلك لما آمنوا، والله أعلم).

((تفسير القرطبي)) (227/11).

(226) قال ابنُ عطية: (قولُه: لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا مختصٌّ بالكافِرِ؛ فإنَّه مُعَذَّبٌ عذابًا ينتهي به إلى الموتِ، ثمَّ لا يُجهَزُ عليه فيستريحَ، بل يعادُ جِلْدُه، ويجَدَّدُ عذابُه).

((تفسير ابن عطية)) (53/4).

كما قال تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ [فاطر: 36].

وقال سُبحانَه: الَّذِي يَصْلَى النَّارَ الْكُبْرَى * ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا [الأعلى: 12، 13].

وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ الله عنه، قال: قال رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلَّم: ((أمَّا أهلُ النَّارِ الذين هم أهلُها، فإنَّهم لا يموتونَ فيها ولا يَحيَونَ، ولكِنْ ناسٌ أصابَتْهم النَّارُ بذُنوبِهم –أو قال: بخطاياهم– فأماتَهم إماتةً، حتى إذا كانوا فَحمًا، أذِنَ بالشَّفاعةِ، فجيءَ بهم ضبائِرَ ضبائِرَ،[227] فبُثُّوا[228] على أنهارِ الجَنَّةِ، ثم قيلَ: يا أهلَ الجَنَّةِ، أفيضوا عليهم، فيَنبُتونَ نباتَ الحِبَّةِ[229] تكونُ في حَميلِ السَّيلِ))[230].[231]

---

(227) الضبائرُ هم الجماعاتُ في تفرقةٍ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (3/71).

(228) فبُثُّوا أي: فرِّقوا.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (3/38).

(229) الحِبَّةُ: هي بزرُ البقولِ والعشبِ تنبتُ في البراري، وجوانبِ السُّيولِ.

يُنظر: ((شرح النووي على مسلم)) (3/23).

(230) حميل السَّيلِ: هو ما يجيءُ به السيلُ مِن طينٍ وغيره.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (1/108).

(231) رواه مسلم (185).

وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا (75).

أي: ومَن يمُت ويلاقِ ربَّه يومَ القيامةِ، والحالُ أنَّه مُؤمِنٌ باللهِ وَحدَه لا شريكَ له، وقد عَمِلَ الأعمالَ الصَّالحاتِ؛ فأولئك لهم عندَ اللهِ الدَّرَجاتُ العاليةُ.

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76).

جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا.

أي: وتلك الدَّرَجاتُ العُلا هي بساتينُ إقامةٍ تجري مِن تحتِ أشجارِها وغُرَفِها الأنهارُ، ماكِثين فيها أبدًا.

وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى.

أي: وذلك الثَّوابُ هو جزاءُ من طهَّر نَفسَه مِن الكُفرِ، والشِّركِ، والمعاصي، ونمَّاها بالإيمانِ، والعَمَلِ الصَّالحِ.

سورةُ طه

الآيات (77–79)

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79)

غريب الكلمات:

أَسْرِ: أي: سِرْ بِهم لَيلًا، والسُّرَى: سَيرُ اللَّيلِ، وأصلُ (سير): يدُلُّ على مُضِيٍّ وجَرَيانٍ.

يَبَسًا: أي: يابِسًا، واليَبَسُ: المكانُ يكونُ فيه ماءٌ فيَذهَبُ، وأصلُ (يبس): يدُلُّ على جَفافٍ.

دَرَكًا: أي: تَبِعةً أو لَحاقًا، وأصلُ (درك): لحوقُ الشَّيءِ بالشَّيءِ، ووُصولُه إليه.

فَغَشِيَهُمْ: أي: أصابَهم وغطَّاهم، والغِشاوةُ: الغِطاءُ والسَّاترُ، مِن غَشِيَ الشَّيءَ، أي: غطَّاه وستَرَه.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى (77).

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي.

أي: ولقد أوحَينا إلى موسى أنْ سِرْ ليلًا من أرضِ مِصرَ مع قَومِك بني إسرائيلَ؛ لِتُخرِجَهم من قَبضةِ فِرعَونَ الذي امتنعَ مِن إرسالِهم، وأبى قَبولَ الحقِّ الذي جاءَه مِن عندِ ربِّه.

كما قال تعالى: وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ [الشعراء: 52].

وقال سُبحانَه: فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ [الدخان: 23].

فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا.

أي: فاتَّخِذْ –يا موسى– لبني إسرائيلَ طَريقًا في البَحرِ يابسًا،[232] لا ماءَ فيه ولا طينَ.[233]

---

(232) ذكر ابنُ عطية (٦/ ١١٤) اختلافًا في تحديد الوقت الذي أوحى الله فيه لموسى أن يضرب البحر بعصاه، فذكر قولًا أن ذلك كان ساعة مباشرته البحر، وذكر قولًا آخر أن ذلك الوحي كان متقدمًا على ذلك.

وقد رجّح مستندًا إلى ظاهر الآية القول الثاني، فقال: «...

ويروى أنّ الوحي إليه بذلك كان متقدمًا بمصر، وهو ظاهر الآية».

(233) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (120/16)، ((تفسير القرطبي)) (227/11)، ((تفسير ابن عاشور)) (270/16)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (69/4).

قال البقاعي: (فَاضْرِبْ لَهُمْ أي: اعمَلْ بضربِ البحرِ بعصاك، ولذلك سمّاه ضربًا.

لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى.

أي: لا تخافُ –يا موسى– أن يُدرِكَكم فِرعَونُ وجُندُه، فينالَكم بسوءٍ، ولا تخشى الغرَقَ في البَحرِ.

فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (78).

أي: فلَحِقَ فِرعَونُ ومعه جنودُه[234] موسى ومَن معه حين قَطَعوا البَحرَ، فأصاب فِرعَونَ وجُندَه مِن البَحرِ شَيءٌ عظيمٌ يفوقُ الوَصفَ، فغرِقوا جميعًا.

كما قال تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا [يونس: 90].

وقال سُبحانَه: فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ [الشعراء: 60].

وقال عزَّ وجلَّ: وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآَخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ [الشعراء: 64 – 66].

ولما كان ضربُ البحرِ بالعصا سببًا لوجودِ الطريقِ الموصوفة، أوقَع الفعل عليها فقال: طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا).

((نظم الدرر)) (12/316-317).

وقال ابن عاشور: (الضربُ: هنا بمعنى الجعلِ كقولهم: ضرب الذهبَ دنانيرَ.

وفي الحديث: «واضربوا لي معكم بسهمٍ»، وليس هو كقولِه: أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ [الشعراء: 63] ؛ لأنَّ الضربَ هنالك متعدٍّ إلى البحرِ وهنا نصب طريقًا).

((تفسير ابن عاشور)) (16/270).

(234) قال ابنُ عطية (٦/ ١١٤): «واختلف الناس في عدد جند فرعون؛ فقيل: كان في خيله سبعون ألف أدهم، ونسبة ذلك من سائر الألوان.

وقيل أكثر من هذا مِمّا اختصرته؛ لقِلَّة صِحَّته».

وقال تبارك وتعالى: وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ [الدخان: 24].

وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى (79).

أي: وصَرَف فِرعَونُ قَومَه القِبطَ عن طَريقِ الحقّ، ولم يهْدِهم إليه، فلم يُحصّلوا الخيرَ والنَّجاةَ.

سورةُ طه

الآيات (80–82)

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ
وَالسَّلْوَى (80) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ
عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82)

غريب الكلمات:

الْمَنَّ: المنُّ: شيءٌ حُلوٌ كان يسقُطُ على شَجَرِهم، فيجتَنونَه فيأكلونَه، وقيل: المنُّ مصدرٌ يَعُمُّ جميعَ ما مَنَّ اللَّه به على عبادِه مِن غيرِ تَعَبٍ ولا زَرْعٍ، وأصلُ (منن): اصطِناعُ خَيْرٍ.

وَالسَّلْوَى: السَّلْوَى: طائِرٌ يُشبِهُ السُّمانَى، لا واحِدَ له مِن لفظِه، واشتقاقُ السَّلوى من السَّلوةِ؛ لأنَّه لطِيبِه يُسلِّي عن غَيرِه.

فَيَحِلَّ: أي: يجِبَ، ويلزمَ، مِن: حَلَّ الدَّينُ يَحِلُّ -بكسرِ الحاءِ-؛ إذا وَجَب أداؤُه، وأصلُ (حلل): فتحُ الشَّيءِ.

هَوَى: أي: هلَك، وصار إلى الهاويةِ، يُقالُ: هَوَتْ أُمُّه: أي: سقَط سُقوطًا لا نُهوضَ بعدَه، وأصلُه أنْ يسقُطَ مِن جبلٍ أو نحوِه، فيَهوِيَ إلى الأرضِ فيَهلِكَ، وأصلُ (هوي): يدُلُّ على خُلُوٍّ وسُقوطٍ.

تفسير الآيات:

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى (80).

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ.

أي: قال الله تعالى: يا بني إسرائيلَ[(235)] قد أنجيناكم مِن عَدُوِّكم فِرعَونَ، فأغرقناه وجُنودَه.

كما قال تعالى: وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ [البقرة: 49، 50].

(235) قيل: الخطابُ لبني إسرائيلَ بعدَ إنجائِهم مِن البحرِ، وإهلاكِ فرعونَ، على إضمارِ: (قلنا)، وقيل: الخطابُ لليهودِ المعاصرينَ لنبيِّنا صلَّى الله عليه وسلَّم؛ لأنَّ النعمةَ على الآباءِ معدودةٌ مِن النعمِ على الأبناءِ.

يُنظر: ((تفسير البيضاوي)) (34/4)، ((تفسير القنوجي)) (259/8).

ذكر ابنُ عطية (٦/ ١١٦) اختلافا في المخاطب بقوله: ﴿يا بني إسرائيل قد أنجيناكم﴾ على قولين: الأول: أن الخطاب به وُجِّه لبني إسرائيل أيام موسى.

الثاني: أن الخطاب به مُوَجَّه لمعاصري رسول الله – ﷺ – مِن بني إسرائيل.

ورجّح ابنُ عطية مستندًا إلى ظاهر الآية القولَ الأول بقوله: «والمعنى الأول أظهر وأبين».

وبيّن أن الآية على القول الثاني «تكون اعتراضًا في أثناء قصة موسى، القَصْدُ به: توبيخ هؤلاء الحضور؛ إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله تعالى».

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ [الدخان: 30، 31].

وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ.

أي: وواعَدْناكم جانِبَ جَبَلِ الطُّورِ الأيمنَ[236] لإنزالِ التَّوراةِ؛ لتهتَدوا بها.[237]

---

(236) قال ابنُ جزي: (والطورُ هو الجبلُ، واختُلِف هل هذا الطورُ هو الذي رأى فيه موسى النارَ في أولِ نبوتِه، أو هو غيرُه). ((تفسير ابن جزي)) (11/2).

وقال الرازي: (قال المفسِّرون: ليس للجبلِ يمينٌ ولا يسارٌ، بل المرادُ أنَّ طورَ سيناءَ عن يمينِ مَن انطلَق مِن مصرَ إلى الشامِ). ((تفسير الرازي)) (83/22).

وقال ابن عطية: (وقوله الْأَيْمَنَ إمَّا أن يريدَ اليُمنَ، وإما أن يريدَ اليمينَ بالإضافةِ إلى ذي يمينِ إنسانٍ أو غيرِه). ((تفسير ابن عطية)) (56/4).

وقال ابنُ عاشور: (وجانبُ الطورِ: سَفحُه.

ووصفُه بالأيمنِ باعتبارِ جِهةِ الشَّخصِ المُستقبِلِ مَشرِقَ الشَّمسِ، وإلَّا فليس للجَبَلِ يمينٌ وشِمالٌ مُعَيَّنانِ، وإنما تُعرَفُ بمعرفةِ أصلِ الجِهاتِ، وهو مَطلِعُ الشَّمسِ، فهو الجانِبُ القِبليُّ باصطلاحِنا.

وجَعَل محَلَّ المواعَدةِ الجانِبَ القِبليَّ وليس هو من الجانِبِ الغربيِّ الذي في سورة «القَصَص»: فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ وقال فيها: وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ [القصص: 44] فهو جانِبٌ غربيٌّ، أي: من جهةِ مَغرِبِ الشَّمسِ مِن الجبَلِ، وهو الذي آنس موسى منه نارًا). ((تفسير ابن عاشور)) (274/16).

(237) قيل: كانت المواعدةُ لموسى.

وممَّن قال بذلك: الواحدي، والسعدي.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 701)، ((تفسير السعدي)) (ص: 510).

وقال القرطبي: (تقديرُ الآيةِ: وواعَدْناكم إتيانَ جانبِ الطورِ، ثم حذف المضافَ.

قال النحاسُ: أي: أمرْنا موسى أن يأمرَكم بالخروجِ معه ليكلمَه بحضرتِكم فتسمعوا الكلامَ.

وقيل: وعد موسى بعدَ إغراقِ فِرعَونَ أن يأتيَ جانبَ الطورِ الأيمنَ فيؤتيَه التوراةَ، فالوعدُ كان لموسى، ولكن خُوطِبوا به؛ لأنَّ الوعدَ كان لأجلِهم).

كما قال تعالى: وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً [الأعراف: 142].

وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى.

((تفسير القرطبي)) (11/230).

وممن قال بأنَّ المواعدةَ كانت لبني إسرائيلَ جميعًا: البقاعي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) (12/319).

وقيل: المواعدةُ كانت لموسى ومَن اختارهم لميقاتِ رَبِّه.

وممَّن ذهب إلى ذلك: الزمخشري، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (3/79)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/274-275).

أي: ونزَّلْنا عليكم-[238]يا بني إسرائيلَ- رِزقًا طيِّبًا سَهلًا، تحصُلونَ عليه بلا كُلفةٍ، ولا مَشقَّةٍ.[239]

(238) قيل: نزولُ المنّ والسلوى المذكورُ هنا كان في التِّيهِ.

وممَّن قال بذلك: الواحدي، والقرطبي، والشوكاني، والسعدي.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (216/3)، ((تفسير القرطبي)) (230/11)، ((تفسير الشوكاني)) (447/3)، ((تفسير السعدي)) (ص: 510).

قال الواحدي: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى يعني في التِّيهِ، وهذا مخاطبتُه لمن كان في عصرِ النبي صلَّى الله عليه وسلَّم من اليهودِ).

((الوسيط)) (216/3).

وقال أبو حيان: (الظاهِرُ أنَّ الخِطابَ لِمن نجا معَ موسى بعدَ إغراقِ فِرعَونَ.

وقيل: لمعاصري الرَّسولِ صلَّى الله عليه وسلَّم اعتراضًا في أثناءِ قِصَّةِ موسى؛ توبيخًا لهم إذ لم يصبِرْ سَلَفُهم على أداءِ شُكرِ نِعَمِ الله، فهو على حذفِ مُضافٍ، أي: أنجينا آباءَكم مِن تعذيبِ آلِ فِرعَونَ).

((تفسير أبي حيان)) (363/7-364).

وقيل: نزولُ المنِّ والسلوَى كان في المواعدةِ لإنزالِ التوراةِ.

وممن قال بذلك: البقاعي.

يُنظر: ((نظم الدرر)) (319/12).

(239) قال الشِّنقيطي: (أكثَرُ العُلَماءِ على أنَّ المَنَّ: التُّرُنْجَبينُ، وهو شيءٌ ينزِلُ من السَّماءِ كنُزولِ الندى ثم يتجَمَّدُ، وهو يشبهُ العَسَلَ الأبيض.

والسَّلوى: طائر يُشبِهُ السُّمَانَى.

وقيل: هو السُّمانَى.

وهذا قولُ الجمهورِ في المَنّ والسَّلوى...

والأظهَرُ عندي في المَنّ: أنَّه اسمٌ جامِعٌ لِما يمُنُّ الله به على عبدِه مِن غَيرِ كَدٍّ ولا تعَبٍ، فيدخُلُ فيه التُّرُنْجَبينُ الذي منَّ الله به على بني إسرائيلَ في التِّيهِ، ويَشمَلُ غيرَ ذلك مما يماثِلُه، ويدُلُّ على هذا قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم الثابتُ في الصَّحيحينِ: «الكَمْأةُ مِن المَنّ» والأظهَرُ عندي في السلوى: أنَّه طائِرٌ سواءٌ قلنا: إنَّه السُّمانَى، أو طائِرٌ يُشبِهُه؛ لإطباقِ جمهورِ العُلَماءِ مِنَ السَّلَفِ والخَلَفِ على ذلك).

((أضواء البيان)) (74/4، 75).

ويُنظر ما تقدَّم مِن تفسيرِ المنّ والسلوَى في سورة البقرة آية رقم (57).

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (81).

كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ.

أي: وقُلْنا لبني إسرائيلَ: كُلُوا من الطَّعامِ الحَلالِ اللَّذيذِ الذي رزَقْناكم.

وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى.

أي: ولا تتجاوَزوا الحدَّ فيما رَزَقْناكم -ومِن ذلك أن تَكفُروا هذه النِّعمةَ، وتَترُكوا شُكري، وتسْتَعينوا برِزْقي على معصيتي، وتمْنَعوا الحقوقَ الواجبةَ عليكم- فيَجِبَ عليكم حينئذٍ غَضَبي، وتلزَمَكم عُقوبتي.[240]

(240) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (125/16)، ((تفسير الرازي)) (83/22)، ((تفسير القرطبي)) (230/11)، ((تفسير السعدي)) (ص: 510)، ((تفسير ابن عاشور)) (275/16)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (75/4).

قال الرازي: (في قولِه تعالى: وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ وجوه: أحدُها: قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تطغوا، أي: لا يظلِمْ بعضُكم بعضًا فيأخُذَه من صاحبه.

وثانيها: قال مقاتل والضحاك: لا تظلموا فيه أنفُسَكم بأن تتجاوزوا حدَّ الإباحة.

وثالثها: قال الكلبي: لا تكفُروا النِّعمةَ، أي: لا تستعينوا بنعمتي على مخالفتي، ولا تُعرِضوا عن الشُّكرِ، ولا تَعدِلوا عن الحلالِ إلى الحرامِ).

((تفسير الرازي)) (83/22).

القِراءاتُ ذاتُ الأثرِ في التَّفسيرِ:

في قولِه تعالى: وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى قراءتانِ:

1- فَيَحُلَّ يَحْلُلْ بضمِّ الحاءِ فيهما، مِن حَلَّ يَحُلُّ، أي: نَزَل.[241]

2- فَيَحِلَّ يَحْلِلْ بكسر الحاء فيهما، مِنْ حَلَّ عليه كذا يَحِلُّ، أي: وَجَب.[242]

وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى.

أي: ومن يجِبْ عليه غضبي فقد هلك وشَقِيَ.

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (82).

---

(241) قرَأ بها الكسائيُّ.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (321/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (156/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 460)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (86/8).

(242) قرَأ بها الباقون.
يُنظر: ((النشر)) لابن الجزري (321/2).
ويُنظر لمعنى هذه القراءةِ: ((معاني القراءات)) للأزهري (156/2)، ((حجة القراءات)) لابن زنجلة (ص: 460)، ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (86/8).

أي: وإنّي لكثيرُ المغفرةِ لِمن رجعَ عمَّا كان فيه من كُفرٍ أو شِركٍ، أو نفاقٍ أو مَعصيةٍ، وآمَنَ بكلّ ما يجِبُ الإيمانُ به، وأخلَصَ لله في عبادتِه، وعَمِلَ الأعمالَ الصَّالِحَةَ تَصديقًا لإيمانِه، ثمَّ[243] لَزِمَ ذلك فثَبَت على التَّوبة، وأقام على الإيمانِ، واستمرَّ على القيامِ بالأعمالِ الصَّالحةِ حتى مماتِه.[244]

كما قال تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ [الأنفال: 38].

---

(243) قال ابنُ كثير: («ثمَّ» هاهنا لترتيبِ الخبرِ على الخبرِ، كقولِه تعالى: ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ [البلد: 17]).

((تفسير ابن كثير)) (309/5).

(244) اختلف السلف في تفسير قوله: ﴿ثم اهتدى﴾ على سبعة أقوال: الأول: لم يشك في إيمانه.

الثاني: لزم الإيمان والعمل الصالح حتى يموت.

الثالث: أخذ بسنة النبي – ﷺ –.

الرابع: أصاب العمل.

الخامس: عرف جزاء عمله من خير بثواب، أو شر بعقاب.

السادس: ثم اهتدى إلى ولاية أهل بيت النبي – ﷺ –.

السابع: أنه استقام.

وقد رجّح ابنُ جرير (١٦/ ١٢٧) مستندًا إلى الدلالة العقلية أن معناه: «ثم لزم ذلك، فاستقام ولم يضيع شيئًا منه».

وعلل (١٦/ ١٢٩) ذلك بقوله: «وإنما اخترنا القول الذي اخترنا في ذلك من أجل أن الاهتداء: هو الاستقامة على هدى.

ولا معنى للاستقامة عليه إلا وقد جمعه الإيمان والعمل الصالح والتوبة، فمن فعل ذلك وثَبَتَ عليه فلا شك في اهتدائه».

وذكر ابنُ عطية (٦/ ١١٩) الأقوال المختلفة في الآية، ثم علّق فقال: «وهذه كلها تخصيص واحد منها دون ما هو من نوعه بعيد ليس بالقوي، والذي يقوى في معنى ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾ أن يكون: ثم حفظ معتقداته مِن أن يخالف الحق في شيء من الأشياء، فإنّ الاهتداء على هذا الوجه غير الإيمان وغير العمل، ورب مؤمن عمل صالحًا قد أوبقه عدم الاهتداء، كالقدرية والمرجئة وسائر أهل البدع والخوارج.

فمعنى ﴿ثُمَّ اهْتَدَى﴾: ثم مشى في عقائد الشرع على طريق قويم».

وقال سُبحانَه: قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ [الزمر: 53].

وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ [فصلت: 30].

وعن سُفيانَ بنِ عَبدِ اللهِ الثَّقَفيِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: ((قلتُ: يا رسولَ اللهِ، قلْ لي في الإسلامِ قولًا لا أسألُ عنه أحدًا بَعدَك، قال: قل: آمَنتُ باللهِ، ثمَّ استَقِمْ)).(245)

(245) رواه مسلم (38).

سورةُ طه

الآيات (83–89)

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ
لِتَرْضَى (84) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85) فَرَجَعَ مُوسَى
إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ
أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ
بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87) فَأَخْرَجَ لَهُمْ
عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89)

غريب الكلمات:

عَلَى أَثَرِي: أي: بالقربِ مني، وموالُونَ لي في الوُصولِ، ويأتونَ خَلْفي، والأَثَرُ: ما يتركُه الماشي على الأرضِ مِن عَلاماتِ قَدَمٍ أو حافِرٍ أو خُفٍّ، وأصلُ (أثر): يدلُّ على رَسمِ الشَّيءِ الباقي.

وَعَجِلْتُ: العَجَلَةُ: طَلَبُ الشَّيءِ، وتحرِّيه قبل أوانِه، وهي خلافُ البُطءِ. وأصلُه: يدلُّ على إسراعٍ.

بِمَلْكِنَا: أي: بِطاقَتِنا، واختيارِنا، وقُدرتِنا، وأصلُ (ملك): يدُلُّ على قُوَّةٍ في الشَّيءِ.

أَوْزَارًا: أَي: أثقالًا وأحمالًا، والوِزْرُ: الثِّقلُ، ويُعبَّرُ به أيضًا عن الإثمِ، وأصلُ (وزر) هنا: الثقلُ في الشيءِ.

زِينَةِ الْقَوْمِ: أي: حُلِيِّ آلِ فِرعَونَ، وأصلُ (زين): يدُلُّ على حُسنِ الشَّيءِ وتَحسينِه.

خُوَارٌ: الخُوارُ: صَوتُ البَقَرِ، وأصلُ (خور): يدُلُّ على صَوْتٍ.

تفسير الآيات:

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (83).

أي: وأيُّ شَيءٍ حَمَلَك -يا موسى- على أن تَسبِقَ قَومَك إلى الطُّورِ، ولم تَصبِرْ حتى تقْدَمَ معهم؟!

قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (84).

قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي.

أي: قال موسى: هم قادِمونَ مِن ورائي، وسيلحَقونَ بي.

وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى.

أي: وسبقتُ قومي إلى الطورِ -يا ربِّ- مسارعةً في طَلَبِ رِضاك.

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (85).

قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ.

أي: قال الله لموسى: فإنَّا قد ابتَلَينا قَومَك مِن بَعدِ فِراقِك لهم بعبادةِ العِجلِ!(246)

---

(246) قال ابن عطية: (أعلَمه الله تعالى أنَّه قد فتَن بني إسرائيلَ، أي: اختبرهم بما صنَعه السامريُّ. ويحتملُ أن يريدَ: ألقيناهم في فتنةٍ، أي: في ميلٍ مع الشهواتِ، ووقوعٍ في اختلافِ كلمةٍ). ((تفسير ابن عطية)) (57/4).

وقال ابن عاشور: (إسنادُ الفَتنِ إلى الله تعالى باعتبارِ أنَّه مُقَدِّرُه وخالقُ أسبابِه البعيدةِ.

وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ.

أي: وأضلَّ قومَك السَّامريُّ[247] الذي أخرجَ لهم العِجلَ، ودعاهم إلى عبادتِه فأطاعوه.

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (86).

وأما إسنادُه الحقيقي فهو الذي في قوله: وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ؛ لأنه السَّبَبُ المباشِرُ لضَلالِهم المسبِّبِ لفِتنتِهم).

((تفسير ابن عاشور)) (279/16).

(247) السامري هو الرجلُ الذي كان سببًا في ضلالِ بنى إسرائيلَ، قيل: كان مِن بني إسرائيلَ، وقيل: لم يكنْ منهم، وقد اختُلف في اسمِه، وفي سببِ تسميتِه بالسامريِّ، وذُكِرتْ في نشأتِه قصةٌ، قال القاسمي: (وقد قال بالظنِّ مَن ادَّعَى تسميتَه، أو حاوَل تعيينَه).

يُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (143/1)، (61/4)، ((تفسير ابن الجوزي)) (173/3)، ((تفسير القاسمي)) (141/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (279/16–281).

ذكر ابن عطية (٦/ ١٢٠) قولين في أصل السامريّ: الأول: أنه من بني إسرائيل، ويقال: إنه كان ابن خال موسى – عليه السلام –.

الثاني: كان أصله مِن العجم مِن أهل كرمان، ولم يكن من بني إسرائيل.

ورجّح القول الأول قائلًا: «والأول أصح».

ولم يذكر مستندًا.

فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا.

أي: فانصرفَ موسى من الطُّورِ إلى قَومِه بني إسرائيلَ في حالِ غَضَبٍ شَديدٍ منهم، وحُزنٍ على ما أحدَثوه مِن ضَلالٍ وكُفرٍ في غيابِه.(248)

---

(248) وممَّن فسَّر الأسَفَ هنا بالحزنِ: ابنُ جريرٍ، والسمعاني، والبغوي، وابنُ عطيةَ، والخازنُ، والفيروزابادي، والقاسمي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (131/16)، ((تفسير السمعاني)) (347/3)، ((تفسير البغوي)) (271/3)، ((تفسير ابن عطية)) (58/4)، ((تفسير الخازن)) (210/3)، ((بصائر ذوي التمييز)) للفيروزابادي (185/2)، ((تفسير القاسمي)) (141/7)، ((تفسير ابن عاشور)) (281/16).

ونسَب الرازي للأكثرينَ أن المعنى: حُزْنًا وجَزَعًا.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (87/22).

قال ابنُ عطية: (رجَع موسى إلى قومه غَضبانَ أسِفًا عليهم؛ مِن حيثُ له قُدرةٌ على تغييرِ مُنكَرِهم. أسِفًا، أي: حَزينًا؛ مِن حيثُ عَلِمَ أنَّه موضِعُ عُقوبةٍ لا يَدَ له بدَفعِها، والأسَفُ في كلامِ العَرَبِ متى كان مِن ذي قُدرةٍ على مَن دُونَه، فهو غَضَبٌ، ومتى كان من الأقَلِّ على الأقوى فهو حُزنٌ، وتأمَّلْ ذلك فهو مطَّرِدٌ إن شاء اللهُ عزَّ وجلَّ).

((تفسير ابن عطية)) (58/4).

وممَّن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ، والسُّدِّي، وقتادةُ، ومجاهدٌ، والحسنُ، ومالكُ بنُ دينارٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (450/10)، ((تفسير ابن أبي حاتم)) (1569/5)، ((تفسير ابن الجوزي)) (156/2).

وقيل: الأسَفُ هنا هو شِدَّةُ الغضَبِ.

وممَّن اختار ذلك: الرسعني، والقرطبي، وابنُ كثير، والعليمي، والشوكاني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (264/2)، ((تفسير القرطبي)) (286/7)، ((تفسير ابن كثير)) (310/5)، ((تفسير العليمي)) (316/4)، ((تفسير الشوكاني)) (448/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (79/4)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (178/4).

وممَّن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: أبو الدرداءِ، فقال: الأسفُ منزلةٌ وراءَ الغضبِ أشدُّ مِن ذلك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (450/10).

قال الواحدي: (والقولانِ مُتقارِبانِ؛ لأنَّ الغَضَبَ مِن الحُزنِ، والحُزنَ مِنَ الغَضَبِ؛ فإذا جاءك ما تكرهُ ممَّن هو دونَك غَضِبتَ، وإذا جاءك ممَّن هو فوقك حَزِنتَ، يُسمَّى أحدُهما: حُزنًا، والآخَرُ: غَضَبًا، وأصلُهما أن يُصيبَك ما تكرهُ).

((البسيط)) (366/9).

قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا.

أي: قال موسى: يا قومِ، ألم يَعِدْكم رَبُّكم وَعدًا حَسَنًا بحُصولِ الخَيرِ لكم في الدُّنيا والآخرةِ، كإنزالِ التَّوراةِ، والنَّصرِ على أعدائِكم، وغيرِ ذلك مِن أياديه عِندَكم، ووَعَدَكم مَغفِرةَ ذُنوبِكم، ودُخولَ الجَنَّةِ إن أطعتُموه؟

أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ.

أي: فهل طال عليكم انتِظارُ ما وعَدَكم اللهُ، ونَسِيتُم نِعَمَه عليكم؟! فإنَّ زَمَنَ ذلك لم يَبعُدْ حتَّى تيأسوا مِن الوفاءِ، وتَكفُروا وتَعبُدوا غيرَه، وتكونَ لكم شُبهةُ عُذرٍ في الإعراضِ عن عبادةِ اللهِ.(249)

أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي.

وقال الراغب: (الأَسَفُ: الحزن والغضب معًا، وقد يقال لكل واحدٍ منهما على الانفراد).
((المفردات في غريب القرآن)) (ص: 75).

(249) وممَّن قال بالمعنى المذكور هنا لطولِ العهد في الجملةِ: ابنُ كثير، والألوسي، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/310)، ((تفسير الألوسي)) (8/555)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/282).
وقيل: المراد: أَفَطَالَت عليكم مدة مفارقتي إياكم؟ وممَّن قال بذلك: الواحدي، والزمخشري، وابن الجوزي.
يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (3/217)، ((تفسير الزمخشري)) (3/82)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/171).
قال السعدي: (أي: المدة، فتطاولتُم غَيبتي وهي مدةٌ قصيرة؟ هذا قولُ كثيرٍ مِن المفسِّرينَ، ويحتملُ أن معناه: أفطال عليكم عَهدُ النبُوَّة والرسالة، فلم يكن لكم بالنبُوَّة عِلمٌ ولا أَثَرٌ، واندرست آثارُها، فلم تَقِفوا منها على خبرٍ، فانمحت آثارُها لبُعدِ العَهدِ بها، فعبدتُم غيرَ اللهِ؛ لغلبة الجَهلِ، وعَدَمِ العلم بآثار الرســـالة؟ أي: ليس الأمرُ كذلك، بل النبوةُ بين أظهُرِكم، والعِلمُ قائمٌ، والعُذرُ غيرُ مَقبولٍ!).
((تفسير السعدي)) (ص: 511).

أي: بل[250] أردتُم أن يجِبَ عليكم غضَبٌ مِنَ اللهِ، فتَستَحِقُّوه؛ لِتَركِكم اتِّباعي إلى الطُّورِ، وعُكوفِكم على عبادةِ العِجلِ مِن بَعدِي!

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (87)﴾.

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾.

أي: قال بنو إسرائيلَ لِموسى: ما أخلَفْنا ما عَهِدتَ إلينا بإرادتِنا واختيارِنا، ولم نكنْ نَملِكُ أمْرَنا.[251]

---

(250) ممن قال بأن «أم» هاهنا بمعنى «بل»، وهي للإضرابِ عن الكلامِ الأوَّلِ، وعدولٌ إلى الثاني: ابنُ كثيرٍ، وابنُ عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (310/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (283/16).
ويُنظر أيضًا: ((تفسير السعدي)) (ص: 511).
وقال الشنقيطي: (قوله: أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ قال بعضُ العلماءِ: «أم» هنا هي المنقطعةُ، والمعنى: بل أردتُم أن يحِلَّ عليكم غضبٌ مِن ربِّكم، ومعنى إرادتِهم حلولَ الغضبِ: أنهم فعلوا ما يستوجبُ غضبَ ربِّهم بإرادتِهم. فكأنهم أرادوا الغضبَ لَمَّا أرادوا سببَه، وهو الكفرُ بعبادةِ العجلِ).
((أضواء البيان)) (81/4).
(251) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (132/16-135)، ((تفسير ابن كثير)) (310/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (328/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 511)، ((تفسير ابن عاشور)) (284/16).
قال ابنُ جرير: (اختلَفَ أيضًا أهلُ التأويلِ في تأويلِه، فقال بعضُهم: معناه: ما أخلَفْنا مَوعِدَك بأمْرِنا...
وقال آخرون: معناه: بطاقتِنا...
وقال آخرون: معناه: ما أخلَفْنا مَوعِدَك بهَوانا، ولكنَّا لم نملِكْ أنفُسَنا...
وكل هذه الأقوالِ الثلاثةِ في ذلك متقارباتُ المعنى؛ لأنَّ مَن لم يَملِكْ نفسَه لِغَلَبةِ هواه على ما أُمِرَ، فإنَّه لا يمتَنِعُ في اللغةِ أن يقولَ: فعَلَ فلانٌ هذا الأمرَ وهو لا يملِكُ نفسَه وفِعلَه، وهو لا يضبِطُها وفعلَه، وهو لا يطيقُ تَرْكَه).
((تفسير ابن جرير)) (133/16-135).
وقال الشنقيطي: (المعنى: ما أخلفنا موعدَك بأن ملكنا أمرَنا، فلو ملكنا أمرَنا ما أخلفنا موعدَك.

وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا.

أي: ولكِنَّا حُمِّلْنا[252] مِن حُلِيِّ آلِ فِرعَون، فألقَيناها في النَّارِ.[253]

وهو اعتذارٌ منهم بأنهم ما أخلفوا الموعدَ باختيارِهم، ولكنهم مغلوبون على أمرِهم مِن جهةِ السامريّ وكيدِه! وهو اعتذارٌ باردٌ ساقطٌ).

((أضواء البيان)) (81/4).

اخْتُلِفَ في معنى: ﴿بِمَلْكِنا﴾ على أقوال: الأول: بأمْرِنا.

الثاني: بطاقتنا.

الثالث: بهوانا، ولكنا لم نملك أنفُسَنا.

وعلَّق ابنُ جرير (١٦/ ١٣٥) على هذه الأقوال قائلًا: «وكل هذه الأقوال الثلاثة في ذلك متقارِبات المعنى».

ثم بيَّن وجْهتها بقوله: «لأنّ مَن لم يملك نَفْسَه لغلَبَة هواه على أمرٍ فإنه لا تمتنع اللغة أن تقول: فعَل فلان هذا الأمر وهو لا يملك نفْسَه، وفَعَلَه وهو لا يَضْبِطُها، وفعَلَه وهو لا يُطيق تَرْكَه».

(252) قال الأزهري: (قرأ أبو عمرو وأبو بكرٍ عن عاصمٍ وحمزةَ والكسائي: حَمَلْنَا مفتوحةَ الحاءِ والميمَ خفيفةً.

وقرأ الباقون: حُمِّلْنَا بضمّ الحاءِ وتشديدِ الميم...

قال أبو منصورٍ: هما -كما قال أبو عمرو- سواء في مرجعِ المعنى إليه).

((معاني القراءات)) (157/2، 158).

وذكَر ابنُ جريرٍ أنَّه على قراءةِ: حُمِّلْنَا بضمّ الحاءِ وتشديدِ الميم، فالمعنى أنَّ موسى يحمِّلُهم ذلك.

وعلى قراءةِ حَمَلْنَا بتخفيفِ الحاءِ والميمِ وفتحِهما، بمعنى أنهم حملوا ذلك مِن غيرِ أن يكلفَهم حملَه أحدٌ، ثم قال: (والقولُ عندي في تأويل ذلك أنَّهما قراءتان مشهورتانِ متقاربتا المعنَى؛ لأنَّ القومَ حملوا، وأنَّ موسَى قد أمرهم بحملِه).

((تفسير ابن جرير)) (137/16-138).

(253) قال ابن جُزَي: (وزينةُ القَومِ هي: حُلِيُّ القِبطِ قَومِ فِرعَونَ، كان بنو إسرائيلَ قد استعاروه منهم قبلَ هلاكِهم.

وقيل: أخذوه بعد هلاكِهم).

((تفسير ابن جزي)) (12/2).

وقال القرطبي: (وسُمِّيَت أوزارًا بسَببِ أنَّها كانت آثامًا، أي: لم يحِلَّ لهم أخذُها ولم تحِلَّ لهم الغنائِمُ، وأيضًا فالأوزارُ هي الأثقالُ في اللغةِ.

فَقَذَفْنَاهَا أي: ثَقُل علينا حَملُ ما كان معنا من الحُليِّ فقذَفناه في النَّارِ لِيَذوبَ، أي: طرَحْناه فيها.

وقيل: طرَحْناه إلى السامريّ لترجِعَ فترى فيها رأيَك).

((تفسير القرطبي)) (235/11).

فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ.

أي: فكما قَذَفْنا نحن تلك الأثقالَ مِن الحُلِيِّ، ألقَى السَّامِريُّ[254] أيضًا ما كان في يَدِه.[255]

وقال ابنُ كثير: (فَقَذَفْنَاهَا أي: ألقَيناها عنَّا...

وحاصِـلُ ما اعتذر به هؤلاء الجَهَلةُ أنَّهم تورَّعوا عن زينةِ القِبطِ فألقَوها عنهم، وعَبَدوا العِجلَ! فتورَّعوا عن الحقيرِ وفعلوا الأمرَ الكبيرَ!).

((تفسير ابن كثير)) (5/310-311).

وقال الشـنقيطي: (أظهَرُ الأقوالِ عندي في ذلك: هو أنَّهم جعلوا جميعَ الحُلِيِّ في النارِ ليذوبَ فيصـيرَ قطعةً واحدة؛ لأنَّ ذلك أسهَلُ لحِفظِه حتى يرى نبيُّ اللهِ موسى فيه رأيَه، والسَّامريُّ يريدُ تدبيرَ خطَّةٍ لم يطَّلِعوا عليها).

((أضواء البيان)) (4/83).

(254) اختُلِفَ في كيفية إخراج السامريّ العجل على قولين: الأول: أنّه صـاغه صـياغة، ثم ألقى من تراب حافر فرس جبريل في فيه، فخار.

وهو قول قتادة.

الثاني: أنه لم يَصُغْه، وإنما ألقى الناسُ الحليّ في حفرة، فألقى هو عليها القبضة فتجسَّد العجل.

وهو قول السدي.

وذكر ابنُ عطية (٦/ ١٢٠) هذين القولين، ورجَّح القول الثاني مستندًا إلى دلالة ظاهر الآية بقوله: «وهو الأصح والأكثر».

وبقوله (٤/ ٥٩ ط: دار الكتب العلمية) تعليقًا على قوله تعالى: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السّامِرِيُّ﴾: «وهذه الألفاظ تقتضي أن العجل لم يَصُغْه السامريّ».

ثم علَّق (٦/ ١٢١) بما مفاده أنّه على القول الأول لم تنخرق للسّـامريّ عادة، وأن فتنة بني إسـرائيل كانت بخوار العجل فقط، وعلى الثاني انخرقت له عادة، وكان هذا وجْه فتنتهم.

(255) قال ابن الجوزي: (قوله تعالى: فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ فيه قولان: أحدهما: أنَّه ألقَى حُلِيًّا كما ألقَوا.

والثاني: ألقَى ما كان مِن ترابِ حافِرِ فَرَسِ جبريلَ).

((تفسير ابن الجوزي)) (3/172).

ويُنظر: ((تفسير النسفي)) (2/379).

وممن قال بالقولِ الأوَّلِ: الزجَّاج، والواحدي، والخازنُ، والعليمي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (2/377)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 702)، ((تفسير الخازن)) (3/210)، ((تفسير العليمي)) (4/317)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/285).

وممن قال بالقولِ الثاني: ابنُ جريرٍ، والزمخشري، والرسعني، والسعدي.

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (88).

فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ.

أي: فأخرَجَ السَّامِريُّ لبني إسرائيلَ مِن الحُلِيِّ التي قَذَفوها في النَّارِ عِجلًا جسدًا، له صوتُ البَقَرِ.(256)

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/138)، ((تفسير الزمخشري)) (3/82)، ((تفسير الرسعني)) (4/555)، ((تفسير السعدي)) (ص: 511).

قال ابنُ جُزَي: (كان السَّامِريُّ قد رأى جبريلَ عليه السَّلامُ، فأخذ مِن وَطءِ فَرَسِه قَبضةً مِن تُرابٍ، وألقى اللهُ في نَفسِه أنَّه إذا جعَلَها على شَيءٍ مواتٍ صار حيوانًا، فألقاها على العِجلِ فخار العِجلُ، أي: صاح صِياحَ العُجولِ، فالمعنى: أنَّهم قالوا: كما ألقَينا الحُلِيَّ في الحُفرةِ ألقى السَّامريُّ قَبضةَ التُّرابِ).

((تفسير ابن جزي)) (2/12).

(256) وممن اختار أنَّ العجلَ لم تكُنْ له روحٌ: ابنُ الأنباري -كما حكاه عنه ابنُ الجوزي- واختاره أيضًا: السجستاني، والزجاج، وابنُ الجوزي، وابنُ عطية، وابنُ تيمية، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((غريب القرآن)) للسجستاني (ص: 346)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (2/377)، ((تفسير ابن الجوزي)) (2/155)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (5/218، 219)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/286).

قال ابنُ الجوزي: (قال ابنُ الأنباري: ذِكرُ الجسَدِ دَلالةٌ على عدَمِ الرُّوحِ منه، وأنَّ شَخصَه شَخصُ مِثالٍ وصورةٍ، غيرُ مُنضَمٍّ إليهما روحٌ ولا نَفْسٌ).

((تفسير ابن الجوزي)) (2/155).

وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ كثيرٍ، فقد قال: (فلمَّا ألقاها فيه خار كما يخورُ العجلُ الحقيقيُّ).

((البداية والنهاية)) (2/147).

وقال ابنُ تيمية: (ليس المرادُ مِن العجلِ أن له بدنًا مثل بدَنِ الآدميين، ولا بدنًا كأبدانِ البَقرِ؛ فإنَّ العجلَ لم يكنْ كذلك... والمقصودُ: أنَّ ما أخرجَه كان جسَدًا مُصمَتًا لا رُوحَ فيه حتى تَبيَّن نَقصُه، وأنَّه كان مَسلوبَ الحياةِ والحَرَكة).

((مجموع الفتاوى)) (5/218، 219).

وقال ابن عاشور: (والجَسَدُ: الجسمُ ذو الأعضاءِ، سواءٌ كان حيًّا أم لا؛ لِقولِه تعالى: وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا [ص: 34] . قيل: هو شِقُّ طِفلٍ ولدَتْه إحدى نسائِه، كما ورد في الحديثِ.

قال الزجاجُ: الجسدُ هو الذي لا يعقلُ ولا يميزُ، إنما هو الجثةُ، أي: أخرج لهم صورةَ عجلٍ مجسدةً بشكلِه وقوائمِه وجوانبِه، وليس مجردَ صورةٍ منقوشةٍ على طبقٍ مِن فضةٍ أو ذهبٍ).

كما قال تعالى: وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ [الأعراف: 148].

فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ.

((تفسير ابن عاشور)) (286/16).

قال ابن الجوزي: (وكان مجاهدٌ يقولُ: خوارُه حفيفُ الريحِ فيه.

وهذا يدلُّ على أنَّه لم يكنْ فيه روحٌ).

((تفسير ابن الجوزي)) (155/2).

وذهب الواحدي والشنقيطي إلى أنَّ العجلَ صار جسدًا ذا لحم ودمٍ، وعزاه الواحدي إلى أكثرِ أهلِ التفسيرِ.

يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (411/2)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 703)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (79/4).

قال السمعاني: (واختلفوا في الخوارِ: فالأكثرونَ أنَّه صَوتُ عجلٍ حَيٍّ، وهو قولُ ابنِ عَبَّاسٍ، والحسنِ، وقتادةَ، وجماعةٍ).

((تفسير السمعاني)) (349/3).

وقال الشنقيطي: (قال بعضُ العُلَماءِ: جعَلَ اللهُ بقدرتِه ذلك الحليَّ المصوغَ جَسدًا مِن لحمٍ ودمٍ، وهذا هو ظاهِرُ قَولِه عِجْلًا جَسَدًا.

وقال بعضُ العلماءِ: لم تكنْ تلك الصورةُ لحمًا ولا دمًا، ولكن إذا دخلَتْ فيها الرِّيحُ صَوَّتَت كخُوار العِجلِ.

والأوَّلُ أقرب لظاهِرِ الآية، واللهُ تعالى قادرٌ على أن يجعَلَ الجَمادَ لحمًا ودمًا، كما جعل آدمَ لحمًا ودمًا، وكان طينًا).

((أضواء البيان)) (79/4).

أي: فقالوا:[257] هذا العِجلُ هو معبودُكم ومعبودُ موسى الذي غَفَل[258] عنه موسى هاهنا، وذهبَ إلى الجبلِ ليطلُبَه![259]

---

(257) قيل: الضميرُ في (قالوا) يعودُ إلى السامري ومَن تابَعه ووافَقه ممن افتتَن بالعجلِ.

وممن اختاره الواحدي، والرسعني، والقرطبي، والخازنُ، والعليمي، والشوكاني، يُنظر: ((الوسيط)) للواحدي (218/3)، ((تفسير الرسعني)) (555/4)، ((تفسير القرطبي)) (236/11)، ((تفسير الخازن)) (210/3)، ((تفسير العليمي)) (318/4)، ((تفسير الشوكاني)) (449/3).

وقيل: الضميرُ يعودُ إلى قومِ موسى الذين عبدوا العجلَ، وافتتنوا به.

وممن اختاره: ابنُ جرير، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (140/16)، ((تفسير ابن كثير)) (311/5).

(258) اختُلِفَ في قوله تعالى: ﴿فَنَسِيَ﴾ مَن قائله؟ ومَن الذي وُصِف به؟ فقيل: إنه من كلام السامريّ لبني إسرائيل، أي: فنسي موسى – عليه السلام – ربه وإلهه وذهب يطلبه في غير موضعه.

وقيل: إن هذا خبر مِن الله تعالى عن السامريّ أنه نسي دينه وطريق الحق.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ١٤٣) مستندًا إلى دلالة الإجماع، والسياق القول الأوّل، وهو قول الجميع سوى ابن عباس من طريق سعيد بن جبير، وعلَّل ذلك بقوله: «لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه، وأنه عَقِيب ذِكْرِ موسى، فهو بأن يكون خبرًا من السامريّ عنه بذلك أشبه من غيره».

ووافقه ابنُ القيم (٢/ ١٨٥).

ووجَّه ابنُ عطية (٦/ ١٢٤) «النسيان» على كلا القولين بقوله: «فالنسيان في التأويل الأول بمعنى: الذهول، وفي الثاني بمعنى: الترك».

(259) وممن ذهَب إلى أنَّ الضميرَ في (نَسِيَ) يعودُ إلى موسى: مقاتلُ بنُ سليمانَ، وابنُ جريرٍ، والرازي، والقرطبي، والشوكاني، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (38/3)، ((تفسير ابن جرير)) (143/16)، ((تفسير الرازي)) (90/22)، ((تفسير القرطبي)) (236/11)، ((تفسير الشوكاني)) (449/3)، ((تفسير القاسمي)) (142/7).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه، وقتادةُ، ومجاهدٌ، والسُّدّي، وابنُ زيدٍ، والضحَّاك.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (141/16).

وعزا الرازي القولَ بأنَّ معنَى الآيةِ: أنَّ هذا إلهُكم وإلهُ مُوسَى، فنَسِيَ مُوسى أنَّ هذا هو الإلهُ، فذَهَب يطلُبُه في موضعٍ آخَرَ– إلى الأكثرينَ.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (90/22).

قالَ اللَّهُ تعالَى رَدًّا عليهم، وتقريعًا لهم، وبيانًا لفضيحَتِهم، وسَخافةِ عقولِهِم فيما ذَهَبوا إليه:

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (89).

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا.

أي: أفلا يرى الذين عبدوا العِجلَ أنَّه لا يكَلِّمُهم، ولا يرُدُّ عليهم إنْ كَلَّموه؟!

كما قال تعالى: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ [الأعراف: 148].

وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

أي: وأنَّه لا يَقدِرُ على ضَرِّهم بشَيءٍ، ولا على نفعِهم بشَيءٍ في الدُّنيا ولا في الآخِرةِ؟ فكيف يكونُ إلهًا مَن تلك صِفاتُه؟!

وقيل: المعنى: فنسِي موسى أن يخبرَكم أنَّ هذا إلهُه.
وقيل غير ذلك.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (172/3).
وقيل: الضميرُ يعودُ إلى السامري.
واستظْهَر هذا القولَ أبو حيان.
يُنظر: ((تفسير أبي حيان)) (369/7).
وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ في روايةٍ عنه.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (141/16).

سورةُ طه

الآيات (90–94)

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي
(90) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ
رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93) قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا
بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94)

غريب الكلمات:

لَنْ نَبْرَحَ: أي: لن نَزالَ، وأصلُ (برح): يدلُّ على زوالٍ وبُروزٍ وانكشافٍ.

عَاكِفِينَ: أي: مُقيمينَ، والعُكوفُ: الإقبالُ على الشَّيءِ، ومُلازمتُه على سَبيلِ التَّعظيمِ له، وأصلُ (عكف): يدُلُّ على حَبسٍ.

وَلَمْ تَرْقُبْ: أي: لم تُرْاعِ وتحفَظْ، وأصلُ (رقب): يدُلُّ على انتصابٍ لِمُراعاةِ شَيءٍ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (90).

وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ.

أي: ولقد قال هارونُ لِعَبَدةِ العِجلِ مِن قَومِه، ناصحًا لهم مِن قَبلِ رُجوعِ موسى إليهم: يا قومِ، إنَّما اختبَرَكم اللهُ وابتلاكم بهذا العِجلِ؛ ليَظهرَ مَن يَثبُتُ منكم على إيمانِه باللهِ، ومَن يُفتَنُ بالعِجلِ فيَكفُرُ.

وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي.

أي: وإنَّ رَبَّكم الرَّحمنُ الذي يَرحَمُكم، ويُنعِمُ عليكم بالنِّعَمِ الظاهرةِ والباطنةِ، لا العِجلُ الذي تعبُدونَه؛ فاتَّبِعوني على ما آمُرُكم به مِن عِبادةِ اللهِ، وتَرْكِ عبادةِ العِجلِ، وأطيعوني فيما أمَرتُكم به مِن طاعةِ اللهِ، وإخلاصِ العبادةِ له، ولا تُطيعوا السَّامِريَّ.

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (91).

أي: قال عَبَدةُ العِجلِ: سنظَلُّ مُقيمينَ على عبادةِ العِجلِ، حتى يأتيَ إلينا موسى من الطُّورِ، فنسمَعَ كلامَه في شأنِ العِجلِ، أو ننظُرَ صنيعَه فيه.

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (93).

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (92) أَلَّا تَتَّبِعَنِ.

أي: قال موسى لأخيه لائمًا له لَمَّا رجَعَ إلى قَومِه، فرأى ما حَدَث فيهم مِن الخَطبِ العَظيمِ: يا هارونُ، أيُّ شَيءٍ مَنَعَك حين رأيتَ بني إسرائيلَ قد أخطؤوا طريقَ الحَقِّ بعبادتِهم العِجلَ وكَفَروا باللهِ: أن تلحَقَ بي؟[260]

---

(260) قال ابنُ عطية: (وقولُه تعالى: أَلَّا تَتَّبِعَنِ بمعنى: ما منعك أن تتَّبِعَني).
((تفسير ابن عطية)) (4/60)، ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/89، 90).
وممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه: أَلَّا تَتَّبِعَنِ: أي: أنْ تتَّبعني وتلحقَ بي: ابنُ جريرٍ، والواحدي، وابنُ كثيرٍ.
يُنظر المصادر السابقة.
قال ابنُ كثيرٍ: (أَلَّا تَتَّبِعَنِ أي: فتُخبرني بهذا الأمرِ أولَ ما وقَع).
((تفسير ابن كثير)) (5/312).
ويُنظر أيضًا: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 703)، ((تفسير السعدي)) (ص: 512).
وقال الألوسي: (كان موسى عليه السَّلامُ رأى أنَّ مُفارقةَ هارونَ لهم، وخُروجَه من بينِهم بعد تلك النَّصائحِ القَوليَّةِ: أزجَرُ لهم مِنَ الاقتصارِ على النَّصائحِ؛ لِما أنَّ ذلك أدَلُّ على الغضَبِ، وأشَدُّ في الإنكارِ، لا سيَّما وقد كان عليه السَّلامُ رئيسًا عليهم محبوبًا لديهم، وموسى يعلَمُ ذلك، ومُفارقةُ الرَّئيسِ المحبوبِ كراهةً لأمرٍ: تَشُقُّ جِدًّا على النُّفوسِ، وتستدعي تَرْكَ ذلك الأمرِ المكروهِ له الذي يوجِبُ مُفارقتَه، وهذا ظاهِرٌ لا غُبارَ عليه عند من أنصَفَ).
((تفسير الألوسي)) (8/560).
وقال ابنُ الجوزي في بيانِ أقوالِ المفسِّرينَ في قوله تعالى: أَلَّا تَتَّبِعَنِ: (وفي المعنى ثلاثةُ أقوالٍ: أحدُها: تسيرُ ورائي بمن معك من المؤمنينَ وتفارِقُهم.
رواه سعيدُ بنُ جُبيرٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.
والثاني: أن تُناجِزَهم القِتالَ.
رواه أبو صالحٍ عن ابنِ عبَّاسٍ.
والثالث: في الإنكارِ عليهم.
قاله مقاتِلٌ).
((تفسير ابن الجوزي)) (3/172).

أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي.

أي: هل عَصَيتَ –يا هارونُ– أمري لك بأن تَخلُفَني في قومي، وأن تُصلِحَ، ولا تتَّبعَ سَبيلَ المُفسِدينَ؟[261]

كما قال الله تعالى: وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ [الأعراف: 142].

قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (94).

قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي.

أي: ثمَّ أخَذ موسى بلِحيةِ أخيه هارونَ ورأسِه يجُرُّه إليه، فقال هارونُ مُستَعطِفًا أخاه: يا ابنَ أمَّ،[262] لا تأخُذْ بلِحيتي، ولا بشَعرِ رأسي.

ويُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/39).

(261) وقيل: المرادُ: أنَّ مقامَك بينهم وقد عبدوا غيرَ الله تعالى عصيانٌ منك لي.

وممَّن ذهب إلى هذا المعنى: الواحدي، والقرطبي.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 703)، ((تفسير القرطبي)) (11/237).

(262) ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٢٦) قولًا آخر، وهو أن هارون لم يكن أخًا لموسى إلا من أمِّه، وانتقده قائلًا: «وهذا ضعيف».

اختُلِفَ في السبب الذي لأجله لامَ موسى أخاه هارون بقوله: ﴿أَلا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ على أقوال: الأول: لامه لتَركه السير ببني إسرائيل في أثره حيثُ عَهِدَ إليه موسى – عليه السلام –.

والثاني: لامه لعدم سيره على طريقة موسى – عليه السلام – في الإصلاح والإنكار عليهم.

إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

أي: إِنِّي خَشِيتُ أن تقولَ لي إن لحقتُ بك: فَرَّقْتَ بينَ جماعةِ بني إسرائيلَ.(263)

وكذلك أفادت الآثارُ اختلافَهم في صفة التفريق بينهم الذي خشيه هارون – عليه السلام – على أقوال: الأول: أن يسير هارون بطائفة منهم، ويَتْرُك طائفة أخرى وراءه لاختلاف معتقدهم.

والثاني: أن يقتتِلوا فيَقْتُل بعضهم بعضًا.

ووجَّه ابنُ عطية (٦/ ١٢٥) ذلك، فقال: «ويحتمل قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: ببني إسرائيل نحو جبل الطور، فيجيء اعتذار هارون – عليه السلام – بمعنى: إنِّي لو فعلتُ ذلك مَشَتْ معي طائفة، وأقامت طائفةٌ على عبادة العجل، فتفرَّق الجمْع، فخفْتُ لومَك على التفريق.

ويحتمل قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ أي: ألا تسير بسيرتي وعلى طريقتي في الإصلاح والتسديد، فيجيء اعتذار هارون – عليه السلام – بمعنى: إنّ الأمر كان متفاقمًا، فلو تقوَّيتُ عليه وقع القتال واختلاف الكلمة، فكان تفريقًا بين بني إسرائيل، وإنما لايَنْتُ جهدي».

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ١٤٧ بتصرف) مستندًا إلى دلالة السياق بأن موسى لامَ أخاه هارون «على تَرْكِه اتباع أمْرِه في السير بمن اتَّبعه مِن أهل الإيمان، فقال له هارون: إني خشيت أن تقول: فَرَّقْتَ بيْن جماعتهم؛ فتركْتَ بعضهم وراءك، وجئتَ ببعضهم».

وهو قول ابن عباس، وابن زيد، وعلَّل ذلك بقوله: «وذلك بيّنٌ في قول هارون للقوم: ﴿يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فاتَّبِعُونِي وأَطِيعُوا أَمْرِي﴾، وفي جواب القوم له وقيلهم: ﴿لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتّى يَرْجِعَ إلَيْنا مُوسى﴾».

(263) قيل: المعنى: إن لحقتُ بكَ مع الذين لم يعبدوا العجلَ أن تقولَ لي: فرقتَ بين بني إسرائيل بأن جئتَ ببعضِهم، وتركتَ بعضهم.

وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (147/16)، ((تفسير القرطبي)) (239/11).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيدٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (146/16).

قال القرطبي: (أي: خشيتُ أن أخرُجَ وأترُكَهم وقد أمرتَني أن أخرُجَ معهم؛ فلو خرجتُ لاتَّبَعني قومٌ ويتخلَّف مع العِجلِ قومٌ، وربما أدَّى الأمرُ إلى سَفكِ الدماء، وخَشيتُ إن زجرتُهم أن يقعَ قِتالٌ فتلومَني على ذلك).

((تفسير القرطبي)) (239/11).

وقيل: المعنى: إنِّي خَشِيتُ إن لَحِقتُ بك لأخبِرَك بهذا الخَطبِ الذي وقع أن تقولَ لي: لم تركْتَهم وحدَهم وليس عندهم راعٍ ولا خليفةٌ؛ فإنَّ هذا يفَرِّقُهم ويشَتِّتُ شَملَهم.

وممَّن قال بذلك: ابنُ كثير، والسعدي.

وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي.

أي: وخَشِيتُ أن تقولَ: ولم تحفَظْ وصِيَّتي وتعمَلْ بها، ولم تراعِ ما أمَرْتُك به حين استخلَفْتُك على قَومي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/312)، ((تفسير السعدي)) (ص: 512).

سورةُ طه

الآيات (95-98)

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ
الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ
لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ
لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98)

غريب الكلمات:

خَطْبُكَ: أي: أمرُك وشَأنُك، والخَطبُ: الأمرُ يقعُ؛ وإنَّما سُمِّيَ بذلك لِما يقَعُ فيه من التخاطُبِ والمُراجَعةِ.

بَصُرْتُ: أي: رأيتُ وعلِمتُ، وأصلُ (بصر): يدُلُّ على العِلمِ بالشَّيءِ.

فَنَبَذْتُهَا: أي: قَذَفتُها، وألقَيْتُها، وأصلُ النَّبذِ: طَرْحُ الشَّيءِ وإلقاؤُه.

سَوَّلَتْ: أي: زَيَّنَتْ، والتَّسْويلُ: تزيينُ النَّفسِ لِما تَحرِصُ عليه، وتصويرُ القَبيحِ منه بصورةِ الحَسَنِ.

لَا مِسَاسَ: أي: لا تَمسُّ النَّاسَ ولا يَمَسُّونَك، أو كنايةٌ عن الطَّردِ والوَحدةِ، وأصلُ (مسَّ): جَسُّ الشَّيءِ باليَدِ.

ظَلْتَ عَلَيْهِ: أي: دُمتَ وأقَمْتَ عليه، يُقَال: ظلَّ يفعَلُ كذا: إذا فعَلَه نَهارًا.

لَنَنْسِفَنَّهُ: أي: لَنَقذِفَنَّه ولَنُذرِّيَنَّه، يقال: نَسَفت الريحُ الشَّيءَ: إذا اقتَلَعَتْه وأزالَتْه، وأصلُ (نسف): يدُلُّ على كشفِ شيءٍ.

تفسير الآيات:

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (95).

أي: قال موسى: فما شأنُكَ -يا سامِريُّ-، وما الذي حَمَلك على ما صَنعْتَ؟!

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (96).

قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ.

أي: قال السَّامريُّ لموسى: رأيتُ ما لم يرَ بنو إسرائيلَ،[264] وعلمْتُ ما لم يَعْلَموا![265]

---

(264) ذكر ابنُ عطية (٦/ ١٢٨) أنّه رُوِي في سبب معرفة السامريّ لجبريل - عليه السلام -: أن أم السامريّ ولدته عام الذبح، فطرحته في مغارة، فكان جبريل - عليه السلام - يغذوه فيها ويحميه حتى كبر وشبَّ، فميزه لذلك.

وانتقد هذه الرواية قائلًا: «وهذا ضعيف».

(265) قال ابن عطية: (يحتمل أن يرادَ مِن البصيرةِ، ويحتَملُ أن يُرادَ مِن البَصَر).

((تفسير ابن عطية)) (61/4).

وممن فسر بَصُرْتُ بالعلم: مقاتل بن سليمان، وأبو عبيدة، وابن جرير، والزجاج، ومكي، والواحدي، والزمخشري، والعُليمي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (40/3)، ((مجاز القرآن)) لأبي عبيدة (26/2)، ((تفسير ابن جرير)) (148/16)، ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (374/3)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (4689/7)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 704)، ((تفسير الزمخشري)) (84/3)، ((تفسير العُليمي)) (320/4).

((تفسير ابن عاشور)) (295/16).

وممن فسَّره بالرؤية: السمعاني، وابنُ جزي، والقرطبي، وابن كثير، وأبو السعود، وهو ظاهرُ كلامِ السعدي.

فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ.

أي: فأخذتُ بكَفِّي ترابًا من أثَرِ حافِرِ فَرَسِ جِبريلَ![266]

يُنظر: ((تفسير السمعاني)) (352/3)، ((تفسير ابن جزي)) (13/2)، ((تفسير القرطبي)) (239/11)، ((تفسير ابن كثير)) (313/5)، ((تفسير أبي السعود)) (38/6)، ((تفسير السعدي)) (ص: 512).

وممن جمع بين المعنيين السابقين: السمرقندي، والقنوجي.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (410/2)، ((تفسير القنوجي)) (270/8).

(266) قال الواحدي: (قال ابنُ عباسٍ وجميعُ المفسِّرين: يريدُ أثَرَ فَرَسِ جبريلَ).

((البسيط)) (507/14).

وقال الرازي: (عامَّةُ المفَسِّرين قالوا: المرادُ بالرَّسولِ: جِبريلُ عليه السَّلامُ، وأراد بأثَرِه: التُّرابَ الذي أخذَه من مَوضِعِ حافِرِ دابَّتِه).

((تفسير الرازي)) (95/22).

وقال الألوسي عن هذا القول: (ما ذُكِرَ مِن تفسيرِ الآيةِ هو المأثورُ عن الصَّحابةِ والتَّابِعينَ رَضِيَ اللهُ تعالى عنهم، وتَبِعَهم جُلُّ أجِلَّةِ المفَسِّرينَ).

((تفسير الألوسي)) (563/8).

قال ابنُ كثير: (أخذ [أي: السَّامريُّ] ما كان استعاروه من الحُلِيِّ، فصاغ منه عِجلًا، وألقى فيه قَبضةً من الترابِ كان أخَذَها من أثرِ فَرَسِ جبريلَ حين رآه يومَ أغرَقَ اللهُ فِرعَونَ على يديه، فلمَّا ألقاها فيه خار كما يخورُ العِجلُ الحقيقيُّ، ويقال: إنَّه استحال عِجلًا جَسَدًا، أي: لحمًا ودمًا، حَيًّا يخورُ.

قاله قتادةُ وغيرُه.

وقيل: بل كانت الرِّيحُ إذا دخَلَت مِن دُبُرِه خرَجَت مِن فَمِه، فيخورُ كما تخورُ البَقَرةُ، فيرقُصونَ حَولَه ويفرَحونَ).

((البداية والنهاية)) (147/2).

والقولُ الثاني في الآيةِ: أنَّ المرادَ بالرَّسولِ: موسى، وأنَّ أثَرَه: شَريعتُه التي شرَعَها، وسُنَّتُه التي سَنَّها، وأنَّ المرادَ بقولِه: فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا، أي: طَرَحتُ شَريعةَ موسى، ونبَذْتُ سُنَّتَه، ثمَّ اتَّخذْتُ العِجلَ جَسَدًا له خُوارٌ.

يُنظر: ((تفسير الماوردي)) (423/3).

وهذا القولُ الثاني ذكَره أبو مسلم الأصبهاني، ورجَّحه الرازي، ومال إليه ابنُ عاشورٍ، واختاره المراغي.

يُنظر: ((تفسير الرازي)) (95/22، 96)، ((تفسير ابن عاشور)) (296/16)، ((تفسير المراغي)) (142/16).

ويُنظر أيضًا: ((تفسير القاسمي)) (144/7).

قال ابن عاشور: (قال جمهورُ المفسِّرينَ: المرادُ بالرَّسولِ جبريلُ، ورَوَوْا قِصَّةً قالوا: إنَّ السَّامِريَّ فَتَنَه اللَّهُ، فأراه اللَّهُ جبريلَ راكِبًا فَرَسًا فوَطِئَ حافِرُ الفرسِ مكانًا فإذا هو مُخضَرٌّ بالنَّباتِ.

فَنَبَذْتُهَا.

فعلِم السَّامِرِيُّ أنَّ أثرَ جبريلَ إذا أُلقي في جمادٍ صارَ حيًّا، فأخذَ قبضةً من ذلك التُّرابِ وصَنَع عجلًا وألقى القبضة عليه فصارَ جسدًا، أي حيًّا، له خوارٌ كخوارِ العجلِ، فعَبَّر عن ذلك الإلقاءِ بالنَّبْذ.

وهذا الَّذي ذكروه لا يوجدُ في كُتُبِ الإسرائيليّين، ولا ورَدَ به أثرٌ مِن السُّنةِ، وإنَّما هي أقوالٌ لبعضِ السَّلَفِ، ولَعَلَّها تَسَرَّبَتْ لِلنَّاسِ مِنْ رواياتِ الْقَصَّاصينَ).

((تفسير ابن عاشور)) (296/16).

وقال الماتريدي: (عامَّةُ أهلِ التأويلِ...

يقولون: إنَّه قَبَض قَبضةً مِن ترابٍ مِن أثرِ فَرسِ جبريلَ فنبذَها، وليس في الآيةِ ذِكرُ التُّرابِ ولا ذِكرُ الفَرسِ، ولا أنَّ ذلك الرَّسولَ جبريلُ أو غيرُه، ويُشبِهُ أن يكونَ الذي قبَضَه هو ترابٌ مِن أثرِ الفَرَسِ، على ما قاله أهلُ التأويلِ، وقد ذُكِرَ في حرفِ أُبَيّ: (فقبضتُ قَبضةً مِنْ أثَرِ فَرَسِ الرَّسولِ)، فإنْ ثبت ما قالوا وإلَّا لم نَزِدْ على ما ذُكِرَ في الكتابِ مِن هذه الأنباءِ والقِصَصِ التي كانت في كتُبِهم، فذُكِرَت في القرآنِ؛ لِيَحتجَّ بها رسولُ الله على أولئك؛ لِيَعرِفوا أنَّه إنما عَرَفَ بالله تعالى، فلو زِيدَ أو نُقِصَ عمَّا في كُتُبِهم لذهب موضِعُ الاحتجاجِ عليهم، بل يُوجِبُ ذلك شِبْهَ الكَذِبِ عليهم؛ لذلك وجَبَ حِفظُ ما حُكي في الكتابِ مِن الأنباءِ والأخبارِ مِن غيرِ زيادةٍ ولا نُقصانٍ؛ مخافةَ الكَذِبِ، إلَّا إن ثبت شيءٌ يُذكَرُ عن رَسولِ الله أنَّه كان؛ فعند ذلك يُقالُ، وإلَّا فالكَفُّ أَولى؛ لِما ذكَرْناه).

((تفسير الماتريدي)) (7/303-304).

أي: فألقيتُ قَبضةَ التُّرابِ،[267] فكان منها ما تَراه.[268]

وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي.

أي: وكذلك[269] زيَّنتْ وحسَّنَت لي نفسي.

---

(267) والمعنى: فنبذتُها على العِجلِ.

وممن قال بذلك: ابن أبي زمنين، والقرطبي، والعُليمي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن أبي زمنين)) (3/125)، ((تفسير القرطبي)) (11/240)، ((تفسير العُليمي)) (4/321)، ((تفسير السعدي)) (ص: 512)، ((العذب النمير)) للشنقيطي (4/164).

قال الشنقيطي: (فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ يعني: من أثَرِ حافرِ فَرَسِ الرَّسولِ، يعني: جبريلَ.

فَنَبَذْتُهَا أي: على العِجْلِ، فجعله اللهُ جَسَدًا له خُوارٌ، فلما ألقى السَّامريُّ ذلك الترابَ على العِجلِ صار ذلك العِجلُ المصوغُ مِن الحُليِّ جَسدًا له خُوارٌ).

((العذب النمير)) (4/164).

وقال ابن جزي: (فَنَبَذْتُهَا أي: ألقيتُها على الحُليِّ فصار عِجلًا، أو على العِجلِ فصار له خُوارٌ).

((تفسير ابن جزي)) (2/13).

(268) قال الشنقيطي: (وأظهَرُ الأقوالِ عندي في ذلك: هو أنَّهم جعلوا جميعَ الحُليِّ في النارِ ليذوبَ فيصيرَ قطعةً واحدة؛ لأنَّ ذلك أسهَلُ لحِفظِه حتى يرى نبيُّ الله موسى فيه رأيَه، والسَّامريُّ يريدُ تدبيرَ خطَّةٍ لم يطَّلِعوا عليها، وذلك أنَّه لَمَّا جاء جبريلُ ليذهَبَ بموسى إلى الميقاتِ وكان على فرَسٍ، أخذَ السَّامريُّ ترابًا مَسَّه حافِرُ تلك الفرَس، ويزعمون في القِصَّةِ أنَّه عاين موضِعَ أثَرِها يَنبُتُ فيه النباتُ، فتفرَّسَ أنَّ الله جعل فيها خاصيَّةَ الحياة، فأخَذ تلك القبضةَ مِن الترابِ واحتفَظ بها، فلمَّا أرادوا أن يَطرَحوا الحُليَّ في النَّارِ لِيَجعَلوه قِطعةً واحدةً، أو لغيرِ ذلك مِن الأسبابِ، وجَعَلوه فيها؛ ألقى السامريُّ عليه تلك القَبضةَ مِن الترابِ المذكورةَ، وقال له: كنْ عِجْلًا جسدًا له خوارٌ، فجعَلَه اللهُ عِجلًا جسدًا له خوارٌ، فقال لهم: هذا العِجلُ هو إلهُكم وإلهُ موسى، كما يشيرُ إلى ذلك قولُه تعالى عن موسى: قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ * قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي).

((أضواء البيان)) (4/83).

(269) قال ابن جرير: (وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي [طه: 96] يقولُ: وكما فعلتُ مِن إلقائي القبضةَ التي قبضتُ مِن أثرِ الفرسِ على الحليةِ التي أُوقِد عليها حتى انسَبَكت فصارتْ عجلًا جسدًا له خوارٌ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي يقولُ: زيَّنت لي نفسي أنَّه يكونُ ذلك كذلك).

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (97).

قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ.

أي: قال موسى للسَّامريّ: فلأنَّك أخذْتَ ومَسِستَ ما لم ينبغِ لك أخْذُه ومَسُّه مِن أثرِ الرَّسولِ، فاخرجْ مِن بَينِنا وتباعَدْ منَّا؛ فإنَّ لك مدَّةَ حياتِك الدُّنيا أن تقولَ: لا أَمَسُّ ولا أُمَسُّ، فلا يمسُّك ولا يخالِطُك ولا يقربُك أحدٌ من النَّاسِ، ولا تمسُّ ولا تخالطُ ولا تقربُ أحدًا منهم؛ عقوبةً لك على إضلالِك بني إسرائيلَ.[270]

((تفسير ابن جرير)) (152/16).

وقال البقاعي: (وَكَذَلِكَ أي وكما سوَّلت لي نفسي أخذَ أثرِه سَوَّلَتْ أي: حسَّنت وزيَّنت لِي نَفْسِي نبذَها في الحلي فنبذْتُها، فكان منها ما كان، ولم يدْعُني إلى ذلك داعٍ، ولا حملني عليه حاملٌ غير التسويلِ).

((نظم الدرر)) (335/12).

(270) قال الواحدي: (الصَّحيحُ ما ذُكِرَ في التفسيرِ مِن وجهٍ آخَرَ: أنَّه جعَل يهيمُ في البريَّة مع الوحوشِ والسِّباعِ لا يَمَسُّ أحدًا ولا يَمَسُّه أحدٌ، عاقبَه الله بذلك، وكان إذا لقي أحدًا يقول: لا مِساسَ، أي: لا تقرَبْني ولا تَمَسَّني، وصار ذلك عقوبةً له).

((البسيط)) (511/14).

وقال البقاعي: (مُنِع من مخالطةِ الناسِ منعًا كليًّا؛ فلا يتَّصِلُ بأحدٍ، ولا يتَّصِلُ به أحدٌ، بل يكونُ وحيدًا طريدًا ما دام حيًّا).

((نظم الدرر)) (336/12).

وقال ابنُ عاشور: (لم يزِدْ موسَى في عقابِ السامريِّ على أن خلعَه مِن الأمَّة، إمَّا لأنَّه لم يكُنْ مِن أنفُسِهم، فلم يكُنْ بالذي تجري عليه أحكامُ الشَّريعةِ، وإمَّا لأنَّ موسى أُعلِمَ بأنَّ السَّامريَّ لا يُرجَى صلاحُه، فيكونُ ممَّن حقَّت عليه كَلِمةُ العذابِ...

فجعل حَظَّه في حياتِه أن يقولَ: لا مِساسَ، أي: سلَبَه الله الأُنسَ الذي في طبعِ الإنسانِ، فعَوَّضه به هَوَسًا ووسواسًا وتوحُّشًا، فأصبحَ متباعِدًا عن مخالطةِ النَّاسِ، عائشًا وحدَه، لا يترُكُ أحدًا يقترِبُ منه، فإذا لَقِيه إنسانٌ قال له: لا مِساسَ، يخشَى أن

وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ.

أي: وإنَّ لك -يا سامريُّ- وعدًا لِعَذابِك لن يُخلِفَكه اللهُ.

وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ.

أي: وانظُرْ -يا سامِريُّ- إلى مَعبودِك العِجلِ الذي بَقِيتَ مُلازِمًا لعبادتِه، واللهِ لَنُحرِّقَنَّه في النَّارِ.(271)

يمَسَّه، أي: لا تمسُّني ولا أمَسُّك، أو أراد: لا اقتراب مني؛ فإن المسَّ يُطلَقُ على الاقترابِ، كَقولِه: وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ [هود: 64] ، وهذا أنسَبُ بصيغةِ المفاعَلةِ، أي: لا مُقاربةَ بيننا، فكان يقولُ ذلك، وهذه حالةٌ فظيعةٌ أصبح بها سُخريةً!).

((تفسير ابن عاشور)) (16/297-298).

(271) قال الشنقيطي: (على أنَّ التحريقَ معناه التحريقُ بالنارِ -كما قاله جماعةٌ مِن العلماءِ- فيظهرُ أنَّ العجلَ صار جسدًا لحمًا ودمًا؛ لأنَّ اللحمَ والدمَ إذا أُحرِق بالنارِ ييبس، وأمكن دقُّه ونسفُه في البحرِ؛ لأنَّ الذهبَ والفضةَ لا يمكنُ دقُّهما ونسفُهما في البحرِ، وأمَّا على أنَّ المعنى لَنُحَرِّقَنَّهُ: نبردنَّه بالمباردِ كما تشهدُ له القراءةُ الأُخرى: لَنَحْرُقَنَّهُ فعلى هذا المعنى فالأليقُ أن يكون بقِي ذهبًا وفضةً إلا أنَّه يصوِّت صَوْتَ البَقَر إذا دخلتِ الريحُ في داخلِه).

((العذب النمير)) (4/166).

ويُنظر: ((الدر المصون)) للسمين الحلبي (8/99).

قال أبو حيان: (وذكر أبو عليٍّ أنَّ التَّشديدَ قد يكونُ مُبالغةً في «حَرَقَ»: إذا بُرِدَ بالمِبْرَد.

وفي مُصحَفِ أُبَيٍّ وعبدِ اللهِ: «لَنَذْبَحَنَّهُ ثُمَّ لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ» وتوافِقُ هذه القراءةُ مَن روى أنَّه صار لحمًا ودمًا ذا رُوحٍ، ويترتَّبُ الإحراقُ بالنَّارِ على هذا، وأمَّا إذا كان جمادًا مَصوغًا مِن الحُليِّ فيترتَّبُ بَرْدُه لا إحراقُه، إلَّا إن عُنِيَ به إذابتُه).

((تفسير أبي حيان)) (7/380).

قال ابنُ جُزي: (والصَّحيحُ أنَّ المقصودُ بإحراقِه بالنَّارِ: إذابتُه وإفسادُ صُورتِه، فيَصِحُّ حَملُ قراءةِ الجماعةِ على ذلك).

((تفسير ابن جزي)) (2/14).

وقال الزجاج: (قوله: لَنُحَرِّقَنَّهُ...

إذا شَدَّدَ [أي: الراء] فالمعنى: نُحرقُه مرةً بعدَ مرةٍ).

((معاني القرآن)) (3/375).

ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا.

أي: ثم لَنُفرِّقَنَّ أجزاءَه في البَحرِ تفريقًا لا يبقَى معه شَيءٌ منه.

إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (98).

إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ.

أي: إنَّما معبودُكم اللهُ المُستَحِقُّ للعبادةِ وَحدَه، الذي لا معبودَ بحَقٍّ إلَّا هو.

كما قال تعالى: إِنَّمَا اللَّهُ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ [النساء: 171].

وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا.

أي: أحاط اللهُ بكُلِّ شَيءٍ عِلمًا، فلا يخفَى عليه شَيءٌ، ولا يَضيقُ عليه عِلمُ جَميعِ ذلك.

وقال السعدي: (كان قد أُشرِبَ العِجلُ في قلوبِ بني إسرائيلَ، فأراد موسى عليه السَّلامُ إتلافَه وهم ينظُرونَ، على وَجهٍ لا تُمكِنُ إعادتُه بالإحراقِ والسَّحقِ وذَرْيِه في اليَمِّ ونَسفِه؛ ليزولَ ما في قلوبِهم من حُبِّه، كما زال شَخصُه، ولأنَّ في إبقائِه مِحنةً؛ لأنَّ في النُّفوسِ أقوى داعٍ إلى الباطِلِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 512).

سورةُ طه

الآيات (99–104)

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ
فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101) يَوْمَ
يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102) يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا
(103) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104)

غريب الكلمات:

زُرْقًا: قيل: أي: زُرقَ العُيونِ، وقيل: بِيضَ العيونِ مِن العمَى، قد ذهَب السَّوادُ والنَّاظِرُ، وأصلُ الزُّرقةِ: يدُلُّ على لَونٍ.

يَتَخَافَتُونَ: أي: يتَسارُّونَ، ويتهامَسونَ بينَهم، وأصلُ (خفت): يدلُّ على إسرارٍ وكِتمانٍ.

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً: أي: أعدَلُهم رَأيًا، أو عَمَلًا وقَولًا، يُقالُ: فلانٌ أمثَلُ بني فلانٍ: أي: أدناهم للخَيرِ، أي: إنَّه مُماثِلٌ لأهلِ الصَّلاحِ والخَيرِ، وهؤلاءِ أماثِلُ القَومِ، أي: خيارُهم. وأصلُ (مثل): يدُلُّ على نظيرِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (99).

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ.

أي: كما قَصَصْنا عليك -يا مُحَمَّدُ- قصَّةَ موسى وفِرعَونَ وقَومِه، وأخبارَ بني إسرائيلَ مع موسى؛ كذلك[272] نقصُّ عليك مِن[273] الأخبارِ الماضيةِ التي سَبَقَت مِن قَبلِك، فلم تُشاهِدْها.

كما قال تعالى: تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ [هود: 49].

وقال سُبحانَه: وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ [هود: 120].

---

(272) قال ابن كثير: (يقولُ تعالى لنبيه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم: كما قصصنا عليك خبرَ موسَى، وما جرَى له مع فرعونَ وجنودِه على الجليةِ والأمرِ الواقعِ، كذلك نقصُّ عليك الأخبارَ الماضيةَ، كما وقعتْ مِن غيرِ زيادةٍ ولا نقصٍ).
((تفسير ابن كثير)) (315/5).
وقال البقاعي: (كأنَّه قيل: هل يعادُ شيءٌ مِن القصصِ على هذا الأسلوبِ البديعِ والمثالِ الرفيعِ؟ فقيل: نَعم كَذَلِكَ أي: مثل هذا القصِّ العالي، في هذا النظمِ العزيزِ الغالي، لقصةِ موسى ومَن ذُكر معه).
((نظم الدرر)) (339/12).
(273) قال الشنقيطي: (الظاهِرُ أنَّ «مِن» في قولِه مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ للتبعيض، ويُفهَمُ مِن ذلك أنَّ بعضَهم لم يُقصَصْ عليه خَبَرُه).
((أضواء البيان)) (93/4).

وقال عزَّ وجلَّ: نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ [يوسف: 3].

وقال تبارك وتعالى: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ [غافر: 78].

وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا.

أي: وقد أعْطَيْناك -يا محمَّدُ- مِن عِندِنا عطيَّةً نفيسةً، وهي القرآنُ الكريمُ.

كما قال تعالى: ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ [آل عمران: 58].

وقال سُبحانَه: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ [الحجر: 9].

وقال عزَّ وجلَّ: وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ [الأنبياء: 50].

وقال تبارك وتعالى: كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ [ص: 29].

مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (100).

أي: مَن أعرَضَ عن القُرآنِ، فلم يؤمِنْ به، ولم يَعمَلْ بما فيه؛ فإنَّه يأتي يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ إثمًا عظيمًا.[274]

كما قال تعالى: وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ [هود: 17].

خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (101).

خَالِدِينَ فِيهِ.

أي: ماكِثينَ في جزاءِ هذا الوزرِ؛ في النَّارِ، لا يَخرُجونَ منها.[275]

---

(274) قال الشِّنقيطي: (قد دلَّت آياتٌ كثيرةٌ مِن كتابِ الله على أنَّ المجرمينَ يأتونَ يوم القيامة يحمِلونَ أوزارَهم، أي: أثقالَ ذنوبِهم على ظهورِهم...

المرادُ بذلك الوزرِ المحمولِ: أثقالُ ذُنوبِهم وكُفرِهم، يأتونَ يومَ القيامة يحملونَها، سواءٌ أقُلْنا: إنَّ أعمالَهم السيئةَ تتجَسَّمُ في أقبحِ صورةٍ وأنتَنِها، أو غيرَ ذلك).

((أضواء البيان)) (4/95، 96).

(275) قال بعضُ المفسرين: المعنى: خالدين في جزاءِ الوزرِ.

وقال آخرون: في عذابِ الوزرِ.

وقال آخرون: عقوبةِ الوزرِ.

والمعاني المذكورةُ متقاربةٌ.

يُنظر: ((تفسير السمرقندي)) (2/411)، ((تفسير البغوي)) (3/274)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/175)، ((تفسير الرسعني)) (4/562)، ((تفسير القرطبي)) (11/244)، ((تفسير الشوكاني)) (3/454).

وقال ابنُ جرير: (خالِدونَ في أوزارِهم، والمعنى: أنهم خالدونَ في النَّارِ بأوزارِهم، ولكِنْ لما كان معلومًا المرادُ مِن الكلامِ، اكتفى بما ذُكِرَ عمَّا لم يُذكَرْ).

وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا.

أي: وبِئسَ للمُعرِضينَ عن القُرآنِ حِملُهم الثَّقيلُ مِن الآثامِ يومَ القيامةِ.(276)

كما قال تعالى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ [الأنعام: 31].

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (102).

يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ.

أي: وذلك يومَ يُنفَخُ في القَرْنِ بأمرِ الله، فيُحيي سبحانَه الموتَى بتلك النَّفخةِ.

كما قال تعالى: وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ [الزمر: 68].

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/159).

وقال السعدي: (خَالِدِينَ فِيهِ أي: في وزرِهم؛ لأنَّ العذابَ هو نفسُ الأعمالِ، تنقَلِبُ عذابًا على أصحابِها، بحَسَبِ صِغرِها وكِبَرِها).

((تفسير السعدي)) (ص: 512-513).

(276) وقال ابن جرير: (يقول تعالى ذكره: وساءَ ذلك الحملُ والثقلُ من الإثمِ يومَ القيامةِ حملًا، وحقَّ لهم أن يسوءَهم ذلك، وقد أوردهم مهلكةً لا منجَى منها).

((تفسير ابن جرير)) (16/159).

وعن أبي سَعيدٍ الخُدْريِّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((كيف أنعَمُ وقد الْتقمَ صاحبُ القَرنِ القَرنَ، وحنَى جبهَتَه، وأصْغَى سَمعَه، ينتَظِرُ أن يُؤمَرَ أن يَنفُخَ فينفُخ، قال المُسلِمونَ: فكيف نقولُ يا رَسولَ اللهِ؟ قال: قولوا: حَسبُنا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ، توكَّلْنا على اللهِ ربِّنا)) وربَّما قال سُفيانُ: على اللهِ توكَّلْنا.[277]

وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا.

---

(277) أخرجه الترمذي (3243) واللفظ له، وأحمد (11039) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

حسَّنه الترمذي، وصحَّحه الألباني في ((صحيح سنن الترمذي)) (3243).

ويشهدُ له ما أخرجه أحمد (3008)، والطبراني (12/128) (12671)، والحاكم (8677) من حديثِ ابنِ عبَّاس رضي الله عنهما.

جوَّده ابنُ كثير في ((التفسير)) (2/148)، والشوكاني في ((تفسيره)) (1/598)، وصحَّحه الألباني في ((صحيح الجامع)) (4592)، ويُنظر شواهد الحديث الأخرى في ((السلسلة الصحيحة)) للألباني (1079).

تنبيهٌ: قال ابنُ حَجَر: (اشتَهَر أنَّ صاحِبَ الصورِ إسرافيلُ عليه السَّلامُ، ونقل فيه الحليمي الإجماعَ...

وجاء أنَّ الذي ينفُخُ في الصورِ غيرُه...

فإن ثبت حُمِلَ على أنَّهما جميعًا يَنفُخانِ، ويؤيِّدُه ما أخرجَه هنَّاد بن السري في كتابِ الزهدِ بسَنَدٍ صَحيحٍ لكِنَّه موقوفٌ على عبد الرَّحمنِ ابن أبي عَمرةَ قال: «ما مِن صَباحٍ إلَّا ومَلَكانِ مُوَكَّلانِ بالصُّورِ»، ومن طريقِ عبدِ اللهِ بنِ ضَمرةَ مِثلُه، وزاد: «ينتظرانِ متى يَنفُخانِ»، ونحوُه عند أحمدَ مِن طريق سُليمانَ التيمي عن أبي هريرةَ عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أو عن عبدِ اللهِ بنِ عَمرٍو عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: «النَّافِخانِ في السَّماءِ الثانيةِ رأسُ أحَدِهما بالمَشرِقِ ورِجلاه بالمَغرِب –أو قال بالعكس– ينتَظِرانِ متى يُؤمَرانِ أن يَنفُخَا في الصُّورِ فيَنفُخا»، ورجالُه ثِقاتٌ، وأخرجه الحاكمُ من حديث عبدِ الله بن عمرٍو بغيرِ شَكٍّ، ولابن ماجه والبزَّار من حديثِ أبي سعيدٍ رَفَعَه: «إنَّ صاحِبَي الصورِ بأيديهما قَرنانِ يُلاحِظانِ النَّظَرَ متى يؤمَرانِ»). ((فتح الباري)) (11/368، 369).

أي: ونحشُرُ الكافِرينَ والمُشرِكينَ[278] يومَ القيامةِ زُرقًا.[279]

يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (103).

أي: يتهامَسُ المُجرِمونَ بينهم، يقولُ بَعضُهم لبعضٍ سِرًّا: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا عَشَرةَ أيَّامٍ فحَسْبُ![280]

---

(278) قيل: يُحشرونَ لموقفِ القيامةِ، وممن قال بذلك: ابنُ جريرٍ، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/161)، ((تفسير القرطبي)) (11/245).

ويُنظر أيضًا: ((أضواء البيان)) للشنقيطي (8/16).

وقيل: يُحشرونَ إلى النَّارِ، وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمانَ، ويحيى بنُ سلَّام.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/41)، ((تفسير يحيى بن سلام)) (1/278).

(279) قيل في معنى زُرْقًا: أي زُرقَ العُيونِ، وممن قال بذلك: مقاتلُ بنُ سليمان، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/41)، ((تفسير الشوكاني)) (3/455).

وقيل: المراد: زُرقةُ ألوانِهم، وممن قال بذلك: السعدي، وابن عاشور.

يُنظر: ((تفسير السعدي)) (ص: 513)، ((تفسير ابن عاشور)) (16/304).

قال السعدي: (المجرمون يحشرون زرقًا ألوانُهم مِن الخوف والقلقِ والعطشِ).

((تفسير السعدي)) (ص: 513).

وقال ابن عاشور: (والزرقُ: جمع أزرقَ، وهو الذي لونُه الزرقةُ...

وهو في جلدِ الإنسانِ قبيحُ المنظرِ؛ لأنَّه يشبهُ لونَ ما أصابَه حرقُ نارٍ.

وظاهرُ الكلام أنَّ الزرقةَ لونُ أجسادِهم، فيكونُ بمنزلةِ قولِه: يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ [آل عمران: 106]).

((تفسير ابن عاشور)) (16/304).

وقال ابنُ جرير: (فقيل: عنى بالزُّرقِ في هذا الموضعِ: ما يظهَرُ في أعيُنِهم مِن شِدَّةِ العَطَشِ الذي يكونُ بهم عند الحَشرِ، لرأيِ العَينِ، مِن الزُّرقِ.

وقيل: أُريدَ بذلك أنهم يُحشَرونَ عُميًا، كالذي قال الله تعالى: وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا [الإسراء: 97]).

((تفسير ابن جرير)) (16/161).

ويُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (3/376).

(280) ممن اختار أنَّ المرادَ بقولِه تعالى: إِنْ لَبِثْتُمْ أي: في الدنيا: ابنُ جريرٍ، والقرطبي، وابنُ كثيرٍ، والسعدي.

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (104).

نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ.

أي: نحنُ أعلَمُ منهم بما يقولُ بَعضُهم لبعضٍ، ونَسمَعُ تناجيَهم، لا يخفَى علينا منه شيءٌ.

إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا.

ومِمن اختاره أيضًا: البغوي، والزمخشري، وابنُ جزي، وابنُ القيِّم، والبقاعي، والعليمي، والشوكاني، والقاسمي، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (274/3)، ((تفسير الزمخشري)) (87/3)، ((تفسير ابن جزي)) (14/2)، ((الجواب الكافي)) لابن القيم (ص: 105)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (343/12)، ((تفسير العليمي)) (325/4)، ((تفسير الشوكاني)) (455/3)، ((تفسير القاسمي)) (147/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 513)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (157/2).

قال البيضاوي: (يَستقصِرونَ مُدَّةَ لُبثِهم فيها؛ لزوالِها، أو لاستِطالتِهم مُدَّةَ الآخرة، أو لتأسُّفِهم عليها لَمَّا عاينوا الشَّدائدَ، وعَلِموا أنَّهم استحَقُّوها على إضاعتِها في قضاءِ الأوطارِ، واتِّباعِ الشَّهَواتِ).

((تفسير البيضاوي)) (38/4).

ويُنظر: ((تفسير الألوسي)) (570/8).

وقيل: المرادُ بقولِه تعالى: إِنْ لَبِثْتُمْ أي: في القبورِ.

ومِمن اختاره: مقاتلُ بنُ سليمانَ، والسمرقندي، وأبو السعودِ، والألوسي، وابنُ عاشور.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (41/3)، ((تفسير السمرقندي)) (412/2)، ((تفسير أبي السعود)) (41/6)، ((تفسير الألوسي)) (570/8)، ((تفسير ابن عاشور)) (305/16).

قال الألوسي: (ومرادُهم مِن هذا القَولِ استِقصارُ المدَّةِ، وسُرعةُ انقِضائِها، والتَّنديمُ على ما كانوا يزعُمونَ؛ حيث تبيَّن الأمرُ على خلافِ ما كانوا عليه مِن إنكارِ البَعثِ وعَدِّه من قبيلِ المُحالاتِ، كأنَّهم قالوا: قد بُعِثتُم وما لَبِثتُم في القبرِ إلَّا مُدَّةً يسيرةً، وقد كنتُم تزعُمونَ أنَّكم لن تقوموا منه أبدًا).

((تفسير الألوسي)) (570/8).

ويُنظر: ((تفسير أبي السعود)) (41/6).

أي: حينَ يَقولُ أعقَلُهم، وأعلَمُهم، وأعدَلُهم قَولًا، وأقرَبُهم إلى التَّقديرِ: ما لَبِثتُم في الدُّنيا إلَّا يومًا واحِدًا![281]

كما قال تعالى: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ * قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِّينَ * قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ [المؤمنون: 112 – 114].

---

(281) وقال الشوكاني: (نسبةُ هذا القَولِ إلى أمثَلِهم؛ لِكَونِه أدَلَّ على شِدَّةِ الهَولِ، لا لِكَونِه أقرَبَ إلى الصِّدقِ).
((تفسير الشوكاني)) (3/456).
وقال السعدي: (والمقصودُ مِن هذا الندمُ العظيمُ، كيف ضيَّعوا الأوقاتَ القصيرةَ، وقطعوها ساهينَ لاهينَ، معرضينَ عما ينفعُهم، مقبلين على ما يضرُّهم، فها قد حضر الجزاءُ، وحقَّ الوعيدُ، فلم يبقَ إلا الندمُ، والدعاءُ بالويلِ والثبورِ).
((تفسير السعدي)) (ص: 513).

سورةُ طه

الآيات (105–110)

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110)

غريب الكلمات:

يَنْسِفُهَا: أي: يَقلَعُها مِن أُصولِها، ويُقالُ: يُذريها ويُطَيِّرُها، يُقالُ: نَسَفَت الريحُ الشَّيءَ: أي: اقتلَعَتْه وأزالَتْه.

قَاعًا: أي: سهلةً مُستويةً، والقاعُ والقِيعُ: المستوي مِن الأرضِ، والموضعُ المنكشفُ، وأصلُ (قوع): يدلُّ على تبسُّطٍ في مكانٍ.

صَفْصَفًا: أي: خاليةً، مَلساءَ، لا نباتَ فيها، ولا بِناءَ ولا ارتفاعَ ولا انْحِدارَ، والصَّفْصَفُ: المستوي مِن الأرضِ، كأنَّه على صفٍّ واحدٍ، وأصلُ (صفف): يدلُّ على استواءٍ.

عِوَجًا: أي: هبوطًا أو مَيلًا، وأصل (عوج): يدلُّ على مَيلٍ في الشَّيءِ.

أَمْتًا: أي: ارتفاعًا، والأمتُ: المكانُ المُرتَفِعُ، وأصلُ الأمتِ: أن يَغلُظَ مكانٌ، ويَرِقَّ مكانٌ.

هَمْسًا: أي: صَوتًا خَفيفًا، وقيل: هو الوَطءُ الخَفيُّ؛ وطءُ الأقدامِ، وأصلُ (همس): يدُلُّ على خَفاءِ صَوتٍ وحِسٍّ.

تفسير الآيات:

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (105).

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ.

أي: ويسألُك قَومُك عن الجِبالِ -يا محمَّدُ- ما حالُها يومَ القيامةِ؟!

فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا.

أي: فقُلْ لهم: يُزيلُ اللهُ الجبالَ يومَ القيامةِ مِن أماكِنِها، ويَدُكُّها دكًّا، ويُفَتِّتُها ثمَّ يُطَيِّرُها في الهواءِ.

كما قال تعالى: وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ [المرسلات: 10].

فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (106).

أي: فيَترُكُ اللهُ مواضِعَ الجبالِ أرضًا سهلةً مُستويةً، لا نباتَ فيها ولا بناءَ ولا ارتفاعَ.(282)

---

(282) وذهَب القرطبي وابنُ كثيرٍ إلى أنَّ المعنى واحدٌ في القاعِ والصفصفِ.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (11/246)، ((تفسير ابن كثير)) (5/316).

لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (107).

أي: لا ترى -أيُّها النَّاظِرُ- في الأرضِ يوم القيامةِ مَيلًا عن الاستواءِ؛ لا ارتفاعًا ولا انخفاضًا، ولو كان ذلك يسيرًا.[283]

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (108).

يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ.

---

(283) أفادت الآثارُ اختلاف المفسرين في معنى: «العِوَجِ» و«الأمْتِ» على أقوال: الأول: عوجًا: واديًا.
ولا أمتًا: رابية.
الثاني: عوجًا: صدعًا.
ولا أمتا: أكَمة.
الثالث: عوجًا: ميلًا.
ولا أمتًا: أثرًا.
الرابع: الأمت: المَحاني والحِداب.
ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ١٦٦) مستندًا إلى لغة العرب، ودلالة العقل أنّ معنى ﴿عوجًا﴾: ميلًا، وأن معنى ﴿ولا أمتا﴾: ولا ارتفاع ولا انخفاض؛ لأن الانخفاض لم يكن إلا عن ارتفاع.
وأن تأويل الكلام: لا ترى فيها ميلًا عن الاستواء، ولا ارتفاعًا، ولا انخفاضًا، ولكنها مستوية ملساء.
ووافقه ابنُ عطية (٦/ ١٣٣)، ولم يذكر مستندًا.

أي: في ذلك اليومِ الذي تقعُ فيه تلك الأحوالُ والأهوالُ يتّبعُ النَّاسُ –حين يَخرُجونَ مِن قُبورِهم– صوتَ المَلَكِ الذي يدعوهم جميعًا بلا استثناءٍ إلى مَوقِفِ القيامةِ، فيَقصِدونَه مِن كُلِّ ناحيةٍ، لا يَنحَرِفونَ ولا يَزيغونَ عنه، بل يتوجَّهونَ صَوبَ ناحيتِه وصَوتِه.

كما قال تعالى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ * خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ * مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ [القمر: 6 – 8].

وقال سُبحانَه: وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ * يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ * إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ * يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ [ق: 41 – 44].

وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا.

أي: وسكَنَت أصواتُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للرَّحمنِ خُضوعًا له وخوفًا وهَيبةً منه، مُنتظِرينَ لحُكمِه، فلا تَسمَعُ لهم –أيُّها السَّامِعُ– إلَّا صَوتًا خَفيضًا لوطءِ أقدامِهم، أو لحديثِهم الخافِتِ.(284)

---

(284) ذكر ابنُ كثير (٩/ ٣٦٨) قولين في معنى: ﴿فَلا تَسْمَعُ إلا هَمْسًا﴾: الأول: وطء الأقدام.

والثاني: الصوت الخفي.

ثم علَّق على قول سعيد بن جبير بقوله: «فقد جمع سعيد كلا القولين، وهو محتَمَل؛ أمّا وطء الأقدام فالمراد: سعي الناس إلى المحشر، وهو مَشْيُهم في سكون وخضوع.

وأما الكلام الخفي فقد يكون في حال دون حال، فقد قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إلا بِإِذْنِهِ فَمِنهُمْ شَقِيٌّ وسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]».

يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (109).

أي: في يومِ القيامةِ لا تَنفعُ الشَّفاعةُ أحدًا مِن الناسِ لا الشَّافِعَ ولا المشفوعَ له، إلَّا شفاعةَ مَن أذِنَ له الرَّحمنُ أن يَشفعَ أو يُشفعَ له، ورَضِيَ اللهُ قَولَ الشَّافِعِ والمشفوعِ له.(285)

---

(285) ممن اختار أنَّ الإذنَ والرضا للشافعِ: ابن جرير، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن عاشور.
يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (170/16)، ((تفسير البغوي)) (275/3)، ((تفسير القرطبي)) (247/11)، ((تفسير الخازن)) (213/3)، ((تفسير ابن عاشور)) (310/16).
قال ابنُ عاشور: (واستثناءُ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ مِن عمومِ الشَّفاعةِ باعتبارِ أنَّ الشَّفاعةَ تقْتَضي شافعًا؛ لأنَّ المصدرَ فيه معنَى الفعلِ، فيقْتَضي فاعلًا، أي: إلَّا أنْ يشفعَ مَن أذِن له الرحمنُ في أنْ يشفعَ...
وقولُه وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا عائدٌ إلى مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وهو الشَّافعُ).
((تفسير ابن عاشور (310/16).
وممن اختار أنَّ الإذنَ ورضا القول للمشفوعِ له: الواحدي، وابن الجوزي، والرازي.
يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 706)، ((تفسير ابن الجوزي)) (176/3)، ((تفسير الرازي)) (101/22).
وذكر الرازي ثلاثة أوجه في ترجيح هذا القولِ، ومنها: (أنَّ مِن المعلومِ بالضَّرورةِ أنَّ درجةَ الشَّافعِ درجةٌ عظيمةٌ؛ فهي لا تحصُلُ إلَّا لِمَنْ أذِنَ اللَّه له فيها وكان عندَ اللَّه مَرْضِيًّا، فلو حَمَلْنا الآيةَ على ذلك صارَتْ جاريةً مجرَى إيضاحِ الواضحاتِ، أمَّا لو حَمَلْنا الآيةَ على المشفوعِ له لم يَكُنْ ذلك إيضاحَ الواضحاتِ؛ فكان ذلك أولَى).
((تفسير الرازي)) (101/22).
وممن اختار أن الإذن للشافع، ورضا القول للمشفوع له: ابن الجوزي، وابن القيم، والعليمي.
يُنظر: ((تفسير ابن الجوزي)) (176/3)، ((إغاثة اللهفان)) لابن القيم (221/1)، ((تفسير العليمي)) (327/4).
قال ابن القيم: (وقال: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا فأخبر اللهُ تعالى أنه لا يحصُلُ يومئذٍ شفاعةٌ تَنفعُ إلَّا بعدَ أن يرضَى اللهُ سُبحانه قَولَ المَشفوعِ له، ويأذَنَ للشَّافِعِ فيه ...
فإنَّه سبحانه علَّقها بأمرين: رضاه عن المشفوعِ له، وإذنِه للشافعِ، فما لم يوجدْ مجموعُ الأمرينِ لم تُوجدِ الشفاعةُ).
((إغاثة اللهفان)) (220/1).
وممَّن جمَع بين المعاني السَّابقةِ: ابنُ تيميَّةَ، فقال: (الشَّفاعةُ مَصدرٌ لا بدَّ لها من شافعٍ ومَشفوعٍ له.
والشَّفاعةُ: تعُمُّ شَفاعةَ كُلِّ شافعٍ، وكُلَّ شفاعةٍ لِمَشفوعٍ له؛ فإذا قال: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ نفى النوعينِ: شفاعةَ الشُّفَعاءِ، والشَّفاعةَ للمُذنِبينَ؛ فقولُه: إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ يتناولُ النَّوعينِ: مَن أذِنَ له الرَّحمنُ ورضِيَ له قولًا مِن الشُّفعاءِ، ومَن أذِنَ

كما قال تعالى: وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ [سبأ: 23].

وقال عزَّ وجلَّ: وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى [النجم: 26].

وقال تعالى: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى [الأنبياء: 28].

وقال سُبحانه: يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا [النبأ: 38].

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (110).

له الرحمنُ ورَضِيَ له قولًا من المشفوعِ له، وهي تنفعُ المشفوعَ له فتُخَلِّصُه من العذابِ، وتنفعُ الشَّافِعَ فتُقبَلُ منه ويُكرَمُ بقَبولِها ويثابُ عليها، والشَّفاعةُ يومَئذٍ لا تنفعُ لا شافِعًا ولا مشفوعًا له إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا [النبأ: 38] ؛ فهذا الصِّنفُ المأذونُ لهم المرضِيُّ قولُهم: هم الذين يحصُلُ لهم نَفعُ الشَّفاعةِ، وهذا مُوافِقٌ لسائرِ الآياتِ).

((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (392/14).

يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.

أي: يعلَمُ الله ما يَستَقبِلُه الخلائِقُ[286] ممَّا يكونُ في الآخرةِ، ويعلَمُ ما مضَى وراءَهم مِن أمورِ الدُّنيا وأعمالِهم فيها.[287]

---

(286) ممن اختار أنَّ الضميرَ في قولِه: أَيْدِيهِمْ وخَلْفَهُمْ يعودُ إلى الخلائقِ: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والشربيني، والشوكاني.
يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/318)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/348)، ((تفسير الشربيني)) (2/381)، ((تفسير الشوكاني)) (3/457).
وقيل: الضميرُ يعودُ إلى الذين يتَّبعون الدَّاعي.
وممن اختاره: ابنُ جريرٍ، وابنُ الجوزي، والرازي.
يُنظر ((تفسير ابن جرير)) (16/170)، ((تفسير ابن الجوزي)) (3/176)، ((تفسير الرازي)) (22/102).
(287) يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/170)، ((معاني القرآن)) للزجاج (3/377)، ((تفسير السمرقندي)) (2/413)، ((تفسير السمعاني)) (3/356)، ((تفسير القرطبي)) (11/248)، ((تفسير الشوكاني)) (3/457).
قال الرازي: (ذكروا في قولِه تعالَى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وجوهًا: أحدُها: قال الكلبيُّ: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مِن أمرِ الآخرةِ وَمَا خَلْفَهُمْ مِن أمرِ الدُّنيا.
وثانيها: قال مجاهدٌ: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَن أمرِ الدُّنيا والأعمالِ، وَمَا خَلْفَهُمْ مِن أمرِ الآخرةِ والثَّوابِ والعقابِ.
وثالثُها: قال الضَّحَّاكُ: يعلمُ ما مضَى وما بَقِي، ومتى تكونُ القيامةُ).
((تفسير الرازي)) (22/102).
وقيل: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: هو كلُّ ما يعلمونَه وَمَا خَلْفَهُمْ: هو كلُّ ما غابَ عنهم علمُه.
وذهَب إليه البقاعي في ((نظم الدرر)) (12/348).
وقيل: المرادُ بقولِه: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ: الأعمالُ الظاهرةُ، وبقولِه: وَمَا خَلْفَهُمْ: السرائرُ.
وذهب إليه ابن عاشور في ((تفسيره)) (16/311).

وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا.

أي: وهم لا يحيطون[288] بما بينَ أيديهم، ولا بما خلفَهم علمًا.[289]

---

(288) قال السمعاني: (الإحاطةُ بالشَّيءِ: هي العلمُ بالشَّيءِ مِن كلِّ جهةٍ يجوزُ أن يُعلمَ).

((تفسير السمعاني)) (356/3).

(289) قال ابنُ القيِّم: (وقد اختُلِف في تفسيرِ الضَّميرِ في بِهِ فقيل: هو اللهُ سُبحانَه، أي: ولا يُحيطونَ باللهِ عِلمًا.

وقيل: هو مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ فعلى الأوَّلِ يَرجِعُ إلى العالِمِ، وعلى الثَّاني يرجِعُ إلى المعلومِ، وهذا القولُ يَستلزِمُ الأوَّلَ مِن غيرِ عَكسٍ؛ لأنَّهم إذا لم يُحيطوا ببَعضِ مَعلوماتِه المتعَلِّقةِ بهم فألَّا يُحيطوا عِلمًا به سُبحانه أَولى).

((الصواعق المرسلة)) (1372/4).

ومن اختار أنَّ الضمير يعودُ إلى (مَا) في قولِه: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ: الواحدي، والرازي، والرسعني، وابنُ تيمية.

يُنظر: ((البسيط)) للواحدي (532/14)، ((تفسير الرازي)) (102/22)، ((تفسير الرسعني)) (569/4)، ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (88/16).

وذكر الرازي أن هذا القول أولى (لوجهينِ: أحدُهما: أنَّ الضَّميرَ يجبُ عودُه إلى أقربِ المذكوراتِ، والأقربُ هاهنا قولُه: مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ.

وثانيهما: أنَّه تعالَى أوْرَد ذلك موردَ الزَّجرِ لِيُعْلَمَ أنَّ سائرَ ما يُقْدِمونَ عليه وما يستحِقُّونَ به المجازاة معلومٌ لله تعالَى).

((تفسير الرازي)) (102/22).

وقال ابن تيمة: (الراجحُ...

أن الضميرَ عائدٌ إلى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ، وإذا لم يحيطوا بهذا علمًا وهو بعض مخلوقاتِ الرَّبِّ فألَّا يحيطوا علمًا بالخالق أولى وأحرى! قال تعالى: وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ [المدثر: 31] ، وقال: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ [إبراهيم: 9]).

((مجموع الفتاوى)) (88/16).

ومن اختار أنَّ الضميرَ في بِهِ يرجعُ إلى اللهِ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والسمعاني، والقرطبيُّ، وابنُ جُزي، والشوكاني، والألوسي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (42/3)، ((تفسير ابن جرير)) (171/16)، ((تفسير السمعاني)) (356/3)، ((تفسير القرطبي)) (248/11)، ((تفسير ابن جزي)) (15/2)، ((تفسير الشوكاني)) (457/3)، ((تفسير الألوسي)) (573/8).

ذكر ابنُ القيم (٢/ ١٨٨) قولين لمرجع الضمير في ﴿به﴾: الأول: هو الله تعالى، أي: ولا يحيطون بالله علمًا.

والثاني: هو ما بين أيديهم وما خلفهم.

كما قال تعالى: وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ [البقرة: 255].

وقال سُبحانه: لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ [الأنعام: 103].

وقال عزَّ وجلَّ: قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا [الكهف: 109].

ووجَّه كلا القولين، فقال: «فعلى الأول: يرجع إلى العالم، وعلى الثاني: يرجع إلى المعلوم، وهذا القول يستلزم الأول مِن غير عكس؛ لأنهم إذا لم يحيطوا ببعض معلوماته المتعلقة بهم فأن لا يحيطوا علمًا به سبحانه أوْلى».

ورجَّح ابنُ تيمية (٤/ ٣٣٨) -ولم يذكر مستندًا- أن الضمير عائد إلى ﴿ما بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وما خَلْفَهُمْ﴾.

ثم بيَّن استلزامه للقول الأول بنحو ما ذكر ابنُ القيم.

سورةُ طه

الآيات (111–114)

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ
الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ
بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114)

غريب الكلمات:

وَعَنَتِ: أي: ذَلَّتْ واستَسلَمَت، وأصلُه: يدُلُّ على خُضوعٍ وذُلٍّ.

الْقَيُّوم: أي: القائمِ بنفسِه؛ فلا يحتاجُ إلى مَن يُقيمُه بوجهٍ مِن الوجوهِ، المقيمِ لِكُلِّ مَا سِوَاهُ؛ فلا قيامَ لغيرِه إلا بإقامتِه، وأصلُ (قوم): يدلُّ على انتِصابٍ وعَزمٍ.

خَابَ: أي: خَسِرَ وفَاتَه الظَّفَرُ، وأصلُ (خيب): يدُلُّ على عَدَمِ فائدةٍ، وحِرمانٍ.

هَضْمًا: أي: نَقصًا وظُلمًا، وأصْلُ (هضم): يدُلُّ على كَسرٍ وضَغْطٍ.

وَصَرَّفْنَا: أَيْ: نَوَّعْنا، وبَيَّنَّا، والصَّرفُ: ردُّ الشَّيءِ مِن حالةٍ إلى حالةٍ، وأصلُه: يدُلُّ على رَجعِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (111).

وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ.

أي: وخضَعت وذلَّت واستسلَمَت وجوهُ الخلائِقِ يومَ القيامةِ للهِ ذي الحياةِ الكامِلةِ -الذي لا يموتُ ولا ينامُ-، القائمِ بنفسِه، المقيمِ لغيرِه.

وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا.

أي: وقد خَسِر مَن أتَى يومَ القيامةِ وهو يحمِلُ شِركًا أو كُفرًا بالله، أو عمَلًا بمَعصيتِه.[290]

كما قال تعالى: وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ [البقرة: 254].

وقال سُبحانَه: إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ [المائدة: 72].

وقال عزَّ وجَلَّ: إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ [لقمان: 13].

---

(290) قال ابنُ عطية: (الظُّلمُ يعُمُّ الشِركَ والمعاصيَ، وخَيبةُ كلِّ حاملٍ بقَدرِ ما حَمَل من الظُّلم، فخيبةُ المُشرِك على الإطلاقِ، وخيبةُ العاصي مُقَيَّدةٌ بوقتٍ وحَدٍّ في العقوبةِ).

((تفسير ابن عطية)) (65/4).

ويُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (174/16)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (101/4).

وعن ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ الظُّلمَ ظُلُماتٌ يومَ القيامةِ)).

وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (112).

أي: ومَن يعمَلْ مِن صالحاتِ الأعمالِ وهو مُؤمِنٌ باللهِ وبوَعدِه ووَعيدِه، غيرُ مُشركٍ به؛ فلا يخافُ ظُلمًا بأن يُزادَ في سيئاتِه، ولا هَضمًا بأن يُنقَصَ من حَسَناتِه.

كما قال تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا [النساء: 40].

وقال سُبحانَه: فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا [الكهف: 110].

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (113).

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا.

أي: وكذلك أنزَلْنا القرآنَ بلُغةِ العَرَبِ واضِحًا؛ لتُفهَمَ معانيه.

وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ.

أي: وكرَّرنا في القُرآنِ آياتِ التَّخويفِ والتَّهديدِ بأساليبَ مُتنوِّعةٍ.

لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا.

أي: أنزَلْنا القرآنَ عربيًّا وصرَّفْنا فيه الوعيدَ للنَّاسِ؛ ليتَّقوا اللهَ أو لِيَتَذكَّروا.

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (114).

فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ.

أي: فتعاظَمَ اللهُ المستَحِقُّ للعبادةِ وَحْدَه، وارتفَعَ على جميعِ خَلْقِه، وتنزَّه وتقدَّسَ عن النَّقائِصِ، المَلِكُ الذي قهَرَ سلطانُه كلَّ ملكٍ وجبَّارٍ، وله وَحدَه الأمرُ والنَّهيُ، وهو الحَقُّ المطلقُ مِن كلِّ وجهٍ وبكلِّ اعتبارٍ، فذاتُه الحقُّ، وقولُه الحقُّ، ووعدُه الحقُّ، وأمرُه الحقُّ، وأفعالُه كلُّها حقٌّ، وجزاؤُه المستلزمُ لشرعِه ودينِه ولليومِ الآخرِ حقٌّ.

كما قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ [الحج: 62].

وقال سُبحانَه: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ [الملك: 1].

وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ.

أي: ولا تُبادِرْ -يا محمَّدُ- بتلاوةِ وحفظِ ما يَقرَؤُه عليك جبريلُ مِن قَبلِ أن يَنتهيَ مِن تلاوتِه عليك، بل استَمِعْ له حتى يفرُغَ مِن قِراءتِه؛ فإنَّ اللهَ قد ضَمِنَ لك جمعَه في صَدرِك، وقراءتَك إيَّاه.[291]

كما قال تعالى: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ. [القيامة: 16 - 19].

وعن ابنِ عبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: ((كان النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم إذا نزَلَ عليه الوحيُ حَرَّك به لسانَه، يريدُ أن يحفَظَه، فأنزل اللهُ: لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ [القيامة: 16])).[292]

وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا.

أي: وقُلْ -يا محمَّدُ-: يا رَبِّ، زِدْني عِلمًا إلى ما عَلَّمْتَني مِنَ الوَحيِ.[293]

---

(291) وممن اختار المعنى المذكور: ابن تيمية، وابن كثير، والسعدي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال السمعاني: (المشهورُ ما ذكَره ابنُ عبَّاسٍ وغيرُه، أنَّ النَّبيَّ كان إذا نزَل عليه جبريلُ بالقرآنِ، تلا أوَّلَ الآيةِ قبل أنْ يفرُغَ جبريلُ مِن الإبلاغِ مخافَةَ التفلُّتِ منه والنِّسيانِ؛ فأنزلَ اللهُ تعالَى هذه الآيةَ).

((تفسير السمعاني)) (3/357).

وقيل: المعنى: ولا تعجَلْ -يا محمَّدُ- بالقرآنِ فتُقرِئَه أصحابَك من قبل أن يُوحى إليك بيانُ معانيه.

وممن ذهب إلى ذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/179).

(292) رواه البخاري (4982)، ومسلم (3016) واللفظ له.

(293) قال ابن كثير: (قال ابنُ عيينةَ رحمه الله: ولم يزَلْ صلَّى الله عليه وسلَّم في زيادةٍ مِن العِلمِ حتى توفَّاه اللهُ عزَّ وجلَّ).

عن أمِّ سَلَمةَ رَضِيَ اللهُ عنها، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان يقولُ إذا صلَّى الصُّبحَ حينَ يُسلِّمُ:

((اللهُمَّ، إني أسألُك عِلمًا نافِعًا، ورِزقًا طَيِّبًا، وعَمَلًا مُتقبَّلًا)).[294]

((تفسير ابن كثير)) (319/5).

(294) أخرجه النسائي في ((السنن الكبرى)) (9930)، وابن ماجه (925) واللفظ له، وأحمد (26602).

حسَّنه ابن حجر في ((نتائج الأفكار)) (329/2)، وقال: وله شاهد.

وقال الشوكاني في ((نيل الأوطار)) (350/2): رجاله ثقات لولا جهالةُ مولى أم سلمة.

وصَحَّحه الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (925).

وأخرجه الطبراني في ((المعجم الصغير)) (735)، والإسماعيلي في ((المعجم)) (255)، وأبو نعيم في ((تاريخ أصبهان)) (464/1) من طريق آخر عن أم سلمة رضي الله عنها.

وثَّق رجالَه الهيثمي في ((مجمع الزوائد)) (114/10).

سورةُ طه

الآيات (115-123)

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119) فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122) قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123)

غريب الكلمات:

عَهِدْنَا: أي: أمَرْنا ووصَّيْنا، والعَهْدُ: حفظُ الشيءِ، ومراعاتُه حالًا بعدَ حالٍ، وأصلُ (عهد): يدلُّ الاحتفاظُ بِالشَّيءِ.

عَزْمًا: أي: صَبرًا وتَصميمًا وثباتًا، والعَزمُ والعَزيمةُ: عَقدُ القَلبِ على إمضاءِ الأمرِ، وأصلُ (عزم): يدُلُّ على القَطعِ.

تَضْحَى: أي: تَبرُزُ للشَّمسِ فتَجِدُ الحَرَّ، والضُّحَى: انبساطُ الشَّمسِ، وامتِدادُ النَّهارِ، وأصلُ (ضحي): يدُلُّ على بروزِ الشَّيءِ.

فَوَسْوَسَ: فألقَى وحَدَّثَ، والوَسوَسةُ: الخَطْرةُ الرَّديئةُ، من الوَسواسِ، وهو صَوتُ الحُلِيِّ، والهَمسُ الخفيُّ، وحَديثُ النَّفسِ، وأصلُ (وسوس): صَوتٌ غَيرُ رَفيعٍ.

يَبْلَى: أي: يَزُولُ أوَ يَضعُفُ، يقال: بَلِيَ الثوبُ بِلًى وبَلاءً، أي: خَلُقَ.

وَطَفِقَا: أي: جَعَلا وأقْبَلا، يُقال: طَفِقَ يفعَلُ كذا، أي: ظَلَّ يفعَلُ.

يَخْصِفَانِ: أي: يَرقَعانِ ويُلزِقانِ الوَرَقَ بَعضَه ببَعضٍ، وأصلُ (خصف): يدُلُّ على اجتِماعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ.

فَغَوَى: أي: جَهِلَ وضَلَّ، وأصلُ (غوي): يدلُّ على خِلافِ الرُّشدِ.

اجْتَبَاهُ: أي: اصطَفاه واختارَه، والاجتِباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطِفاءِ، وأصْلُ (جبي): يدلُّ على جَمعِ الشَّيءِ.

تفسير الآيات:

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (115).

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ.

أي: ولقَدْ وصَّيْنا آدَمَ -وهو في الجنَّةِ- بألَّا يأكُلَ مِن الشَّجَرةِ ولا يَقرَبَها، وحَذَّرْناه مِن طاعةِ الشَّيطانِ، مِن قبلُ، فنَسِيَ وصيَّتي، فلمَّا وسْوَس له الشَّيطانُ أطاعه، وأكَلَ من الشجرةِ.

وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا.

أي: ولم نجِدْ لآدَمَ عَزمَ قلبٍ على حِفظِ وصِيَّتي، وصَبرًا على الوَفاءِ بعَهدي، وجَزمًا على ترَكِ مُخالَفتي.[295]

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى (116).

---

(295) اخْتُلِفَ في معنى: «العزم»؛ فقيل: معناه: الصبر.

وقيل: معناه: الحفظ.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ١٨٥) مستندًا إلى لغة العرب أنّ كِلا القولين يَصْدُق عليه لفظ «العزم»، فقال مبيِّنًا ذلك: «وأصل العزم: اعتقاد القلب على الشيء، يُقال مِنه: عزم فلانٌ على كذا: إذا اعتَقَد عليه ونواه.

ومِن اعتقاد القلب: حفظُ الشيء، ومنه: الصبرُ على الشيء؛ لأنه لا يَجْزَع جازعٌ إلا مِن خَوَرِ قلبه وضعفه.

فإذ كان ذلك كذلك فلا معنى لذلك أبلغ مما بيَّنه الله -تعالى ذِكْره-، وهو قوله: ﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾، فيكون تأويله: ولم نجد له عزم قلبٍ على الصبر على الوفاء لله بعهده، ولا على حفظ ما عهد إليه».

وعلَّق ابنُ عطية (٦/ ١٣٨) على هذين القولين بقوله: «وعبَّر بعضُ المفسرين عن العزم هنا بالصبر والحفظ وغير ذلك مما هو أعمُّ مِن حقيقة العزم».

أي: واذكُرْ –يا محمَّدُ– حين قُلْنا للمَلائِكةِ: اسجُدوا لآدَمَ؛ طاعةً لي، وتكريمًا له، فسَجَدوا كلُّهم إلَّا إبليسَ امتنَعَ أن يكونَ مع السَّاجِدينَ لآدَمَ.

فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى (117).

فَقُلْنَا يَا آَدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ.

أي: فقُلنا: يا آدَمُ، إنَّ هذا الذي عصاني ولم يسجُدْ لك، عدُوٌّ لك ولِزَوجِك حوَّاءَ.

فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى.

أي: فاحذَرا أن تُطيعا عَدُوَّكما إبليسَ، فيتسبَّبَ في إخراجِكما من الجنَّةِ، فتتعَبَ –يا آدَمُ– في طَلَبِ الرِّزقِ والكِسوةِ والسَّكَنِ؛ الذي تحصُلُ عليه في الجنَّةِ بلا مشقَّةٍ.

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (118).

أي: إنَّ لك –يا آدَمُ– ألَّا تجوعَ في الجنَّةِ، ولا تعرَى عن اللِّباسِ.

وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (119).

أي: وأنَّك لا تَعطَشُ في الجنَّةِ، ولا تَبرُزُ للشَّمسِ، فيُؤذيَك حَرُّها.

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آَدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى (120).

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ.

أي: فألقى إبليسُ إلى آدمَ وسوستَه، وكلَّمه كلامًا خفيًّا.

كما قال تعالى: فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ * وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ * فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ [الأعراف: 20 – 22].

قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى.

أي: قال إبليسُ: يا آدَمُ، هل أدلُّك على شَجَرةٍ إن أكَلْتَ منها تُخلَّدْ في الجنَّةِ فلا تمُتْ، ويكُنْ لك مُلكٌ لا يفنى ولا ينقَطِعُ؟!

كما قال تعالى: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ [الأعراف: 20].

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (121).

فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا.

أي: فأكَلَ آدَمُ وحَوَّاءُ من الشَّجرةِ التي نهاهما اللهُ عنها، فظَهَرت لهما عوراتُهما بعدما كانت مستورةً عن أعيُنِهما.

وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ.

أي: وأخَذَ آدَمُ وحَوَّاءُ يُلصِقانِ عليهما مِن وَرَقِ أشجارِ الجنَّةِ؛ لِيَستُرا به عوراتِهما.

وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى.

أي: وخالَف آدَمُ وصِيَّةَ رَبِّه، فأكَل مِن الشَّجَرةِ التي نهاه اللهُ عن الأكلِ منها، فأخطأ طَريقَ الصَّوابِ، ولم يحصُلْ على ما وعَدَه الشَّيطانُ.

ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى (122).

أي: ثم اصطفَى اللهُ تعالى آدَمَ بعدَ مَعصيتِه، فتابَ عليها منها، وهداه للتوبةِ، ووفَّقه لها، وثبَّته عليها.

كما قال تعالى: فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [البقرة: 37].

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (123).

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا.

أي: قال اللهُ لآدَمَ -ومعه زوجُه حواءُ التي هي تبَعٌ له- وإبليسَ: اهبِطا من الجنَّةِ إلى الأرضِ.[296]

بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ.

---

(296) وممَّن اختار القولَ المذكورَ، وهو أنَّ الخطابَ لآدمَ وإبليسَ، وأمَّا حواءُ فهي تبَعٌ لآدمَ: القرطبي، وابن القيم، وابن كثير، والبقاعي.

يُنظر: المصادر السابقة.

قال ابنُ القيم: (والذي يوضِّحُ أنَّ الضَّميرَ في قولِه: اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا لآدمَ وإبليسَ: أنَّ الله سُبحانَه لَمَّا ذكر المعصيةَ أفرد بها آدَمَ دونَ زَوجِه، فقال وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى * ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى * قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا، وهذا يدُلُّ على أنَّ المخاطَبَ بالإهباطِ هو آدمُ ومَنْ زَيَّنَ له المَعصيةَ، ودخلتِ الزَّوجةُ تبَعًا؛ فإن المقصودَ إخبارُ الله تعالى للثَّقَلينِ بما جرى على أبوَيهما مِن شُؤمِ المعصيةِ ومخالفةِ الأمرِ؛ فذِكرُ أبَوَيهما أبلغُ في حُصولِ هذا المعنى مِن ذِكرِ أبوَي الإنسِ فقط.

وقد أخبرَ سُبحانَه عن الزَّوجةِ بأنَّها أكلت مع آدمَ، وأخبرَ أنَّه أهبطَه وأخرجه من الجنَّةِ بتلك الأكلةِ، فعُلِم أنَّ حُكمَ الزَّوجةِ كذلك، وأنَّها صارت إلى ما صار إليه آدَمُ، وكان تجريدُ العنايةِ إلى ذِكرِ حالِ أبَوَي الثَّقَلينِ أَولى مِن تجريدِه إلى ذِكرِ أبي الإنسِ وأُمِّهم.

فتأمَّلْه).

((حادي الأرواح)) (ص: 30).

ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (16/1).

وقيل: الخطابُ لآدَمَ وحَوَّاءَ.

وممَّن قال بذلك: ابنُ جرير، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (190/16)، ((تفسير العليمي)) (332/4)، ((تفسير الشوكاني)) (462/3)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (120/4).

قال ابنُ كثير: (وقد ذَكَر المفسِّرونَ الأماكنَ الَّتي هَبَط فيها كلٌّ مِنهم، ويرجِعُ حاصلُ تلك الأخبارِ إلى الإسرائيليَّاتِ، واللَّهُ أعلمُ بصِحَّتِها.

ولو كان في تعيينِ تلك البقاعِ فائدةٌ تعودُ على المكلَّفينَ في أمرِ دينِهم، أو دُنْياهم، لذَكَرها اللَّهُ تعالَى في كتابِه أو رسولُه صلَّى اللَّهُ عليه وسَلَّم).

((تفسير ابن كثير)) (399/3).

أي: تقَعُ العداوةُ بينكم؛ فآدمُ وذريَّتُه من جهةٍ، وإبليسُ وذُرِّيَّتُه مِن جهةٍ أخرى.

كما قال تعالى: إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ [فاطر: 6].

فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى.

أي: فإنْ يأتِكم -يا بني آدَمَ- مِن عندي رسولٌ أرسِلُه إليكم، وكِتابٌ أُنزِلُه عليكم؛ فمَن اتَّبَعَ رُسُلي وعَمِلَ بكُتُبي، اهتَدى، وسعِد في الدُّنيا والآخرةِ.(297)

---

(297) ممن عمَّم فجعَل نفيَ الضلالِ والشقاءِ كليهما في الدُّنيا والآخرةِ، أي: فلا يضِلُّ في الدنيا والآخرةِ، ولا يشقَى فيهما: ابنُ تيمية، وابنُ القيم، والبقاعي، والسعدي.

يُنظر: ((مجموع الفتاوى)) لابن تيمية (12/335)، ((الصواعق المرسلة)) لابن القيم (3/128)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (12/361)، ((تفسير السعدي)) (ص: 515).

قال ابن عثيمين: (نَفْيُ الضلالِ والشقاءِ عنهم يتضمَّنُ كمالَ الهدايةِ والسعادةِ في الدنيا والآخرةِ).

((مجموع فتاوى ورسائل العثيمين)) (20/268).

وممن ذهَب إلى أنَّ قولَه تعالى: فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى معناه: فلا يضِلُّ في الدنيا، ولا يشقَى في الآخرةِ: ابنُ جريرٍ، والواحدي، والسمعاني، وابنُ عطية، وابن جزي، والعُليمي، والشوكاني، والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/190-191)، ((البسيط)) للواحدي (14/550)، ((تفسير السمعاني)) (3/361)، ((تفسير ابن عطية)) (4/68)، ((تفسير ابن جزي)) (2/16)، ((تفسير العليمي)) (4/333)، ((تفسير الشوكاني)) (3/462)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (4/125).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: ابنُ عباس.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/191).

سورةُ طه

الآيات (124–127)

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127)

غريب الكلمات:

ضَنْكًا: أي: ضَيِّقةً، والضَّنكُ مِن المنازِلِ والأماكِنِ والمعايشِ: الشَّديدُ، وأصلُ (ضنك): يدلُّ على ضيقٍ.

تفسير الآيات:

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (124).

وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا.

أي: ومَن أعرَضَ عن كتابي[298] فلم يتدَبَّرْه ولم يعمَلْ بما فيه؛ فإنَّ له معيشةً ضَيِّقةً[299] مُدَّةَ حياتِه في الدُّنيا، وبعدَ مَوتِه في البَرزَخِ، وفي معادِه في الآخرةِ.[300]

---

(298) قال ابن القيم: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا أي: عن الذِّكرِ الذي أنزلْتُه، فالذِّكرُ هنا مصدرٌ مُضافٌ إلى الفاعِلِ كقيامي وقراءتي، لا إلى المفعولِ، وليس المعنى: ومن أعرض عن أن يذكُرَني، بل هذا لازِمُ المعنى ومقتضاه مِن وجهٍ آخَرَ...، وأحسنُ مِن هذا الوجهِ أن يقالَ: الذِّكرُ هنا مضافٌ إضافةَ الأسماءِ لا إضافةَ المصادرِ إلى معمولاتِها، والمعنى: ومن أعرض عن كتابي ولم يتَّبِعْه؛ فإنَّ القرآنَ يُسَمَّى ذِكرًا).

((مفتاح دار السعادة)) (1/42-43).

(299) اخْتُلِفَ في موضع المعيشة الضنك على أقوال: الأول: أنّ المعيشة الضنك في الدنيا، وفي صفتها قولان: أولهما: أنها بالكسب الحرام.

وثانيهما: أن صاحبها ينفق من ماله على تكذيب منه بالخَلَف من الله، فتشتد لذلك عليه معيشته وتضيق.

الثاني: أن المعيشة الضنك في البرزخ، وهي عذاب القبر.

الثالث: أن المعيشة الضنك في الآخرة في جهنم، بأن جُعِل طعامهم فيها الضريع والزقوم.

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ١٩٨ - ١٩٩) مستندًا إلى السنة والسياق القولَ الثاني، وهو قول أبي سعيد الخدري، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي صالح، والربيع، والسدي، وعلَّل ذلك بحديث أبي هريرة المرفوع الثالث المتقدم في آثار تفسير الآية، وبـ «أن الله -تبارك وتعالى- أتْبَع ذلك قولَه: ﴿ولَعَذابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقى﴾، فكان معلومًا بذلك أنّ المعيشة الضنك التي جعلها الله لهم قبل عذاب الآخرة».

وانتقد ابنُ جرير (١٦/ ١٩٩) القول الثالث بأن «ذلك لو كان في الآخرة لم يكن لقوله: ﴿ولَعَذابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقى﴾ معنًى مفهوم؛ لأنّ ذلك إن لم يكن تقدَّمه عذابٌ لهم قبل الآخرة، حتى يكون الذي في الآخرة أشدَّ منه؛ بطل معنى قوله: ﴿ولَعَذابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقى﴾».

وانتقد مستندًا لدلالة العقل القول الأول بأنّ المعيشة الضنك إن «كانت لهم في حياتهم الدنيا فقد يجب أن يكون كل مَن أعْرَض عن ذكر الله مِن الكفار فإنّ معيشته فيها ضنكٌ، وفي وجودنا كثيرًا منهم أوسَع معيشةً من كثيرٍ من المُقْبِلين على ذكر الله -تبارك وتعالى- القابلين له المؤمنين؛ ما يدل على أن ذلك ليس كذلك».

ووجَّه ابنُ عطية (٦/ ١٤٢) القول الثاني بقوله: «وحمل هذه الفرقة على هذا التأويل أنّ لفظ الآية يقتضي أن المعيشة الضنك قبل يوم القيامة بقوله: ﴿ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أعْمى﴾، وبقوله تعالى: ﴿ولَعَذابُ الآخِرَةِ أشَدُّ وأبْقى﴾».

(300) وممَّن اختار أنَّ المعيشةَ الضنكَ عامةٌ: في الدُّنيا والقبرِ وفي الآخرةِ: ابنُ تيمية، وابنُ القيِّم، والشنقيطي.

قال ابنُ القَيِّم: (المعيشةُ الضَّنكُ في الدُّنيا وفي البرزخِ، والعذابُ في الآخرةِ؛ قال تعالى: وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى [طه: 124].

وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى.

أي: ونحشُرُ المُعرِضَ عن ذِكري يومَ القيامةِ أعمى لا يُبصِرُ.[301]

وفُسِّرَت المعيشةُ الضَّنكُ بعَذابِ القَبرِ، ولا رَيبَ أنَّه من المعيشةِ الضَّنكِ، والآيةُ تتناولُ ما هو أعَمُّ منه، وإن كانت نكرةً في سياق الإثباتِ، فإنَّ عُمومَها من حيثُ المعنى؛ فإنَّه سُبحانَه رتَّبَ المعيشةَ الضَّنكَ على الإعراضِ عن ذِكرِه، فالمُعرِضُ عنه له من ضَنكِ المعيشةِ بحَسَبِ إعراضِه...

فالمعيشةُ الضَّنكُ لازمةٌ لِمَن أعرض عن ذِكرِ الله الذي أنزَلَه على رسولِه صلَّى الله عليه وسلَّم في دنياه، وفي البرزخِ، ويومَ معادِه).

((الجواب الكافي)) (ص: 120).

ومن فسَّرها بعذابِ القبرِ: ابنُ جرير، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (198/16)، ((تفسير القرطبي)) (259/11).

وممن قال بهذا القول مِن السلفِ: أبو سعيدٍ الخدري، وأبو هريرة، وعبدُ الله بنُ مسعودٍ، وأبو صالح، والسُّدِّي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (196/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (180/3).

وممن فَسَّرَها بضنك المعيشةِ في الدنيا: ابنُ كثير، وهو ظاهِرُ اختيارِ ابنِ عاشور.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (322/5)، ((تفسير ابن عاشور)) (331/16).

(301) وممَّن قصَرَ معنى العمى هنا على عمى البَصَرِ على حقيقتِه: ابنُ القيم، والسعدي، والشنقيطي.

يُنظر: المصادر السابقة.

وممَّن قال بهذا القولِ من السَّلفِ: ابنُ عبَّاس، ومجاهدٌ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (200/16)، ((تفسير ابن الجوزي)) (181/3).

ومِن المفسرينَ من عَمَّم المعنى ليشمَلَ عمى البَصَرِ والبصيرة، ومنهم: ابنُ جرير، فقال: (الصوابُ من القَولِ في ذلك ما قال الله تعالى ذِكرُه، وهو أنَّه يُحشَرُ أعمى عن الحُجَّةِ ورؤية الشيءِ، كما أخبر جلَّ ثناؤه، فعَمَّ ولم يُخَصِّص).

((تفسير ابن جرير)) (201/16).

قال الواحدي: (قيل في التفسيرِ: أعمَى البصرِ.

وقيل: أعمَى عن الحجةِ.

يعني أنَّه لا حجةَ له يهتدي إليها، والأعمَى إذا أُطلِق كان الظاهرُ عمَى البصرِ).

((الوسيط)) (226/3).

وقال الشنقيطي: (اعلمْ أنَّ في هذه الآيةِ الكريمةِ قرينةً دالةً على...

أنَّ المرادَ بقولِه: ﴿ أي: أعمَى البصرِ لا يرى شيئًا.

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (125).

أي: قال: يا رَبِّ، لماذا حَشَرتَني أعمى، وقد كنتُ في الدُّنيا مُبصِرًا، وما الذي صيَّرني إلى ذلك؟![302]

والقرينةُ المذكورةُ هي قولُه تعالى: قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ، فصرَّح بأنَّ عماه هو العمَى المقابلُ للبصرِ، وهو بصرُ العينِ؛ لأنَّ الكافرَ كان في الدنيا أعمَى القلبِ).

((أضواء البيان)) (127/4).

ويُنظر: ((مفتاح دار السعادة)) لابن القيم (1/44-46).

اخْتُلِفَ في صفة العمى في قوله تعالى: ﴿ونَحْشُرُهُ يَوْمَ القِيامَةِ أعْمى﴾ على قولين: الأول: أنه عمى البصيرة.

وهو قول مجاهد، وأبي صالح، ومقاتل، ويحيى بن سلّام.

الثاني: أنه عمى البصر.

وهو قول ابن عباس، وعكرمة.

ووجَّه ابنُ القيم القول الأول بقوله: «والذين قالوا: المراد به العمى عن الحجة إنما مرادهم: أنهم لا حجة لهم، ولم يريدوا أن لهم حجتهم عُمي عنها، بل هم عُمي عن الهدى، كما كانوا في الدنيا، فإنّ العبد يموت على ما عاش عليه، ويبعث على ما مات عليه».

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٠١) مستندًا إلى دلالة العموم شمول معنى الآية، بأن الله «يحشره أعمى عن الحجة، ورؤية الأشياء، كما أخبر -جلَّ ثناؤه-، فعَمَّ ولم يُخَصِّصْ».

ورجَّح ابنُ عطية (٦/ ١٤٢) القول الثاني، فقال: «وهذا هو الأوجه».

ولم يذكر مستندًا، ثم وجَّه -بناءً على هذا المعنى- قول مَن قال في قوله تعالى: ﴿ونَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ [طه: ١٠٢]، بأنه في العين قائلًا: «وأما قوله: ﴿ونَحْشُرُ المُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾ فمَن رآه في العين فلا بُدَّ أن يتأوَّلها مع هذا؛ إما أنها في طائفتين، وإما في موطنين».

وكذا رجَّح ابنُ القيم (٢/ ١٩٣) مستندًا إلى الدلالة العقلية القولَ الثاني، وعلّل ذلك قائلًا: «فإنّ الكافر يعلم الحق يوم القيامة عيانًا، ويُقِرُّ بما كان يجحده في الدنيا، فليس هو أعمى عن الحق يومئذ».

وانتقد ابنُ عطية مستندًا إلى الدلالة العقلية القول الأول قائلًا: «ولو كان هذا لم يُحِسَّ الكافر بذلك؛ لأنه مات أعمى البصيرة، ويُحشَر كذلك».

ثم علَّق على كلا القولين بقوله: «مع أن عمى البصيرة حاصِلٌ في الوجهين».

(302) اخْتُلِفَ في معنى: ﴿وقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾؛ فقيل: وقد كنت بصيرًا بحججي.

وقيل: وقد كنت ذا بصرٍ أبصر به الأشياء.

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (126).

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا.

أي: قال الله له: كذلك[303] جاءتك آياتُ كتابي فتركْتَ الإيمانَ بها وتدبُّرَها، وأعرضتَ عن العَمَلِ بها.

كما قال تعالى:...وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ * أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ * أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ * بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ [الزمر: 55 – 59].

وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى.

أي: فكما تركتَ آياتي في الدُّنيا ولم تعملْ بها، فكذلك يومَ القيامة تُترَكُ في العذابِ.[304]

ورجَّح ابنُ جرير (١٦/ ٢٠٢) مستندًا إلى دلالة العموم شمول معنى الآية، بـــ «أن الله –جلَّ ثناؤه– عمَّ بالخبر عنه بوصفِه نفسَه بالبصر، ولم يَخْصُصْ منه معنًى دون معنًى، فذلك على ما عمَّه».

(303) أي: مِثلَ ذلك فعلْتَ أنت، ثُمَّ فسَّره بِقوله: أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا.

وممَّن اختار هذا المعنى: الزمخشري، والرسعني، والبقاعي، والشوكاني.

يُنظر: ((تفسير الزمخشري)) (95/3)، ((تفسير الرسعني)) (580/4)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (363/12)، ((تفسير الشوكاني)) (462/3).

وقال ابن جرير: (عنى بقولِه كَذَلِكَ أَتَتْكَ هكذا أتتْك).

((تفسير ابن جرير)) (202/16).

(304) قال ابنُ كثيرٍ: (أي: لَمَّا أعرضتَ عن آياتِ الله، وعامَلْتَها معاملةَ مَن لم يذكُرْها، بعد بلاغِها إليك تناسَيْتَها وأعرَضْتَ عنها وأغفَلْتَها، كذلك نعامِلُك اليوم معاملةَ مَن ينساك...

كما قال تعالى: فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ [الأعراف: 51].

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (127).

وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ.

أي: ومِثلَ ذلك الجزاءِ الشَّديدِ لِمن أعرَضَ عن ذِكري، نجزي كُلَّ مَن جاوزَ الحَدَّ، فعصى رَبَّه ولم يؤمِنْ بآياتِه.

وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى.

أي: وللعذابُ الواقِعُ في الآخرةِ أشدُّ ألَمًا،(305) وأدوَمُ على أصحابِه بلا انقِطاعٍ.

فإنَّ الجزاءَ مِن جنسِ العمل).

((تفسير ابن كثير)) (324/5).

ذكر ابنُ جرير (١٦/ ٢٠٣) اختلافًا في معنى: ﴿وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ على قولين: الأول: وكذلك اليوم تُنسى في النار.

وهو قول أبي صالح، ومجاهد.

والثاني: وكذلك اليوم تُنسى من الخير، ولم تُنسَ مِن الشر.

وهو قول قتادة.

ووجَّه قول قتادة قائلًا: «وهذا القول الذي قاله قتادة قريب المعنى مما قاله أبو صالح ومجاهد؛ لأن تَرْكَه إياهم في النار من أعظم الشر لهم».

(305) قيل: المرادُ: ولعذابُ الآخرة أشَدُّ مِن عذابِ الدُّنيا.

وممن اختاره: ابنُ كثيرٍ، والبقاعي، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (324/5)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (364/12)، ((تفسير السعدي)) (ص: 516).

وقيل: المرادُ: ولعذابٌ في الآخرةِ أشدُّ لهم مما وعدتُهم في القبرِ من المعيشةِ الضنكِ.

وممن قال بذلك: ابن جرير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (204/16).

كما قال تعالى: لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ [الرعد: 34].

وقال سُبحانه: فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ [الزمر: 26].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى [فصلت: 16].

قيل: المرادُ: ولعذابُ الآخرة أشَدُّ مما يعذبهم به في الدنيا والقبر.

وممن اختاره: البغوي، والعليمي والشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (279/3)، ((تفسير العليمي)) (334/4)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (130/4).

وقيل: أشَدُّ وَأَبْقَى من المعيشة الضَّنْك والحشر على العَمى.

وممن اختاره: الرسعني، وابن جزي.

يُنظر: ((تفسير الرسعني)) (581/4)، ((تفسير ابن جزي)) (16/2).

سورةُ طه

الآيات (128–130)

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (128) وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى (129) فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130)

غريب الكلمات:

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ: أي: يُبَيِّنْ لهم، أو يَتبيَّنْ لهم، وأصلُ (هدي) هنا: التَّقدُّمُ للإرشادِ.

لِأُولِي النُّهَى: أي: أصحابِ العقولِ، والنُّهَى جمعٌ، مفردُه نُهْيَةٌ، وسُمِّي العقلُ بذلك؛ لأنَّه يَنهَى عن قبيحِ الفعلِ، وأصلُ (نهي): يدُلُّ على غايةٍ وبلوغٍ.

لِزَامًا: أي: ملازمًا لا يفارقُ، أو: لازمًا، أو: حتمًا واقعًا، واللِّزامُ مصدرُ لازَمَ، وأصلُ (لَزِمَ): يَدُلُّ على مُصاحبةِ الشَّيءِ بالشَّيءِ دائمًا.

وَأَجَلٌ مُسَمًّى: أصلُ الأجَلِ: غايةُ الوَقتِ، والمُدَّةُ المضروبةُ للشَّيءِ، ومُسَمًّى أَي: مُثبَتٌ مُعَيَّنٌ.

آنَاءِ اللَّيْلِ: أي: ساعاتِه، وأصلُ (أني) هنا: ساعةٌ مِن الزَّمانِ.

تفسير الآيات:

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (128).

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ.

أي: أفلَمْ يتبيَّنْ لِمُشرِكي العَرَبِ كثرةُ من أهلَكْنا قبلهم من الأُمَمِ الماضيةِ، وهم يسيرونَ في مساكِنِهم إذا سافروا، ويَرَونَ آثارَ هَلاكِهم بسَبَبِ كُفرِهم، أفلا يخافونَ أنْ نُهلِكَهم مِثْلَهم، إن لم يؤمِنوا ويُذعِنوا للحَقِّ الذي جاءَهم؟![306]

كما قال تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ [الأنعام: 6].

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى.

أي: إنَّ في إهلاكِ الأمَمِ المكذِّبةِ لَدلالاتٍ وعِظاتٍ لِذَوي العُقولِ الصَّحيحةِ.[307]

(306) قال ابنُ عاشور: (والمرادُ بالقرونِ: عادٌ وثمود؛ فقد كان العربُ يمرُّون بمساكِنِ عادٍ في رِحْلاتِهم إلى اليَمَنِ ونجران وما جاورها، وبمساكِنِ ثمودَ في رحلاتِهم إلى الشَّامِ، وقد مرَّ النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم والمسلمون بديارِ ثمودَ في مسيرِهم إلى تبوكَ).

((تفسير ابن عاشور)) (16/335).

(307) قال ابن القيم: (فأيُّ دَلالةٍ أعظَمُ مِن رَجُلٍ يَخرُجُ وَحدَه لا عُدَّةَ له ولا عَدَدَ ولا مالَ، فيدعو الأمَّةَ العظيمةَ إلى توحيدِ الله والإيمانِ به وطاعته، ويحَذِّرُهم من بأسه ونقمَته؛ فتتَّفِق كلِمتُهم أو أكثَرِهم على تكذيبه ومعاداته، فيُذَكِّرُهم أنواعَ العقوباتِ الخارجةِ عن قُدرةِ البَشَرِ، فيُغرِقُ المكَذِّبينَ كُلَّهم تارة، ويخسِفُ بغَيرِهم الأرضَ تارةً، ويُهلِكُ آخرينَ بالرِّيحِ، وآخرينَ بالصَّيحة، وآخرينَ بالمسخِ، وآخرينَ بالصَّواعِقِ، وآخرينَ بأنواعِ العقوباتِ، وينجو داعيهم ومَن معه، والهالِكونُ أضعافُ أضعافِهم عددًا وقُوَّةً ومَنعةً وأموالًا؟!).

((التبيان في أقسام القرآن)) (ص: 302).

كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة: 26].

وقال سُبحانَه: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: 36، 37].

وقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: 51].

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ (129).

أي: ولولا تَقديرُ الله تأخيرَ العذابِ إلى وَقتٍ مُقدَّرٍ؛[308] للزِمَهم الهلاكُ عاجِلًا.[309]

---

(308) قال ابنُ تيمية: (قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ أي: إنَّ عذابَهم له أجلٌ مسمًّى: إمَّا يوم القيامةِ، وإمَّا في الدنيا كيوم بدرٍ، وإما عقِبَ الموتِ، وقد ذُكِر في الآيةِ الأقوالُ الثلاثةِ.

فلولا كلمةٌ سبقَت مِن ربِّك إلى أجلٍ مسمًّى، لكان العذابُ لزامًا، أي: لازمًا لهم؛ فإن المقتضي له قائمٌ تامٌّ، وهو كفرُهم). ((مجموع الفتاوى)) (593/16).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (69/4).

(309) اختُلِف في المراد بـ «الأجل المسمى» على أقوال: الأول: أنه يوم القيامة.

الثاني: أنه موت كل واحد منهم، وانقضاء آجالهم.

الثالث: أنه يوم بدر.

ووجَّه ابنُ عطية (٦/ ١٤٤) القول الأول بقوله: «والعذاب المتوعَّد به –على هذا– هو عذاب جهنم».

ووجَّه القول الثاني بقوله: «فالعذاب –على هذا– ما يَلْقى في قبره وما بعده».

ووجَّه القول الثالث بقوله: «فالعذاب –على هذا– هو قتلهم بالسيف».

[٤٣٢١] وجَّه ابنُ تيمية (٤/ ٣٤٦) قول من قال بأن معنى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾: فصل بأمر ربك، فقال: «وتوجيه هذا أن قوله:» بحمده «أي: بكونه محمودًا، كما قد قيل في قول القائل: سبحان الله وبحمده؛ قيل: سبحان الله ومع حمده أسبِّحه، أو أسبِّحه بحمدي له، وقيل: سبحان الله وبحمده سبَّحناه، أي: هو المحمود على ذلك، كما تقول: فعلتُ هذا بحمد الله، وصلينا

كما قال تعالى: قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا [الفرقان: 77].

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (130).

فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ.

أي: فاصبِرْ -يا محمَّدُ- على ما يقولُ كُفَّارُ قومِك مِن تكذيبِك، والاستهزاءِ بك، وإيذائِك، كقولِهم: هو ساحِرٌ ومجنونٌ؛ فلا تستعجِلْ لهم العذابَ، ولا تحفِلْ بهم؛ فإنَّ لعذابِهم وَقتًا مضروبًا لا يُتقَدَّمُ عنه، ولا يُتأخَّرُ.

وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا.

بحمد الله، أي: بفضله وإحسانه الذي يَستحقُّ الحمدَ عليه، وهو يرجع إلى الأول، كأنه قال: بحمدِنا لله فإنه المستحق لأن نحمده على ذلك.

وإذا كان ذلك بكونه المحمود على ذلك فهو المحمود على ذلك، حيث كان هو الذي أمَر بذلك وشَرَعَه، فإذا سبَّحنا سبَّحنا بحمده، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٤].

وقد يكون القائل الذي قال:» **فسبح بحمد ربك** «أي: بأمره؛ أراد: المأمور به، أي: سبّحه بما أمرك أن تُسبّحه به، فيكون المعنى: سَبّح التسبيحَ الذي أمرك ربُّك به، كالصلاة التي أمرك بها.

وقولنا: صليتُ بأمر الله، وسبَّحتُ بأمر الله.

يتناول هذا وهذا، يتناول أنه أمَرَ بذلك ففعَلْتُه بأمْرِه لم أبتدعْه، وأني فعلتُ بما أمرني به لم أبتدعْ».

أي: ونزِّه –يا محمَّدُ– ربَّك عن كلِّ نَقصٍ، حامدًا له بإثباتِ كُلِّ كَمالٍ مع محبَّتِه وتَعظيمِه سُبحانَه، وذلك بأن تصلِّيَ له وَحدَه قَبلَ طُلوعِ الشَّمسِ: صلاةَ الفَجرِ، وقبل غُروبِها، صلاةَ العَصرِ.(310)

---

(310) وممن ذهب إلى أنَّ المرادَ بالتسبيحِ قبلَ طلوعِ الشمسِ: صلاةُ الصبح، وبالتسبيحِ قبلَ غروبِ الشمسِ: صلاةُ العصرِ: ابنُ جرير، والواحدي، وابنُ تيمية، وابنُ كثير.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (208/16)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 708)، ((جامع المسائل)) لابن تيمية (344/6)، ((تفسير ابن كثير)) (325/5).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: قتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (210/16).

قال القرطبي: (قال أكثرُ المتأوِّلينَ: هذا إشارةٌ إلى الصلواتِ الخَمسِ).

((تفسير القرطبي)) (261/11).

وقال الشوكاني: (ولو قيل: ليس في الآيةِ إشارةٌ إلى الصلاةِ، بل المرادُ التسبيحُ في هذه الأوقاتِ، أي: قول القائلِ: سبحانَ الله، لم يكن ذلك بعيدًا مِن الصوابِ).

((تفسير الشوكاني)) (465/3).

وقال ابن تيمية: (قولُه: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قد فسَّرَها كثيرٌ من المفَسِّرينَ أي: فصَلِّ بحَمدِ رَبِّك والثناء عليه، لم يذكُرِ ابن الجوزيِّ غيرَ هذا القول، قال: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ أي: صَلِّ له بالحمدِ والثناءِ عليه.

وتفسيرُ التسبيحِ بالصلاةِ فيها أحاديثُ صحيحةٌ وآثار كثيرة، مثل حديثِ جرير...

وأمَّا قولُه: بِحَمْدِ رَبِّكَ...

أي بحمدِ ربِّك وشكرِ ربِّك وطاعةِ ربِّك وعبادة ربِّك، أي: بذكرك ربَّك وشكرِك ربَّك وطاعتِك ربَّك وعبادتِك ربَّك، ولا ريبَ أنَّ حمدَ الربِّ والثناءَ عليه ركنٌ في الصلاةِ؛ فإنها لا تتمُّ إلا بالفاتحةِ التي نصفُها الأولُ حمدٌ لله وثناءٌ عليه وتمجيدٌ له، وقد شُرع قبل ذلك الاستفتاحُ، وشُرِع الحمدُ عند الرفعِ مِن الركوعِ، وهو متضمِّنٌ لحمدِ الله تعالى).

((جامع المسائل)) (289/3).

وقال ابن تيمة أيضًا: (وقد قيل: إنّ الصلاةَ إنما سمِّيت تسبيحًا؛ لاشتمالِها على القيامِ والقراءةِ، وتسمَّى ركعةً وسجدةً؛ لاشتمالِها على الركعةِ والسجدةِ...

والمصلِّي إذا حمِد ربَّه في القيامِ، أو في القيامِ والقعودِ، وسبَّح في الركوعِ والسجودِ، فقد جمَع التسبيحَ والحمدَ، فسبَّح بحمدِ الله. فالصلاةُ تسبيحٌ بحمدِ ربِّه، كما بيَّن النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم ذلك).

((جامع المسائل)) (293/3).

وقال أيضًا: (ف قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ هي صلاةُ الفجرِ، ووَقَبْلَ غُرُوبِهَا هي العصرُ، وكذلك فسَّرها النبيُّ صلَّى الله عليه وسلَّم).

كما قال تعالى: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ [غافر: 55].

وقال سُبحانَه: وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ [الحجر: 97، 98].

وعن جريرِ بنِ عَبدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عنه قال: ((كنَّا عند النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ نظَرَ إلى القَمَرِ ليلة البَدرِ فقال: أمَا إنَّكم ستَرَونَ رَبَّكم كما تَرَونَ هذا، لا تضامُّونَ[311] –أو لا تضاهون[312]– في رؤيتِه، فإن استطعتُم ألَّا تُغلبوا على صلاةٍ قبل طلوعِ الشَّمسِ وقبل غُروبِها، فافعَلوا)) ثم قال: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا.[313]

((جامع المسائل)) (344/6).

وقال ابن رجب: (صلاةُ الصُّبحِ وصَلاةُ العَصرِ يدخُلُ في التسبيحِ قبلَ طلوعِ الشَّمسِ وقبلَ غروبِها).

((فتح الباري)) (177/4).

(311) لا تضـامون: يُروَى بالتشـديدِ والتخفيفِ، فبالتشـديدِ معناه: لا ينضـمُّ بعضُـكم إلى بعضٍ وتزدحمونَ وقتَ النظرِ إليه، وبالتخفيفِ معناه: لا ينالُكم ضيمٌ (أي: ظلم) في رؤيتِه، فيراه بعضُكم دونَ بعضٍ.

يُنظر: ((النهاية)) لابن الأثير (101/3).

(312) تضاهون: لا يشتبِهُ عليكم، ولا ترتابون فيه فيعارِض بعضُكم بعضًا.

يُنظر: ((فتح الباري)) لابن حجر (446/11).

(313) رواه البخاري (573) واللفظ له، ومسلم (633).

قال ابن رجب: (وقد أدرج أكثرُ الرواةِ القراءةَ في الحديثِ، وبيَّن بعضُهم: أنَّ جريرًا هو الذي قرأ ذلك).

((فتح الباري)) (177/4).

وقال أيضًا: (وقد قيل: إنَّ هذه الكلمة مُدرَجةٌ، وإنما القارئ هو جريرُ بن عبد الله البَجَلي.

وقد خرجَّه مسلم في «صحيحه» عن أبي خيثمةَ، عن مروانَ بنِ معاويةَ –فذكر الحديثَ، وقال في آخرِه: ثم قرأ جرير: وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ [ق: 39].

وكذا رواه عمرُو بنُ زرارةَ وغيرُه، عن مروانَ بنِ معاويةَ، وأدرجه عنه آخرون).

وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ.

أي: ومِن ساعاتِ اللَّيلِ فَصَلِّ –يا محمَّدُ.(314)

كما قال تعالى: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ * وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ [ق: 39، 40].

((فتح الباري)) (4/325-326).

(314) قال ابن تيمية: (وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ مُطلَقٌ في آناءِ اللَّيلِ يتناولُ المغربَ والعِشاءَ).

((جامع المسائل)) (6/345).

وقال ابن رجب: (وأما التسبيحُ من آناء الليل فيدخلُ فيه صلاة المغربِ وصلاةُ العشاء).

((فتح الباري)) (4/177).

وقيل: المراد: صلاة المغرب والعشاء.

وممن قال بذلك: مقاتل بن سليمان، ومكي، والواحدي، والبغوي، والبيضاوي، والخازن، والعُليمي، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/46)، ((الهداية الى بلوغ النهاية)) لمكي (12/7945)، ((الوجيز)) للواحدي (ص: 708)، ((تفسير البغوي)) (3/280)، ((تفسير البيضاوي)) (4/42)، ((تفسير الخازن)) (3/218)، ((تفسير العليمي)) (4/336)، ((تفسير القاسمي)) (7/166).

وممن قال بهذا القولِ من السلفِ: قتادةُ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/211).

وحملها ابنُ جرير على صلاةِ العشاءِ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/208).

وممن قال بهذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ زيد.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/211).

وحملها ابنُ كثيرٍ على قيامِ الليلِ.

يُنظر: ((تفسير ابن كثير)) (5/326).

وممن قال بنحوِ هذا القولِ مِن السلفِ: ابنُ عباسٍ.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/211).

وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى.

أي: وصلِّ -يا محمَّد- في أطرافِ النَّهارِ؛ كي ترضى بما يعطيك ربُّك مِن الثوابِ العاجِلِ والآجِلِ، ويطمَئِنَّ قَلْبُك وتقرَّ عَينُك بعبادةِ رَبّك، وتتسلَّى بها عن أذيَّتِهم، ويَهونَ عليك الصَّبرُ.(315)

---

(315) قيل: المرادُ بذلك: صلاة الظهر.

وممن قال به: الواحدي، والسمعاني، والبغوي.

يُنظر: ((الوجيز)) للواحدي (ص: 708)، ((تفسير السمعاني)) (3/363)، ((تفسير البغوي)) (3/280).

وممن قال بهذا القول من السلف: قتادة.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/211).

وقيل: المراد بأطراف النهار: صلاةُ الظهر والمغرب.

وممن قال بذلك: ابن جرير، والقرطبي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (16/208)، ((تفسير القرطبي)) (11/261).

قال ابن جرير: (وقيل: أطراف النهار، والمراد بذلك الصلاتان اللتان ذكرنا؛ لأنَّ صلاةَ الظُّهرِ في آخر طَرَفِ النهار الأول، وفي أوَّلِ طَرَفِ النهار الآخِر، فهي في طرفَينِ منه، والطرف الثالث: غروبُ الشمس، وعند ذلك تصلَّى المغربُ، فلذلك قيل أطراف).

((تفسير ابن جرير)) (16/209).

وذهب ابن رجب إلى أنه يدخلُ في أطراف النَّهارِ صلاةُ الفَجرِ وصلاة العصر، وربما دخلت فيه صلاةُ الظهر؛ لأنَّها في أول طرف النهار الآخر.

يُنظر: ((فتح الباري)) (4/177، 178).

وقال القرطبي: (وقالت فرقةٌ: المرادُ بالآية صلاة التطوُّع، قاله الحسنُ).

((تفسير القرطبي)) (11/261).

ويُنظر: ((تفسير ابن عطية)) (4/70).

وقال ابنُ عاشور: (وقرأ الجمهورُ: لَعَلَّكَ تَرْضَى -بفتح التاء- بصيغة البناء للفاعل، أي: رجاءً لك أن تنالَ مِن الثوابِ عند الله ما ترضى به نفسُك.

ويجوز أن يكون المعنى: لعلَّ في ذلك المقدارِ الواجِبِ من الصلواتِ ما ترضى به نفسُك دونَ زيادةٍ في الواجِبِ؛ رفقًا بك وبأمتك، ويبيِّنُه قولُه صلَّى الله عليه وسلَّم: «وجُعِلَت قرَّةُ عيني في الصَّلاةِ».

وقرأ الكسائي، وشعبة عن عاصم: تُرْضَى -بضَمِّ التاء- أي: يُرضِيك ربُّك.

عن أبي سَعيدٍ الخُدْريّ رَضِيَ اللهُ عنه، قال: قال رَسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((إنَّ اللهَ تبارك وتعالى يقولُ لأهلِ الجنَّةِ: يا أهلَ الجنَّةِ، فيقولون: لبَّيك ربَّنا وسَعدَيك،[316] فيقولُ: هل رَضِيتُم؟ فيقولونَ: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتَنا ما لم تُعطِ أحدًا من خَلقِك؟! فيقولُ: أنا أُعطيكم أفضَلَ مِن ذلك، قالوا: يا رَبِّ، وأيُّ شَيءٍ أفضَلُ مِن ذلك؟! فيقولُ: أُحِلُّ عليكم رِضواني، فلا أسخَطُ عليكم بعده أبدًا)).[317]

وهو محتَمِلٌ للمعنيين).

((تفسير ابن عاشور)) (339/16).

(316) لبَّيك وسَعْديك: أي: لُزومًا لطاعتِك بعد لُزومٍ، وإسعادًا لأمرِك بعد إسعادٍ.

ولبَّيك: مأخوذٌ مِن: لَبَّ بالمكانِ وألَبَّ، أي: أقام به.

وأصلُ الإسعادِ والمُساعَدةِ: مُتابعةُ العبدِ أمرَ رَبِّه.

يُنظر: ((تهذيب اللغة)) للأزهري (43/2).

(317) رواه البخاري (6549) واللفظ له، ومسلم (2829).

سورةُ طه

الآيات (131-135)

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ
خَيْرٌ وَأَبْقَى (131) وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ
وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132) وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى
(133) وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ
آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134) قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ
الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135)

غريب الكلمات:

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ: أي: لا تُطِلْ نظرَ عينَيْك، ومدُّ العينينِ هو تطويلُ النظرِ، وأصلُ المَدِّ: الجرُّ، ومنه: المُدَّةُ للوقتِ الممتدِّ.

أَزْوَاجًا: أي: أصنافًا، وقيل: أشباهًا وأقرانًا، وأصلُ (زوج): يَدُلُّ على مُقارنةِ شيءٍ لشيءٍ.

زَهْرَةَ: أي: بَهْجَةَ وبُهْرُجَ وزينةَ، وأصلُ (زهر): يدُلُّ على حُسنٍ وضِياءٍ وصَفاءٍ.

بَيِّنَةُ: أي: بيانُ وبرهانُ، والبيِّنةُ: الدلالةُ الواضحةُ؛ يُقال: بان الشيءُ وأبان، إذا اتَّضح وانكشف.

الصُّحُفِ الْأُولَى: أي: التوراةِ والإنجيلِ والكُتُبِ المتقَدِّمةِ، وأصلُ (صحف): يدُلُّ على انبساطٍ في شَيءٍ وسَعَةٍ.

نَذِلَّ: الذِّلَّةُ: الصَّغارُ، وأصلُ الذُّلِّ: الخُضوعُ والاستكانةُ.

وَنَخْزَى: أي: نَهلِك ونبعَد، والخِزيُ: النَّكالُ والفَضيحةُ، وأصلُه: يدُلُّ على الإبعادِ.

السَّوِيِّ: أي: المستقيمِ المستوي، والسَّوِيُّ يقال فيما يُصانُ عن الإفراطِ والتَّفريطِ من حيثُ القدرُ، والكيفيَّةُ، وأصلُ (سوي): يدُلُّ على استقامةٍ، واعتدالٍ بينَ شيئينِ.

تفسير الآيات:

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى (131).

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ.

أي: ولا تُطِلِ النَّظَرَ[318] -يا محمَّدُ- بإعجابٍ ورَغبةٍ وتمنٍّ إلى ما أعطَيناه للأغنياءِ المُترَفينَ من هؤلاءِ المُعرِضينَ عن آياتِ رَبِّهم من نِعَمٍ ومَباهِجَ زائلةٍ، يتمتَّعونَ بها مِن زينةِ الدُّنيا الفانيةِ؛ فإنَّما جعلناها لهم لنبتَلِيَهم ونختَبِرَهم بذلك.[319]

---

(318) قال الزمخشري: (مدُّ النظرِ: تطويلُه، وأن لا يكادَ يردُّه؛ استحسانًا للمنظورِ إليه وإعجابًا به، وتمنيًا أن يكونَ له).
((تفسير الزمخشري)) (3/97، 98).

(319) وممن اختار أنَّ الفتنةَ في قولِه تعالى: لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ تعني الابتلاءَ والاختبارَ: مقاتلُ بنُ سليمان، وابنُ جريرٍ، والرسعني، والقرطبي، وابنُ كثير، والسعدي.

يُنظر: ((تفسير مقاتل بن سليمان)) (3/46)، ((تفسير ابن جرير)) (16/213)، ((تفسير الرسعني)) (4/585)، ((تفسير القرطبي)) (11/262)، ((تفسير ابن كثير)) (5/327)، ((تفسير السعدي)) (ص: 516).

وقيل: المرادُ بقولِه سبحانه: لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ: أي: ليكونَ ذلك فتنةً لهم، وزيادةً في طغيانِهم وكفرِهم.

وممن قال بذلك في الجملة: البغوي، والمحلي.

يُنظر: ((تفسير البغوي)) (3/281)، ((تفسير الجلالين)) (ص: 419).

وقال الشوكاني: (لِنَجعلَ ذلك فِتنةً لهم وضَلالةً؛ ابتلاءً منَّا لهم).

((تفسير الشوكاني)) (3/465).

وقال ابنُ عاشور: (ذِكْرَ الأزواجَ هنا لدَلالتِه على العائلاتِ والبيوتِ، أي: إلى ما متَّعْناهم وأزواجَهم به من المُتَع؛ فكُلُّ زوجٍ مُمَتَّعٌ بمتعةٍ في زوجِه ممَّا يَحسُنُ في نظَرِ كُلٍّ من محاسِنِ قرينِه، وما يقارِنُ ذلك من محاسِنَ مُشتَركةٍ بين الزوجين، كالبنين والرِّياشِ، والمنازِلِ والخَدَمِ).

عن عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عنه، أنَّه قال: ((ادعُ اللهَ يا رسولَ اللهِ أن يوسِّعَ على أمَّتِك؛ فقد وسَّعَ على فارسَ والرُّومِ، وهم لا يَعبُدونَ اللهَ. فاستوى جالسًا، ثمَّ قال: أفي شكٍّ أنت يا ابنَ الخطَّابِ؟! أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيِّباتُهم في الحياةِ الدُّنيا)).(320)

وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى.

أي: وثوابُ اللهِ لك -يا محمَّدُ- في الآخرةِ خيرٌ مِن زينةِ الدُّنيا وأدوَمُ؛ لأنَّه ثوابٌ لا ينقَطِعُ.

كما قال تعالى: إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ [النحل: 95، 96].

وقال سُبحانَه: وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى [الأعلى: 17].

وقال عزَّ وجلَّ: وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى [الضحى: 4، 5].

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (132).

وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا.

((تفسير ابن عاشور)) (340/16).

(320) رواه البخاري (2468)، ومسلم (1479) واللفظ له.

أي: وأْمُرْ -يا محمَّدُ- أهلَك بإقامةِ الصَّلاةِ، وحُثَّهم على المحافظةِ عليها، واصبِرْ على القيامِ بها، وأدائِها في أوقاتِها بحُدودِها وأركانِها، وآدابِها وخُشوعِها.

كما قال تعالى عن إسماعيلَ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا [مريم: 55].

وعن عبدِ اللهِ بنِ عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ عنهما، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: ((مُرُوا أولادَكم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سَبعِ سِنِينَ، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عَشرٍ)).(321)

لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ.

أي: لا نُكَلِّفُك -يا محمَّدُ- رِزقًا، بل نكَلِّفُك بإقامةِ الصَّلاةِ وقد تكَفَّلْنا برِزْقِك ورِزقِ جَميعِ الخَلقِ؛ فلا تَنشَغِلْ بطَلَبِ الرِّزقِ عن أداءِ الصَّلاةِ.

قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ [الذاريات: 56 - 58].

---

(321) أخرجه أبو داود (495) واللفظ له، وأحمد (6689).
صحَّحه ابن القطَّان في ((أحكام النظر)) (275)، وحسَّن إسناده النووي في ((المجموع)) (10/3)، وصححه ابن الملقن في ((البدر المنير)) (238/3) وذكر أن له طرقًا (166/10)، وابن باز في ((مجموع الفتاوى)) (184/7)، والألباني في ((صحيح سنن أبي داود)) (495)، وصحَّح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (166/10) و(36/11).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((إنَّ اللهَ تعالى يقولُ: يا ابنَ آدَمَ، تفرَّغْ لعبادتي أملأْ صَدْرَك غِنًى، وأسُدَّ فَقْرَك، وإلَّا تفعَلْ ملأتُ يديك شُغلًا، ولم أسُدَّ فَقْرَك)).(322)

وعن زيدِ بنِ ثابتٍ رضي اللهُ عنه، قال: سمعتُ رسولَ اللهِ - ﷺ - يقولُ: ((مَن كانت الدُّنيا هَمَّه، فرَّق اللَّهُ عليه أمرَه، وجعَل فقرَه بينَ عينَيْه، ولم يأْتِه مِن الدُّنيا إلَّا ما كُتِب له. ومَن كانت الآخرةُ نيَّتَه، جَمَع له أمرَه، وجعَل غِناهُ في قلبِه، وأتَتْه الدُّنيا وهي راغمةٌ)).(323)

وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى.

أي: والعاقبةُ المحمودةُ في الدُّنيا والآخرةِ لأهلِ التَّقوى.

كما قال تعالى: إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [الأعراف: 128].

وقال سُبحانَه: تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ [القصص: 83].

---

(322) أخرجه الترمذي (2466) واللفظ له، وابن ماجه (4107)، وأحمد (8696).

قال الترمذي: حسن غريب.

وأخرجه ابن حبان في ((صحيحه)) (393)، وصحح إسناده أحمد شاكر في تحقيق ((مسند أحمد)) (284/16)، وصحح الحديث الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4107).

(323) أخرجه ابن ماجه (4105) واللفظ له، وأحمد (21590) مطولًا.

ذكَر ثبوتَه ابنُ عبد البر في ((التمهيد)) (276/21)، ووثق رواته المنذري في ((الترغيب والترهيب)) (56/4)، وجوَّد إسنادَه العراقي في ((تخريج الإحياء)) (271/4)، وصحَّح الحديثَ الألباني في ((صحيح سنن ابن ماجه)) (4105).

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى (133).

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ.

أي: وقال المُشرِكونَ: هلَّا يأتينا محمَّدٌ بمُعجِزةٍ مِن رَبِّه، كمعجزاتِ الأنبياءِ مِن قَبْلِه؟[324]

أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى.

أي: أولمْ يأتِ المشركينَ الذين يَطلُبونَ الآياتِ، القرآنُ الذي يخبِرُهم بما في كتُبِ الأنبياءِ السَّابِقينَ، كالبِشارةِ بمحَمَّدٍ صلَّى الله عليه وسلَّم، الذي جاء مصَدِّقًا لها، ومطابقًا لأخبارِها، ومِن ذلك أخبارُ

---

(324) قال القرطبي: (قوله تعالى: وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ يريد كفَّارَ مكةَ، أي: لولا يأتينا محمَّدٌ بآيةٍ تُوجِبُ العلمَ الضروريَّ، أو بآيةٍ ظاهرةٍ كالنَّاقةِ والعصا.

أو هلَّا يأتينا بالآياتِ التي نقترِحُها نحن كما أتى الأنبياءُ مِن قبله).

((تفسير القرطبي)) (264/11).

وممن قال بأنَّ المرادَ: معجزاتُ الأنبياءِ: ابنُ جرير، والبقاعي، واستظهره الشنقيطي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (218/16)، ((نظم الدرر)) للبقاعي (374/12)، ((أضواء البيان)) للشنقيطي (130/4).

وممَّن قال بأنَّ المرادَ: الآياتُ التي يقترحونها: الزجاج، والسمعاني، والبغوي، وأبو حيان، والسعدي.

يُنظر: ((معاني القرآن وإعرابه)) للزجاج (381/3)، ((تفسير السمعاني)) (365/3)، ((تفسير البغوي)) (281/3)، ((تفسير أبي حيان)) (401/7)، ((تفسير السعدي)) (ص: 517).

قال أبو حيان: (وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ هذه عادتُهم في اقتراحِ الآياتِ، كأنَّهم جعلوا ما ظهَرَ من الآياتِ ليس بآياتٍ، فاقترَحوا هم ما يختارونَ؛ على دَيدنِهم في التعنُّتِ!).

((تفسير أبي حيان)) (401/7).

الأُمَمِ الذين سألوا أنبياءَهم الآياتِ، فلم يؤمِنوا بها فأهلَكْناهم؟ فماذا يُؤمِّنُ هؤلاء المُشرِكينَ إن أتَتْهم آيةٌ أن يكونَ حالُهم كحالِ أولئك فيَهلِكوا مِثلَهم؟(325)

كما قال تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ [النمل: 76].

وقال سُبحانه: وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ [العنكبوت: 50، 51].

وقال عزَّ وجلَّ: وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا [الإسراء: 59].

---

(325) قال القرطبي: (قال اللهُ تعالى: أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى يريدُ التوراةَ والإنجيلَ والكُتُبَ المتقدِّمةَ، وذلك أعظَمُ آيةٍ؛ إذ أخبَرَ بما فيها...

وقيل: أولَمْ تأتِهم الآيةُ الدالَّةُ على نبُوَّته بما وجَدوه في الكُتُبِ المتقدِّمة من البشارةِ.

وقيل: أولم يأتِهم إهلاكُنا الأُمَمَ الذين كَفَروا واقترحوا الآياتِ، فما يُؤَمِّنُهم إن أتَتْهم الآياتُ أن يكونَ حالُهم حالَ أولئك؟!). ((تفسير القرطبي)) (264/11).

وقال ابن عاشور: (وهذه البيِّنةُ هي محمَّدٌ صلَّى الله عليه وسلَّم وكتابُه القرآن؛ لأنَّ الرَّسولَ موعودٌ به في الكُتُبِ السَّالفة، ولأنَّ في القرآنِ تصديقًا لِما في تلك الكُتُبِ مِن أخبارِ الأنبياء، ومن المواعِظِ وأصولِ التَّشريعِ). ((تفسير ابن عاشور)) (345/16).

وعن أبي هُريرةَ رَضِيَ اللهُ عنه، عن النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قال: ((ما من الأنبياءِ نبيٌّ إلَّا أُعطِيَ ما مِثلُه آمَنَ عليه البَشَرُ، وإنما كان الذي أُوتيتُ وَحيًا أوحاه اللهُ إليَّ، فأرجو أن أكونَ أكثَرَهم تابِعًا يومَ القيامةِ))[326].

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى (134).

وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ.

أي: ولو أنَّا أهلَكْنا هؤلاء المُشرِكينَ المُكَذِّبينَ بالقرآنِ بعَذابٍ مِن قَبلِ نُزولِ القُرآنِ عليهم، وإرسالِ محمَّدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إليهم؛ لقالوا يومَ القيامةِ محتَجِّينَ على اللهِ: رَبَّنا، هلَّا أرسَلْتَ إلينا رسولًا فنُؤمِنَ ونعمَلَ بما جاء به مِن آياتِ كِتابِك!

كما قال تعالى: وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا [الإسراء: 15].

مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى.

أي: مِن قَبلِ أن نَذِلَّ بالعذابِ، ونَخزَى في النَّارِ.

كما قال تعالى: رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ [آل عمران: 192].

---

(326) رواه البخاري (4981) واللفظ له، ومسلم (152).

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى (135).

قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا.

أي: قُلْ لهم –يا محمَّدُ: كلٌّ منا ومنكم مُنتَظِرٌ دوائِرَ الزَّمانِ بالآخَرِ، ولِمَن يكون النَّصرُ؛ فداوِموا على انتظارِكم.

كما قال تعالى: قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ [التوبة: 52].

فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَنِ اهْتَدَى.

أي: فستَعلَمونَ -أيُّها المُشرِكونَ- مَن هم أهلُ الطَّريقِ المُستَقيمِ المُعتَدِلِ الذي لا اعوِجاجَ فيه أنحن أم أنتم، وستَعلَمونَ مَن كان مُهتَديًا إلى الحَقِّ، ومَنِ الحائِدُ عنه.(327)

---

(327) قيل: المرادُ: ستعلمون ذلك يومَ القيامةِ.

وممن قال به: ابنُ جرير، والواحدي، والبغوي.

يُنظر: ((تفسير ابن جرير)) (220/16)، ((الوسيط)) للواحدي (228/3)، ((تفسير البغوي)) (282/3).

وقيل: المرادُ: إذا وقع النَّصرُ.

وممن قال به: القرطبي، وابن عجيبة، والقاسمي.

يُنظر: ((تفسير القرطبي)) (265/11)، ((تفسير ابن عجيبة)) (438/3)، ((تفسير القاسمي)) (171/7).

قال البقاعي: (ولقد عَلِموا يقينًا ذلك يومَ فَتحِ مكة المشَرَّفة، واشتد اغتباطُهم بالإسلام).

((نظم الدرر)) (377/12).

وجمع الشنقيطيُّ بين القولينِ السَّابقين، فقال: (والمعنى: سيتَّضِحُ لكم أنَّا مُهتَدونَ، وأنَّا على صراطٍ مُستقيمٍ، وأنَّكم على ضلالٍ وباطلٍ، وهذا يظهَرُ لهم يومَ القيامةِ إذا عايَنوا الحقيقةَ، ويظهَرُ لهم في الدُّنيا؛ لِما يرَونَه من نَصـرِ اللهِ لنبيِّه صـلَّى اللهُ عليه وسلَّم).

((أضواء البيان)) (131/4).

تمَّ بحمدِ الله تعالى المجلَّدُ السادسَ عشرَ

ويَليه المجلَّدُ السابعَ عشر، وأوَّله: تفسيرُ سورةِ الأنبياءِ

الفهرس

" نُسْخَةٌ إِلِكْتِرُونِيَّةٌ، حُقُوقُهَا مَحْفُوظَةٌ لِكُلِّ مُسْلِمٍ "

نسخة
إلكترونية

المُغني في التَّفسير

المُحرّرُ الجامعُ لِتفاسيرِ السَّلَفِ

[تَهْذِيبُ التَّفْسِيرِ المُحَرَّرِ لِلدُّرَرِ السَّنِيَّةِ]

[مُطَرَّزًا بِحَاشِيَةٍ مِنْ تَحْرِيرَاتٍ وَتَرْجِيحَاتٍ وَتَعْلِيقَاتِ عُيُونِ تَفَاسِيرِ المُحَقِّقِينَ فِي التَّفْسِيرِ:

{ابْنِ جَرِيرٍ، وَابْنِ عَطِيَّةَ، وَابْنِ تَيْمِيَّةَ، وَابْنِ قَيِّمِ الجَوْزِيَّةِ، وَابْنِ كَثِيرٍ، رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى}

كَتَبَهُ وَاعْتَنَى بِهِ

د/ هَانِي بْن عَبْده

د/ آلَاء رِضَا